HUSSAM ABDEL-KAREEM

# حسام عبد الكريم

# صعود معاوية

## خلفيات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

1

دراسة في المصادر الإسلامية

معود معاوية

دراسة في الحضارة الإسلامية

1

حسام عبد الكريم

# صعود معاوية

## خلفيات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

1

دراسة في المصادر الإسلامية

# المقدمة

هذا هو الجزء الأول من كتاب يبحث في أحداث قضية كبيرة في تاريخ صدر الإسلام، ويتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) الى سنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). ولكن هذا ليس تاريخاً لتلك الفترة الزمنية، بل هو بحث تاريخي فيها. أي أن الأحداث والوقائع المحللة في هذا البحث هي تلك فقط التي لها علاقة بالفتنة الكبرى، وهي منتقاة من بين أحداث أخرى في ذات الفترة لم يكن لها ارتباط بموضوع الكتاب.

فهذا العمل بحثٌ وتنقيبٌ في أمهات الكتب والمصادر الأصيلة للتاريخ الاسلامي. ولقد قمتُ بمقارنة كيف روي الخبر الواحد في المصادر المختلفة وملاحظة الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها. وحرصتُ على إثبات النصوص كما وردت في مصادرها بدقة متناهية وبدون تصرّف، وتركتُ للقارئ الفرصة للنظر فيها وفهمها وهي بلغتها القديمة.

ومن أجل الوصول الى الحقيقة التاريخية كان لا بد من البحث والتحقيق والمقارنة بين المصادر وتحليل الأخبار وربطها بظروفها الموضوعية من أجل الاستقرار على الخبر الصحيح. وكان لا بد من الربط بين الوقائع وتسلسلها وتحليلها ودراسة خلفياتها.

وهذه مهمة صعبة بالنظر الى كثرة الروايات واختلاف التفاصيل، فكان لا بد أن يكون منهج البحث علمياً عقلانياً يأخذ بعين الاعتبار الإمكانية التاريخية للحدث ويمحّص في الأزمان والتواريخ والبلاد والاسماء. وفي أكثر

الأحيان تكون الحقيقة موزعة بين شتى الروايات بحيث تكمل بعضها بعضاً. فمن النادر أن تكون رواية بعينها تروي غليل الباحث عن الحقيقة تماماً، بل الأغلب أن تكون حتى أصح الروايات بحاجة إلى ما يكملها أو يوضحها أو يغطي جوانب الضعف والنقص فيها. وهناك فرق بين قبول الروايات التي تتعلق بمجمل سير الأحداث، وبين قبول تفاصيلها. فمن الممكن أن تكون الرواية مقبولة في إطارها العام ولكن بعض تفاصيلها مغلوطة أو مكذوبة. وهذا الأمر يبرز كثيراً عند تناول الوقائع التاريخية الكبرى حيث هناك في الأغلب اتفاق على مجمل مسار الأحداث، مع اختلاف في التفاصيل وفي الأدوار العنصرية للشخصيات المعنية بتلك الأحداث. والنتيجة أنه من الجائز قبول جزء من رواية ما، وعدم قبول جزء آخر منها. وطبعاً يمكن قبول روايات من مصدر ما ورفض روايات أخرى من نفس المصدر. فالانتقائية مسموحة، بل ويمكن القول إنها مطلوبة في السعي من أجل التخلص مما علق بالروايات من شوائب التشويه وروايات تزييف بعض ذوي الأهواء أو مبالغات الرواة وأخطائهم. ومن البديهي القول إنه لا يجوز التسليم الكامل بصحة كل ما ورد في أي مصدر من مصادر الحديث أو السيرة أو التاريخ، مهما بلغ ذلك المصدر من الشهرة والذيوع. ولا ينبغي أن يكون هناك حرج في الإشارة إلى ما يعتري بعض جوانب الكتب المشهورة من خلل أو وهن. ولا يعني ذلك بالضرورة قدحاً في مؤلفيها أو أو تهويناً من شأن الجهود الجبارة التي بذلوها.

## إنصاف المؤرخين

ولا رغبة منا في تأكيد عظمة الدور الذي لعبه المؤرخون والإخباريون في حفظ التراث التاريخي العربي. فهؤلاء هم الحافظون للذاكرة الجماعية لأمة العرب ولولاهم لما كان هناك تاريخ إسلامي قط. ولولا تلك الطبقة من الرواة الأوائل، الذين نجهل الكثيرين منهم، لحصلت قطيعة مع الماضي ولما وجدنا هذه المادة التاريخية الغزيرة التي نراها في كتب الطبري والبلاذري وغيرهما. كان هناك مجهود حقيقي كبير لجمع وتدوين وتوثيق المادة التاريخية بدأت إرهاصاته في القرن الأول الهجري ثم يلبث أن تطور وتقدم على أيدي

محترفين ومتخصصين في القرن الهجري الثاني، الى أن بلغ ذروته مع عمالقة القرن الثالث. وهذا كله مجهود ينبغي أن يُشكر ويُحمد.

إلاّ أن تراثنا الاسلامي قد اولى مكانة كبيرة وبارزة للمحدّثين والفقهاء، وهؤلاء كانوا ميالين على الدوام الى التقليل من قيمة المؤرخين، بل والازدراء بهم ومقتهم. وفي هذا ظلم كبير.

فعلم الإسناد والحديث والجرح والتعديل، رغم أهميته وعظمته، لا يجوز اعتماده معياراً لعلم التاريخ بل ينبغي حصره في نطاقه الديني والشرعي. واما فيما يتعلق بالتاريخ فإن البحث في أسانيد الروايات، والتركيز فقط على ذلك من أجل اعتمادها لتكون مقياساً وميزاناً نهائياً للحكم على صحتها، خطأ جسيم لأنه سيؤدي إلى الانغلاق في حدود نصوص قليلة جداً لا تكفي حتى للإحاطة بالتصوّر العام لأحداث السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام. وستضيع بسبب ذلك نصوصٌ صحيحة لم يجبر لها سندٌ يعرفه المحدثون أو الإخباريون. فالكمّ الأكبر من الروايات التاريخية التي وردت في أمهات الكتب لا يجوز أن تخضع لمعايير علماء الجرح والتعديل وشيوخ علم الرجال. ولا يجوز إهمال الذاكرة الجمعية للشعوب والأمم والتي استوعبت ووعت عدداً كبيراً مما شاع من أخبار، تناقلتها الأجيال وسجلها المؤرخون. فالأحاديث النبوية يترتب عليها في الغالب أحكام شرعية أو انها تتعلق بأصل الدين ولذا فمن المنطقي – بل والضروري – أن يعرف المحدّثُ تسلسلَ رواتها ويتأكد من أهليتهم الدينية، وليس ذلك حال الأخبار التاريخية.

كما ان الضوابط والمعايير التي وضعها علماء الجرح والتعديل لقبول الرواة تتضمن بُعداً مذهبياً واضحاً. فرغم انه لا خلاف على أهمية صفات الصدق والأمانة في النقل لدى رواة الأحاديث والسير والأخبار، إلاّ أن اشتراط أن يكون الراوي من المؤمنين بمقولات ومعتقدات مذهبية معيّنة أدى عملياً الى ردّ ورفض الكثير من الروايات الصحيحة التي يوجد في أسانيدها بعضُ مَن لم يرَهُ المحدثون المتعصبون أهلاً للرواية لا بسبب يتصل بأمانته وصدقه بل بسبب عدم اتفاقه مع بعض آرائهم في أمور مذهبية، وهنا نبع الاتهام بالتشيع

الذي كان كثيراً ما يوجه الى المؤرخين. وقلما نجا أحدٌ من رجال علم التاريخ والأخبار من الاتهام بالتشيع من قبل أهل الفقه والحديث. فطالت تلك التهمة أبا مخنف وهشام الكلبي والواقدي وابن اسحق واليعقوبي ونصر بن مزاحم والمسعودي وابن أعثم وغيرهم الكثيرين. وحتى الامام الطبري – وهو الذي أشاع في كتابه قصص ابن سبأ وروّج لمرويات سيف بن عمر المعادية لكل ما هو شيعي – اتهم بالتشيع من قبل الحنابلة وعانى الكثير من جراء ذلك في بغداد. فأوساط المحدثين والفقهاء لم تكن ترتاح لمن يتصدى للحديث عن أخبار الفتنة الكبرى والحروب الأهلية الكبيرة التي حدثت بين المسلمين في النصف الأول من القرن الهجري الأول. وحين يصل الكلام الى الحديث عن الخلافات بين كبار الصحابة ودورهم في أحداث الفتنة الكبرى تبلغ حساسية المحدثين والفقهاء ذروتها ويصبحون كمن يخوض معركة للدفاع عن ذاته! فالمحدثون والفقهاء تبنوا نظرية عدالة كل الصحابة وروّجوها، وهي التي ترفع من مقام الصحابة الى ذرىً سامقة وتمنحهم نوعاً من العصمة والحصانة ضد النقد وتحولهم الى شخصيات دينية غير تاريخية. فلا تريد أوساط المحدثين والفقهاء أن تسمع شيئاً عن صراعات كبار الصحابة لأنها تتمسك بالصورة التي تخيلتها وافترضتها لمجتمع الصحابة المثالي وشخصياته المثالية المضحّية المتفانية في خدمة الدين. فاتفق قرر المحدثون والفقهاء إقفال باب البحث والنقاش فيما جرى، حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة. ولذلك كانوا ينظرون شزراً لأهل الأخبار والتاريخ، ويهاجمونهم ويضعفونهم ويخصمونهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً.

فالمشكلة إذن ليست من لدن الإخباريين والمؤرخين بل هي مسألة مبدأ لدى أهل الفقه والحديث، الذين لن يرضوا منهم إلاّ إذا تركوا عملهم جملة وتفصيلاً، أو أنهم توقفوا عن موضوعيتهم وتحولوا الى مروّجين لتاريخ متخيّل ومعنّ تغيب فيه الحقيقة لحساب نظرية عدالة الصحابة كما يفهمها الفقهاء.

وحتى لو كان المؤرخ شيعياً فما الضير في ذلك؟ وهل الموضوعية والمصداقية والتحليل العقلاني حكرٌ على مذهب دون غيره؟ وهل كون

الكاتب «سنياً» يمنحه ميزة ويجعله متفوقاً على نظيره «الشيعي»؟ هذه الأسئلة جديرة بالطرح نظراً الى كثافة الهجوم على المؤرخين والتشكيك في جهدهم وعملهم العملاق.

والحق أنه حتى لو كانت هناك «ميول» شيعية في كتابات بعض أهل الأخبار والتاريخ، كأبي مخنف واليعقوبي ونصر بن مزاحم، فهي لا تعدو كونها تفصيلات هنا وهناك، أو تلوين للروايات اذا شئت، ولا تمسّ جوهر الحدث التاريخي. فهؤلاء كانوا مؤرخين محترفين ولا يوجد في كتاباتهم أي نوع من «المحاججة» المذهبية. هم كانوا يريدون أن يخبروا، لا أن يبرهنوا. هم اهتموا بالحقيقة التاريخية، ولم يريدوا تلفيقها. وهم بالاجمال حافظوا على حد مقبول من الموضوعية. ولا بأس بعد ذلك إن كان للمؤرخ عواطف. فهؤلاء بشر ولا يمكن أن يكونوا محايدين تماماً في مشاعرهم إزاء أحداث صراع ملحميّ وكبير. وفي مقابل الميول الشيعية لبعض أهل التاريخ والأخبار هناك «ميول أموية» عند البعض الآخر، وذلك أمر مفهوم ولا يقلل من مكانة علم التاريخ ولا أعلامه.

## مصادر البحث

لقد لجأتُ إلى المصادر الأقدم والأقرب للأحداث، فكان جلّ الاعتماد على أعمال مؤرخي القرن الثالث الهجري. ويمكن تقسيم المصادر الى رئيسية أساسية وثانوية مساعدة.

وعلى رأس المصادر الأساسية للمادة التاريخية يأتي بالطبع كتاب تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري (توفي عام 309 للهجرة)، الذي هو موسوعة تاريخية ضخمة حوت شتى الروايات للأحداث بأسانيدها وتفاصيلها. ولا يقل شأناً عنه المصدر الموسوعي الآخر وهو البلاذري (توفي عام 279 للهجرة)، وكتابه أنساب الأشراف. ويختلف كتابا الطبري والبلاذري في الشكل والتصنيف، فالأول كتاب تاريخ عام اعتمد فيه التسلسل الزمني للأحداث بينما ألف البلاذري كتابه ليكون كتاب أنساب يتعرض فيه للشخصيات وسيرتها. وخلال ترجمته للشخصيات التي أوردها بحسب درجة قرابتها من رسول الله (ص) قدم البلاذري تاريخاً كاملاً وافياً لعصر الاسلام، ورغم ذلك

الاختلاف الظاهري يشترك كتابا الطبري والبلاذري في خاصية الهائل بتفاصيل المادة التاريخية. ويمتاز هذان المؤرخان بالشمولية والنزعة الموسوعية، الى حد تسجيل الحركات واللفتات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والمجريات، بدقة متناهية واستيعابٍ لا نظير له. ولذلك يمكن اعتبارهما ذروة التاريخ المدوّن لصدر الاسلام.

ويستقي الطبري والبلاذري مادتهما التاريخية من مصادر أقدم مكتوبة ولكن لم تصلنا إلا من خلالهما. وتعود هذه المصادر الى مؤرخين وإخباريين مهمين عاشوا في القرن الثاني الهجري. كانت لهؤلاء مؤلفات حديثة تناولت بتركيز شديد كل جوانب أحداث النصف الأول للقرن الهجري الأول. تلك الطبقة تضم سيف بن عمر (لدى الطبري) الذي توفي عام 180 للهجرة، وأبا مخنف لوط بن يحيى (توفي عام 157 للهجرة)، وأبا عبد الله الواقدي (توفي عام 207 للهجرة)، ومحمد بن شهاب الزهري (توفي عام 124 للهجرة)، وعلي بن محمد المدائني (توفي عام 225 للهجرة)، وهشام الكلبي (توفي عام 204 للهجرة)، وعوانة بن الحكم (توفي عام 147 للهجرة)، ومحمد بن اسحق (توفي عام 150 للهجرة)، والهيثم بن عدي (توفي عام 206 للهجرة). كان هؤلاء بمؤلفاتهم في مجال الأخبار والأنساب والفتوح والمغازي والسير المصدر المكتوب الأساسي الذي استند اليه المؤرخان الموسوعيان العملاقان الكبيران الطبري والبلاذري.

وهؤلاء بدورهم يرجعون الى طبقة أقدم من أهل الأخبار، من القرن الهجري الأول. وأشهر هؤلاء هو عامر الشعبي (توفي عام 105 للهجرة) الذي يمكن اعتباره شيخ أهل العلم في زمانه، ومحمد بن سيرين (توفي عام 110 للهجرة)، ولا ينسى أبان بن عثمان بن عفان (توفي عام 105 للهجرة) وعروة بن الزبير (توفي عام 94 للهجرة)، رغم شهرتهما في مجال السيرا. وقد قام الشعبي وغيره بجمع الأخبار والروايات والمأثور التاريخي الشفهي والمتداول من جيل لآخر والمتداول في أوساط القبائل العربية التي شارك أسلافها في أحداث الفتنة الكبرى. فالشعبي معبرٌ عن الذاكرة الجماعية الأكثر قدماً والتي بدورها تمثل هيكل الوقائع الأساسي. فبعض أسانيد أبي مخنف متصلة في تسلسلها: الشعبي، مجالد بن سعيد، عبد الرحمن بن أبي الكنود، فضيل

بن عليج، ابو الحباب الكلبي ثم يأتي شاهد العيان. فإذن أجيال المؤرخين وأهل الأخبار تتالى وتتواصل، حلقة لحلقة، وطبقة لطبقة، الى أن تصل الى المحققين الكبار من أهل القرن الثالث الهجري.

ولكنّ هناك إشكالاً بخصوص مصادر الطبري المتعلقة بأخبار الفتنة الكبرى. فرغم تنوّع مصادر رواياته إلاّ أن الفترة الأولى من احداث الفتنة الكبرى – زمان الخليفة عثمان بن عفان – تميزت بإفراطه في الاعتماد على مصدر بعينه: سيف بن عمر. فلو أحصينا[1] رواياته عن أحداث زمان الخليفة عثمان لوجدناها كما يلي :

سيف بن عمر: أخذ عنه 97 رواية

الواقدي: أخذ عنه 19 رواية

الزهري: أخذ عنه روايتين

المدائني: أخذ عنه 8 روايات

وهشام الكلبي: أخذ عنه روايتين

فالإمام الطبري قرر كما هو ظاهر من هذه الارقام اعتماد روايات سيف كمصدر رئيسي لأخبار فترة خلافة عثمان وهنا الإشكالية. فسيف بن عمر التميمي – رغم غزارة رواياته – مصدرٌ لا يمكن الاطمئنان اليه. وبنظري فإن الإمام الطبري ارتكب خطأً جسيماً حين أثبت روايات سيف في تاريخه وبالتالي صار مسؤولاً عن شيوع الكثير من الأفكار الخاطئة – بل والغريبة الشاذة – حتى يومنا هذا. ولكن موضوع سيف بن عمر طويل ويحتاج بحوثاً مستقلة وهو يرتبط بقصص عبدالله بن سبأ الخرافية ونظريات التآمر اليهودي. ولستُ بصدد بحث ذلك بالتفصيل هنا. ولمن شاء أن يراجع ما كتب حول ابن سبأ وسيف بن عمر من أبحاث قيمة[2].

---

(1) احصاء الروايات هذا مأخوذ من كتاب «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعثمان طلعم، ص 68–77.

(2) مثلاً: كتاب «عبد الله بن سبأ» لمرتضى العسكري، وكذلك كتابات حسن بن فرحان المالكي «نحو انقاذ التاريخ الاسلامي» وجمع د. سليمان العودة في عبد الله بن سبأ. وأيضاً يراجع كتابنا «قريش وعلي».

وأثار رغم اعتراضي على مجمل روايات سيف بن عمر والعقائدي بأنه كان يعمد تلفيق رواياته لخدمة خطه العقائدي والمذهبي إلا أنني تعاملتُ مع هذه الروايات التي يزخر بها تاريخ الطبري. فلم أعرض عنها بل بذلتُ جهداً في نقدها وتوضيح مكامن الخلل فيها وتناقضاتها.

وأما البلاذري فقد كان أكثر توازناً في مصادره عن فترة حكم عثمان. وهنا الإحصائية:

الواقدي: أخذ عنه 62 رواية

أبو مخنف: أخذ عنه 36 رواية

الزهري: أخذ عنه 16 رواية

عوانة بن الحكم: أخذ عنه 6 روايات

المدائني: أخذ عنه 42 رواية

وهشام الكلبي: أخذ عنه 14 رواية

الهيثم بن عدي: أخذ عنه 4 روايات

أي أن الواقدي هو المشترك بين الطبري والبلاذري فيما يتعلق بهذه المرحلة التاريخية. والملاحظ أن اعتماد الطبري على روايات سيف سوف ينتهي بعد معركة الجمل وقبيل معركة صفين، حيث تحول بعدها إلى الاعتماد على أبي مخنف والآخرين. أي أن الطبري يميز بين مصادره فلكل مرحلة تاريخية ما يناسبها عنده.

ورغم عدم شهرته[1] إلا أن كتاب تاريخ المدينة لابن شبة النميري (توفي عام 262 للهجرة) مصدرٌ رائع لأحداث عهد الخليفة عثمان. وهو يحتوي كماً مدهشاً من الروايات التي تتناول الأحداث التي وقعت في عهده والنهاية

(1) يعود ذلك إلى تأخر العثور على مخطوطته إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري. فقد ذكر حبيب محمود أحمد أنه عثر عليها في مكتبة المرحوم محمد مظهر الفاروقي في المدينة المنورة فعهد بتحقيقها إلى فهيم محمد شلتوت. كتب ذلك في مقدمة الكتاب بتاريخ ذي الحجة 1402 للهجرة.

الايسة التي تليها. ولعله لا يوجد نص قديم عالج سيرة عثمان والمجتمع المدني وأحداث الفتنة بمثل تلك الدقة والتوسع الموجودة في كتاب ابن شبة هذا، مما يجعله من اهم المصادر الأصيلة المتاحة للباحث. ومما زاده تألقاً أن المؤلف يورد أخباره بإسناد كامل الى أن يصل شاهد الحادثة أو سامعها أو ناقلها. ولكن الكتاب ينتهي عند مقتل عثمان ولا يتطرق ما بعد ذلك.

وأما كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (توفي عام 230 للهجرة) فهو قديم ومشهور. ورغم أنه في الأساس كتاب في علم تراجم الرجال إلا أنه يمكن اعتباره مصدراً مميزاً لتاريخ صدر الاسلام من خلال ما حواه من اخبار وروايات مسندة عن احداث الفتنة في سياق استعراضه لشخصيات الصحابة وحياتهم.

وهناك كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي (توفي عام 314 للهجرة)، وهو مما تأخر اكتشافه وتحقيقه، ولكنه يحتوي روايات مفصلة وكثيرة عن حوادث الفتنة. وبخلاف المصادر الأساسية التي ذكرناها يعتمد مؤلفه أسلوب الاسناد الجمعي حيث يذكر أسماء من وصله الخبر عن طريقهم مرة واحدة ثم يعلن كيفية تدخله *«وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد»*. وتضم مصادره أبو مخنف والواقدي والشعبي وحفيد عبد الرحمن بن عوف وغيرهم.

واختلف كتاب تاريخ اليعقوبي (توفي عام 284 للهجرة) عن غيره من المصادر الرئيسية بتركه للاسناد التفصيلي للروايات التاريخية. كما تميز بنزعة للاختصار والتلخيص مما قلل من شأنه كمصدر بالقياس الى الطبري والبلاذري.

وقد أوضح منهجه بقوله *«ولم نذهب إلى التفرد بكتاب نصنفه ونتكلف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا، لكنا قد ذهبنا إلى جمع المقالات والروايات لأنا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمار، وزاد بعضهم ونقص بعض، فأردنا أن نجمع ما انتهى إلينا مما جاء به كل امرئ منهم لأن الواحد لا يحيط بكل العلم»*

وقد أجمل ذكر مصادره كما يلي «ركان من روينا عنه ما في هذا الكتاب: إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي عن أشياخ بني هاشم، وأبو البختري وهب بن وهب القرشي عن جعفر بن محمد وغيره من رجاله، وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد، ومحمد بن عمر الواقدي عن موسى بن عقبة وغيره من رجاله، وعبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي، وأبو حسان الزيادي عن أبي المنذر الكلبي وغيره من رجاله، وعيسى بن يزيد بن دأب، والهيثم بن عدي الطائي عن عبد الله بن عباس الهمداني، ومحمد بن كثير القرشي عن أبي صالح وغيره من رجاله، وعلي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، وأبو معشر المدني، ومحمد بن موسى الخوارزمي المنجم، وما شاء الله الحاسب في طوالع السنين والأوقات. وأشياء من غير هؤلاء الذين سمينا جملا جاء بها غيرهم ورواها سواهم وعلمناها من سير الخلفاء وأخبارهم، وجعلناه كتابا مختصرا، حذفنا منه الأشعار وتطويل الأخبار».

وعند تناول معركة صفين وما جرى بها لا يمكن تجاهل كتاب «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم المنقري. فهو كتاب متخصص بهذا الحدث الكبير وقد أودع فيه مؤلفه (وهو من المصادر القديمة – توفي سنة 212 للهجرة) تفاصيل كثيرة جدا عن القتال والمعارك والمساجلات والمراسلات، والأشعار والخطب، وكل ما يتعلق بتلك الحرب. والكتاب به نفَسٌ ملحميّ، وهو بالتالي ميالٌ إلى المبالغات وبراعة التصوير، ولكنه غنيّ بالمادة التاريخية. ومن مزاياه أيضا اعتماد مؤلفه على مصدر قديم غير أبي مخنف والواقدي: عمر بن سعد الأسدي والتي جاءت رواياته بشكل عام غير متناقضة مع رواياتهما.

وكذلك يعتبر كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (توفي سنة 282 للهجرة) من المصادر المفيدة للباحث كونه يحتوي تفاصيل كثيرة عن حربي الجمل وصفين واغتيال عليّ وتنازل الحسن لمعاوية. ولم يعتن مؤلفه بذكر أسانيد رواياته بل اعتمد أسلوب انتقاء الأخبار التي وجدها من المصادر

القديمة وقال «وجدتُ في كتب اهل العلم بالاخبار الاولى» ثم يسترسل بالسرد. ولم يذكر اسماء مصادر رواياته الا قليلا، ومنهم الشعبي والكلبي والهيثم بن عدي.

وأما المصادر المساعدة فهي كثيرة. وأهمها كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (والذي هو عملٌ موسوعيٌ ضخم ومفيدٌ. إلاّ أن مؤلفه من المتأخرين)، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، والبداية والنهاية لابن كثير والامامة والسياسة لابن قتيبة (رغم أن هناك شكاً في صحة نسبة الكتاب اليه) والثقات لابن حبان وكتب تراجم الرجال وخاصة أسد الغابة لابن الأثير والاستيعاب لابن عبد البر وتاريخ خليفة بن خياط (الذي هو قديم ولكنه مختصر).

وقد أوليتُ عناية خاصة لابن كثير ورواياته وآرائه، لكونه يمثل اتجاهاً واضحاً منحازاً للخليفة عثمان ولبني أمية بشكل عام. فيمكن القول إنه المؤرخ الرسمي للحكام ولمؤسسة الخلافة برمتها. ويقترب من عمله الامام الذهبي في كتابيه سير أعلام النبلاء وتاريخ الاسلام.

وهناك مصادر هامشية لجأتُ اليها لتدعيم روايات أو إكمالها مثل الاصابة لابن حجر ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ ابن خلدون.

* * * * *

وقد قررتُ أن أسمّي هذا الكتاب «صعود معاوية» نظراً لما في ذلك من غرابةٍ تصل الى حد العجب: إذ كيف يصلُ رجلٌ من «الطلقاء» الى رئاسة دولة الرسول (ص) وهم الذين أصرّوا على الصمود في معاداته ومعاداة دعوته الى الرمق الاخير؟! كيف يتجاوز المهاجرين والانصار الذين صنعوا ملحمة الاسلام بدمائهم وتضحياتهم وصبرهم؟! ما الذي جرى حتى يمكن لرجلٍ يحملُ تلك الصفة «طليق» أن يصعد الى القمة ومن ثم يؤسس لمرضٍ عائليّ توارثه سلالته ؟! الجواب على هذه التساؤلات الكبيرة هو: «الفتنة الكبرى» وأحداث الفتنة الكبرى، وهي موضوع هذا الكتاب.

ويتكاملُ هذا العمل مع جزئين تاليين لاحقين في الملحمة:

«عليّ وعائشة ... حرب الجمل»

و

«صفّين، الخوارج ... ونهاية عليّ»

وأتمنى ان أكون قد وفقتُ في ما كتبتُه، وأن يكون هذا الكتاب إسهاماً في جلاء الحقيقة التاريخية لمن يسعى لها.

حسام عبد الكريم

آب 2014

## الجزء الأول

# سياسات الخليفة عثمان بن عفان

## الفصل الأول: قضية عبيد الله بن عمر[1]

### مشكلة تواجه الخليفة في يومه الأول

كانت أول مشكلة واجهت الخليفة عثمان وتطلبت منه قراراً هي ما حصل من عبيد الله بن عمر بن الخطاب.

والظاهر أن عبيد الله هذا كان شاباً قوياً متهوراً، وبخلاف أخيه عبد الله الذي اشتهر بالعبادة والزهد، يبدو أن هناك شكاً حول حُسن أخلاقه منذ صغره. وقد ذكر محمد بن حبيب البغدادي في كتاب «المنمق في أخبار قريش» أن أباه عمر كان أقام عليه حد الخمر.

### الوقائع

فقد اندفع عبيد الله بن عمر للثأر من عدد من الأشخاص الذين اعتقد أنهم ساعدوا أبا لؤلؤة في قتل والده. وبدون أي تمحيص أو تدقيق أو تحقيق. فابتدأ بقتل الهرمزان، وهو كان من القيادات الفارسية وقد أشهر إسلامه في زمان عمر، ثم أتى جفينة، وكان نصرانياً من أهل الحيرة، فقتله. ثم أتى منزل أبي لؤلؤة فقتل ابنته الصغيرة.

وليس هناك اختلاف يذكر بين المؤرخين وأصحاب الأخبار بشأن ما قام به عبيد الله من قتل. ولكن هناك تأويلات وتبريرات لما فعله، تبعاً لميول الرواة.

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج[illegible] ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج[illegible] ص[illegible])، تاريخ اليعقوبي (ج[illegible] ص[illegible])، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص [illegible])، أسد الغابة لابن الأثير (ج[illegible] ص[illegible])، البداية والنهاية لابن كثير (ج[illegible] ص[illegible])، والمنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص [illegible]).

فمثلاً قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عن الخليفة عثمان «وأول حكومة حكم فيها قضية عبيد الله بن عمر، وذلك أنه غدا على ابنة أبي لؤلؤة قاتل عمر فقتلها. وضرب رجلاً نصرانياً يقال له جفينة بالسيف فقتله. وضرب الهرمزان الذي كان صاحب تستر فقتله.

وكان قد قيل إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر، والله أعلم»

وروى ابن الأثير في «أسد الغابة» أنه بعد دفن عمر «قيل لعبيد الله: قد رأينا أبا لؤلؤة والهرمزان نجياً، والهرمزان يقلب هذا الخنجر بيده، وهو الذي قتل به عمر، ومعهما جفينة وهو رجل من العباد جاء به سعد بن أبي وقاص يعلم الكتاب بالمدينة، وابنة فيروز، وكلهم مشرك إلاّ الهرمزان.

فعدا عليهم عبيد الله بالسيف فقتل الهرمزان وابنته وجفينة. فانتهاه الناس فلم ينته وقال والله لأقتلن من يصغر هؤلاء في حسبه....»

وقد ذكر ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عدة روايات عن الواقدي كلها تشير إلى قيام عبيد الله بقتل الهرمزان وجفينة والبنت الصغيرة. وبعضها يقول إن عبيد الله في هياجه أراد ألاّ يترك سبياً في المدينة يومئذ إلاّ قتله، لولا قيام عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان بالسيطرة عليه وانتزاع سيفه وتهدئته

## موقف عثمان تجاه القاتل

سبّب ما قام به عبيد الله مشكلة حقيقية وحرجاً بالغاً للخليفة الجديد. فالقاتل هو ابن الخليفة المقتول، وعمر بن الخطاب له مكانة رفيعة وعظيمة في نفوس المسلمين الذين لم يكونوا بعدُ استفاقوا من صدمة اغتياله.

ولكن ما فعله عبيد الله كان عظيماً. فهو ارتكب جريمة بشعة تمثّلت بقتل ثلاثة أشخاص من بينهم طفلة، على الظن ودون أي محاكمة. والهرمزان كان مسلماً، وعلى الرغم من أن البعض قد يشكك في مدى إخلاص ذلك القائد الفارسي الذي دخل الاسلام، إلاّ أنه لم يصدر منه ما يتناقض مع واجباته كمسلم.

فالحكم الشرعي بحق عبيد الله معروفٌ إذن: الاعدام. فالقاتل يقتل، إلاّ أن يعفو أولو الدم.

ولكن ماذا يفعل عثمان؟ هل ينفذ حكم الشرع بعبيد الله بن عمر؟ هل يأمر بقتله؟

أم هل يتغاضى عنه على اعتبار أن مافعله كان ثورة غضب وهياج؟ وهؤلاء المقتولون كانوا من الموالي، وبالتالي ليس لهم قبيلة تتعصب لهم.

كان عثمان ميالاً بطبعه الى الحل الثاني. فكفى مصيبة قتل عمر، ولا داعي لإلحاق ابنه به. ولكن المشكلة كانت أن عثمان يرأس دولة الاسلام التي أسسها رسول الله (ص) قبل سنين قليلة على أساس العدل والحكم الالهي. فهي ليست دولة أباطرة وأكاسرة، وعثمان بحكم منصبه كان «خليفة لرسول الله» وعليه أن يلتزم بما شرعه رسول الله. ولذلك كان عثمان غاضباً جداً على عبيد الله الذي وضعه في هذا الموقف الصعب: روى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن محمد بن عمر (الواقدي) ان عثمان بن عفان كان يقول لعبيد الله «قاتلك الله! قتلتَ رجلاً يصلي وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله (ص). ما في الحق تركك»

قرر عثمان أن يجد مخرجاً شرعياً لقراره بالعفو عن ابن عمر:

فهو اولاً أراد أن يكون قراره مدعوماً بموافقة أغلبية المسلمين. فقام بجمع كبار القوم واستشارهم:

وروى الطبري في تاريخه وابن سعد في الطبقات الكبرى عن الزهري:

«فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق.

فقال علي: أرى أن تقتله.

فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين: ان الله قد أعفاك أن يكون هذا

الحدث كان ولك على المسلمين سلطان. إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

قال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي»

إذن يقول عثمان انه بحكم منصبه كأمير للمؤمنين يكون هو ولي الدم لهؤلاء المقتولين الذين هم من الموالي، وهو بتلك الصفة يعطي نفسه الحق بالعفو.

وقد أكدت رواية ابن الأثير في «أسد الغابة» على هذا المعنى :

«وقيل: انه إنما تركه عثمان لأنه قال للمسلمين: من ولي الهرمزان؟

قالوا: أنت.

قال: قد عفوتُ عن عبيد الله.»

ومعظم الروايات تذكر تدخل عمرو بن العاص لمساعدة الخليفة الجديد في قراره

قال ابن كثير في البداية والنهاية «وقال بعض المهاجرين: أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، قد برّأك الله من ذلك. قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك.»

وذكر ابن سعد في رواية كلمة عمرو بن العاص لعثمان «يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك سلطان على الناس»

وروى ابن الأثير «... وقال جماعة منهم عمرو بن العاص: قتل عمرُ أمس ويقتل ابنه اليوم! أبعد الله الهرمزان وجفينة.»

وللإنصاف ينبغي الإشارة إلى أن عثمان بقراره العفو عن ابن عمر، كان في الواقع يقترب من الشعور العام السائد في المدينة. وقد أشارت إحدى روايات الواقدي في الطبقات الكبرى لابن سعد إلى جو الكآبة الذي خيم على المدينة بسبب إشفاق الكثيرين من المسلمين من تطبيق عقوبة الإعدام بحق

عبيد الله «وأظلمت الارض يومئذ على الناس لعظم ذلك في صدور الناس وأشفقوا أن تكون عقوبة قتل عبيد الله جفينة والهرمزان وابنة ابي لؤلؤة».
وذكرت إحدى الروايات ان قيام عثمان في النهاية بالعفو عن عبيد الله كان ناتجاً عن علة الرأي العام لأن عثمان استشار المسلمين فأجمعوا على ديتهما ولا يقتل بهما عبيد الله بن عمر. وكانا قد أسلما وفرض لهما عمر»

وقام الخليفة بدفع الدية، بالنيابة عن القاتل، الى ذوي المقتولين، كما في روايات الطبري وابن سعد وابن الاثير وابن كثير.

وأما اليعقوبي فلم يشر الى دفع الدية، فقد ذكر في تاريخه أن الخليفة عثمان قد عفى عن القاتل، واكتفى بإبعاده من المدينة الى الكوفة:

«ثم أخرج عثمانُ عبيدَ الله بن عمر من المدينة إلى الكوفة، فأنزله داراً

فنسب الموضع إليه: كويفة ابن عمر»

وكذلك لم يذكر ابن عبد البر في الاستيعاب دفع الدية صراحة. بل قال باختصار «ان عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان بعد ان أسلم، وعفا عنه عثمان»

كما ان روايات الواقدي لدى ابن سعد «الطبقات الكبرى» لم تذكر ان عثمان تحمل الدية في ماله ولا انه أرسل عبيد الله الى الكوفة، ولم تشر الى نص كلام عثمان بشأن قراره بالعفو.

## موقف علي بن ابي طالب ومعارضة قرار العفو

أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى عدة روايات للواقدي تشير الى معارضة علي بن ابي طالب للعفو عن عبيد الله وإصراره على تطبيق الحد الشرعي عليه:

«قال علي لعبيد الله بن عمر: ما ذنبُ بنت ابي لؤلؤة حين قتلتها ؟!

فكان رأي عليّ حين استشاره عثمان، ورأيُ الأكابر من أصحاب رسول الله على قتله لكن عمرو بن العاص كلم عثمان حتى تركه. فكان علي يقول: لو قدرتُ على عبيد الله بن عمر ولي سلطان لاقتصصتُ منه»

وقال ابن كثير في البداية والنهاية من عثمان «كان أول ما تحوكم اليه في شأن عبيد الله،

فقال علي: ما من العدل تركه، وأمر بقتله.»

وقد مرت بنا رواية الزهري لدى الطبري وابن سعد وفيها إشارة علي بقتل عبيد الله.

فبالنسبة لعلي: المبدأ هو الأساس. فحتى لو كان القتلى من الفرس حديثي الدخول في الاسلام أو حتى غير مسلمين، ليس في الدين ما يبرر قتل الناس على الظنة. وفي الشرع ليس الانفعال مبرراً للجريمة، وليس في الشرع ما يبرر قتل الأطفال. فلا بد أن يعاقب عبيد الله على فعلته. وعليٌ يرى أنه يجب التزام المبدأ الرسولي في أن لا فرق بين عربي وعجمي إلاّ بالتقوى.

وقد أشار عدد من المؤرخين الى أن موقف علي تجاه ابن عمر كان من الأسباب التي دعت الأخير الى الالتحاق بمعاوية بعد حوالي 12 عاماً من تلك الحادثة، حين ولي علي الخلافة. ومن هؤلاء ابن عبد البر الذي قال في الاستيعاب عن عبيد الله بن عمر «... فلما ولي علي خشي على نفسه فهرب الى معاوية، فقتل بصفين» وأيضاً ابن سعد في رواية للواقدي «وكان علي بن ابي طالب لما بويع له أراد قتل عبيد الله بن عمر فهرب منه الى معاوية فقتل بصفين»

ولكني لا أعتقد أن الامام علياً لما تولى الخلافة سنة 35 للهجرة قد أراد بالفعل أن يقتل عبيد الله بن عمر. لأنه ببساطة كان يواجه آنذاك من المشاكل والصعوبات، الكبيرة والخطيرة ما يصرفه عن معالجة قضية قديمة لابن عمر، ليس لها طابع ملح. ولكن هذا لا يعني أن عبيد الله ربما يكون استسلم لمخاوفه وهواجسه تجاه علي فقرر عدم المخاطرة بالبقاء الى جواره.

وانفرد اليعقوبي بالاشارة الى أن المقداد بن عمرو كان من المعارضين لقرار العفو. فقال في تاريخه:

«وأكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيد الله بن عمر.

فصعد عثمان المنبر فخطب الناس وقال: ألا إني ولي دم الهرمزان وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر. فقام المقداد بن عمرو فقال: إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله.

فقال: ننظر وتنظرون.»

وهذه الرواية ممكنة القبول لأن المقداد كان من النواة الصلبة الموالية لعلي بن أبي طالب في كل مواقفه.

## روايات مُصطنعة للدفاع عن القاتل وعن موقف الخليفة

وقد انفرد ابن الأثير بذكر رواية مصطنعة للدفاع عن الخليفة عن طريق الزعم بأن العفو عن القاتل قد صدر بالفعل عن ابن الهرمزان، وبالتالي لا لوم على عثمان ! فقد قال في «أسد الغابة»:

«وقيل: إن عثمان أسلم عبيد الله إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه.

قال القماذبان: فأطاف بي الناس وكلموني في العفو عنه. فقلتُ: هل لأحد أن يمنعني منه؟

قالوا: لا.

قال: أليس إن شئتُ قتلته؟

قالوا: بلى.

قلتُ: قد عفوتُ عنه !

قال بعض العلماء: ولو لم يكن الأمر كذلك لم يقل الطاعنون على عثمان طول ست سنين ولقالوا إنه ابتدأ أمره بالجور لأنه عطل حداً من حدود الله.»

وبالإضافة إلى أن ابن الأثير قد ذكر الرواية بصيغة «قيل» مما يعني بتشككه بها، فقد عبر صراحة عن ذلك حين كتب: «وهذا أيضاً فيه نظر، فإنه لو صح عنه ابن الهرمزان لم يكن لعلي أن يقتله، وقد أراد قتله لما ولي الخلافة ولم يزل عبيد الله كذلك حياً حتى قتل عثمان وولي عليّ الخلافة وكان رأيه أن

يقتل عبيد الله، فأراد قتله فهرب منه إلى معاوية وشهد معه صفين، وكان على الخيل، فقتل في بعض أيام صفين؟

وفات ابن الأثير أن يذكر أن القماذبان بن الهرمزان، لو صحّ أنه عفا عن قاتل أبيه، فليس له أن يعفو عن قاتل جفينة، الرجل النصراني من الحيرة، ولا أن يعفو بالنيابة عن البنت الصغيرة ابنة أبي لؤلؤة.

وأما العلامة ابن كثير فهو لم يشعر بالحاجة إلى البحث عن روايات ولا الكثير من التبريرات لفعل عثمان، بل أعلن تأييده له بلا أي تحفظ، على أساس أنه الإمام الذي من حقه أن يرى المصلحة. فقال في «البداية والنهاية»: «فودى عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله، لأن أمرهم إليه، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال. والإمام يرى الأصلح في ذلك. وخلى سبيل عبيد الله»

وهذا الموقف متوقع من ابن كثير، وهو ينسجم مع خطه العام.

وفي تاريخ الطبري نجد أن سيف بن عمر التميمي قد ذكر رواية من شأنها إيجاد عذر للقاتل وتبرير اندفاعه عن طريق إلقاء اللوم على المقتولين. وهذه الرواية تتحدث عن تفاصيل مؤامرة لاغتيال عمر حاكها الهرمزان وجفينة مع القاتل أبي لؤلؤة. فقد روى الطبري في تاريخه «أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طعن عمر: مررتُ على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي، فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه. فانظروا بأي شيء قتل.

وقد تخلل أهل المسجد وخرج في طلبه رجل من بني تميم فرجع إليهم التميمي، وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه فقتله، وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر، فسمع بذلك عبيد الله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر.

ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله، فلما عضه السيف قال: لا إله إلا الله. ثم مضى حتى أتى جفينة، وكان نصرانياً من أهل الحيرة، ظئراً لسعد بن مالك أقدمه إلى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم وليعلم بالمدينة الكتابة، فلما علاه بالسيف صلّب بين عينيه.

*وبلغ ذلك صهيباً فبعث إليه عمرو بن العاص فلم يزل به يرفقه ويقول: السيف بأبي وأمي، حتى ناوله إياه، وثاوره سعد فأخذ بشعره وجاؤوا إلى صهيب*!

وسيف بن عمر متخصصٌ بروايات المؤامرات. ولذلك لا ينبغي أخذ روايته هذه بكثير من الجدية. وعلى أي حال، فروايته هذه أيسر شأناً بكثير مما سيرويه عن مؤامرات هائلة رهيبة حيكت وأدت لمقتل الخليفة عثمان وحرب الجمل.

ويلاحظ أن رواية سيف هذه تجاهلت ذكر قتل البنت الصغيرة، ولم ينسَ سيف أن يذكر دور ذلك الرجل من قبيلة تميم، الذي لحق بأبي لؤلؤة حتى قتله!

وختاماً نشير إلى أن العلامة ابن عبد البر قد عبر عن تشككه في تفاصيل جريمة عبيد الله بن عمر حين قال في الاستيعاب "*وأمره في قتل الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة فيها اضطراب*". ولكنه لم يوضح أسباب قوله هذا. وهو على كل حال قد أثبت تفاصيل مقتله بصفين.

## الفصل الثاني: عطايا عثمان لعائلته ولأقربائه[1]

### رد الحكم بن أبي العاص

كان من أول الأشياء التي فعلها الخليفة الثالث حين استلم السلطة أنه قام برد عمه الحكم بن أبي العاص وبنيه الى المدينة، في مخالفة صريحة لأمر الرسول(ص) ورغبته. فقد كان رسول الله (ص) أمر بنفي الحكم بن أبي العاص وولده إلى الطائف، لأنه لا يريد أن يساكنه هذا الشخص، نظرا لتاريخه الطويل في إيذائه، وبأسفل الطرق وأكثرها انحطاطا.

ذلك رغم أن عثمان كان قد كلم أبا بكر فيهم بعد وفاة الرسول(ص)، وسأله ردهم، إلا أنه رفض إيواء طرداء رسول الله، ومع أنه قد حاول مرة أخرى مع عمر الذي رفض واتخذ الموقف نفسه.

وقد ذكر ابن اسحاق (كما ورد في سيرة ابن هشام) أسماء كل من أبي لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص64)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص1099)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص50)، تاريخ الطبري (ج5 ص104، ص158)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج5 ص137 وص 300-309)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص164، 166، 168، 173)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص 359)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص34، ج1 ص144)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج1 ص198-199)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج57 ص 264)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص157)، الإصابة لابن حجر العسقلاني (ج2 ص5)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص108، ص482) وكنز العمال للمتقي الهندي (ج5 ص144) والكامل في التاريخ لابن الأثير (ص372-373) مسند أحمد بن حنبل (ج1 ص64)، السيرة النبوية لابن هشام (ج2 ص 25)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص197) وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج 2 - ص 320 - 327)

الثقفي وابن الأصداء الهذلي على أنهم كانوا أسوأ جيران لرسول الله في مكة وأنهم كانوا يؤذونه في بيته فكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله حجرا يستتر به منهم إذا صلى. فكان رسول الله إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟! ثم يلقيه في الطريق.»

وليس هناك خلاف بشأن سيرة الحكم بن أبي العاص مع رسول الله(ص). فأخباره مشهورة معروفة. وأكتفي بما قال ابن الأثير عنه في أسد الغابة:

«... وهو طريد رسول الله(ص). نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان...

وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله(ص) إياه. فقيل: كان يتسمع سر رسول الله(ص) ويطلع عليه من باب بيته...

... وقيل: كان يحكي رسول الله(ص) في مشيته وبعض حركاته. وكان النبي(ص) يتكفأ في مشيته فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته...

... وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها. إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي(ص)، مع حلمه وإغضائه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم

ولم يزل منفياً حياة النبي(ص). فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله(ص). وكذلك عمر.

فلما ولي عثمان رضي الله عنه رده...»

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد خبر مشادة بين الحسن والحسين من جهة، ومروان من جهة أخرى: فقال مروان: إنكم أهل بيت ملعونون! فغضب الحسن وقال: ويلك قلت أهل بيت ملعونون؟! فوالله لقد لعن الله أباك على لسان نبيه (ص) وأنت في صلبه»[1].

---

(1) والعديد من المصادر ذكرت أن عائشة قالت نفس هذه العبارة لمروان أثناء خلافه مع أخيها عبد الرحمن، ومنهم ابن الأثير في أسد الغابة وقال: إن القصة مشهورة.

وبعد أن ردّه عثمانُ الى المدينة، أكرمه ووصله. وقد استفاض المؤرخون من اصحاب النزعة الشيعية في وصف تفاصيل انقلاب أحوال الحكم بفضل ابن أخيه عثمان. ومن هؤلاء اليعقوبي الذي قال في تاريخه: «وكتب عثمان إلى الحكم بن أبي العاص أن يقدم عليه، وقد كان طريد رسول الله. وقد كان عثمان لما ولي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أمية إلى أبي بكر فسألوه في الحكم فلم يأذن له. فلما ولي عمر فعلوا ذلك فلم يأذن له. فأنكر الناس إذنه له وقال بعضهم: رأيتُ الحكم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فزر خلق، وهو يسوق تيساً، حتى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه، ثم خرج وعليه جُبّة خزّ وطيلسان»

ولكن حتى الامام الذهبي، صاحب النزعة الاموية، لم يملك إلاّ الإقرار بإغداق الخليفة على عمه الحكم. فقال في سير أعلام النبلاء: «نفاه النبي (ص) إلى الطائف، لكونه حكاه في مشيه وفي بعض حركاته، فسبّه وطرده، فنزل بوادي وج (الطائف). ونقم جماعة على أمير المؤمنين عثمان كونه عطف على عمه الحكم، وآواه وأقدمه المدينة، ووصله بمئة ألف».

وهكذا فالذهبي يعترف بأن «جماعة» قد تذمروا على عثمان لرده الحكم بن ابي العاص.

والمصادر الشيعية تفيد أن قرار عثمان هذا قد لاقى رفضا واعتراضاً من جانب الأمام علي الذي واجه الخليفة مباشرة وطالبه بالعودة عن قراره. فقد روى الشيخ المفيد في كتاب الجمل:

«ولما ولي عثمان الأمر استدعاه من الطائف إلى المدينة وآواه وحباه وأعطاه وأقطعه الحريد بمدينة الرسول فعظم ذلك على المسلمين وكانوا آروى طريد رسول الله وحباه وأعطاه. وصاروا إلى أمير المؤمنين (ع) فسألوه أن يكلمه في إخراجه من المدينة ورده إلى حيث نفاه النبي.

فجاءه أمير المؤمنين وقال له: قد علمت يا عثمان أن النبي قد نفى هذا الرجل عن المدينة ولم يرده وأن صاحبيك سلكا سبيله في تبعيده واتبعا سنته في ذلك وقد عظم على المسلمين ما صنعت في رده وإيوائه فاخرجه عن المدينة واسلك في ذلك سنة النبي صلى الله عليه وآله .

فقال: يا علي قد علمت مكان هذا الرجل مني وأنه عمي وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أخرجه من المدينة لبلاغه ما لم يصلح عليه وقد مضى النبي لسبيله ورأى أبو بكر وعمر ما رأياه. وأنا أرى أن أصل رحمي وأقضي حق عمي وهو ليس شر أهل الأرض وفي الناس من هو شر منه.

فقال (ع): والله لئن بقيت يا عثمان ليقولن الناس فيك ما هو شر من هذا!

## هل يدفع عثمان من ماله الشخصي أم من بيت مال المسلمين؟

والحديث عن رد الحكم وإكرامه مدخل جيد لبحث نقطة حساسة تتعلق بسياسة الخليفة الثالث.

ولا بد أن ذلك كان أمراً عجيباً بنظر عامة المسلمين الذين لم يكن معروفاً لديهم على أي أساس أباح خليفة رسول الله لنفسه أن يرد واحداً من أعدى أعداء الرسول (ص) إلى مدينته، بل ويتجاوز ذلك إلى حد تكريمه والاحتفاء به! ولا شك أن الكثير من المسلمين كانوا يراقبون تصرفات عثمان باستهجان وغضب لقيامه بتوزيع الأموال على عائلته الأموية بتلك الطريقة. وقد كان أمر الحكم بن أبي العاص من المطاعن الرئيسية على عثمان، واستخدمه كارهو عثمان في شتى المناسبات لتبرير عدائهم له والتأليب عليه. وقد اضطر عثمان إلى الدفاع عن نفسه مرات عديدة، إحداها أمام كبار الصحابة، كما روى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة. فكان دفاع عثمان يرتكز على ثلاثة أسس:

- إن الحكم قد تاب.
- إن أبا بكر وعمر لو كان لهما قرابة مثله لفعلا نفس الشيء.
- إنه يعطيه من ماله الخاص.

وفيما يلي نص هذه الرواية المتعاطفة مع عثمان: «إنكم تعتبون علي إيوائي الحكم بن أبي العاص. وإن رسول الله قد كان يقبل توبة الكافر، وإن الحكم تاب فقبلت توبته، ولعمري أنه لو كانت نفس لأبي بكر وعمر مثل رحمه بي لآوياه. وتعتبتم علي أني وصلته بمالي، والله ما هو إلا مالي!

ولكن اليعقوبي في تاريخه لا يوافق على أن عثمان كان يعطي عمه الحكم من ماله الخاص، بل يؤكد ان عطايا عثمان لأقربائه كانت من بيت المال، وان ذلك أثار معارضة خازن بيت المال الذي حاول المماطلة في التنفيذ والتهرب من الدفع، ولما لم ينجح استقال احتجاجاً. فعن عبد الرحمن بن يسار قال فرأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة اذا أمسى آتاها عثمان، فقال له: ادفعها الى الحكم بن ابي العاص، وكان عثمان اذا أجاز احداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال.

فجعل يدافعه ويقول له: يكون فنعطيك أن شاء الله.

فألح عليه فقال: انما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت!

فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك. انما أنا خازن المسلمين.

وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال: ايها الناس زعم عثمان اني خازن له ولأهل بيته، وانما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم، ورمى بها!

فأخذها عثمان ودفعها الى زيد بن ثابت»

ورغم أن رواية اليعقوبي هذه تخلو من ذكر اسم خازن بيت المال، ذلك القوي الذي اشتبك علناً مع الخليفة، واستقال احتجاجاً، مما يمكن اعتباره عنصر ضعف فيها، إلا أن هناك من الروايات ما يدعمها ويجعلها ممكنة القبول جداً.

فقد تحدث رواة آخرون، لا يُشتبه في تحاملهم على عثمان، عن خلافات الخليفة مع خازن بيت ماله، عبد الله بن الارقم.

فقد ذكر ابن الاثير في اسد الغابة في ترجمة عبد الله بن الارقم «إن استعمله عمر على بيت المال، وعثمان بعده ثم انه استعفى عثمان من ذلك فأعفاه» ورغم انه لم يذكر سبباً مباشراً لاستقالة ابن ارقم، إلاّ ان ابن الاثير أشار في

موضع آخر الى رفضه اعطيات عثمان، مما يوحي بصحة رواية اليعقوبي حول احتجاجه على سياسة عثمان المالية فيروي مالك قال: بلغني ان عثمان أجاز عبد الله بن الارقم وهو على بيت المال بثلاثين ألفاً فأبى أن يقبلها. ويروى عمرو بن دينار ان عثمان رضي الله عنه أعطاه ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال: عملت لله وانما أجري على الله»

وكرر ابن حجر العسقلاني في «الاصابة» نفس ما ذكره ابن الاثير عن عبد الله بن الارقم، وكذلك فعل الذهبي في سير اعلام النبلاء.

ويلاحظ أن روايات هؤلاء جاءت بصيغة مخففة وملطفة. إلاّ أن ذلك لا يغير في حقيقة حصول الخلاف بين الخليفة وخازن بيت المال. والفارق أن اليعقوبي، صاحب النزعة الشيعية، استفاض في إبراز التفاصيل بعكس البقية، الحريصين على سمعة الخليفة.

وقد صرح ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح بأن عثمان كان يغترف من بيت المال:

«قال: ثم كثر المال عليه، فكان كل ما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويزيدهم في العطايا، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم. قال: ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن اسيد بن أبي العاص من أمية فوصله بثلاثمائة ألف درهم، ثم بعث الى الحكم بن أبي العاص فرده الى المدينة وهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين وجعل له خمس افريقية، وجعل لا من بني أمية الحارث بن الحكم على سوق المدينة ووصل ابنه بمال جليل»

وأكثر الروايات تفصيلاً تجدها لدى البلاذري في أنساب الأشراف الذي روى عن الزهري، أن عائشة قالت لعثمان في معرض تأنيبها له «... واستلفت من بيت المال 500 ألف درهم ليس عندك لها قضاء!

وقال له عبد الله بن الارقم خازن بيت المال وصاحبه: اقبض منا مفاتيحك! فلم يفعل وجعل يستلف ولا يرد...

قال الزهري: وكان في الخزائن سفط فيه حلي فأخذ منه عثمان فحلى به بعض أهله، فأظهروا عند ذلك الطعن عليه، وبلغه ذلك فخطب فقال: هذا مال الله، أعطيه من شئت وأمنعه من شئت، فأرغم الله أنف من رغم...».

والزهري كما هو معلوم لا يتهم بالتحامل على عثمان، ولذلك نقطع بأن عثمان كان بالفعل يبيح لنفسه أخذ ما يشاء من بيت المال دون أن يرده، فهو كان يعتبر ذلك حقاً له. ورواية الزهري هذه تشير بوضوح الى أن عطاياه لأقربائه كانت من بيت المال. والزهري مقرب من الحكام الاموييين، ولا يشتبه بتحامله على عثمان.

## الهبة لمروان بن الحكم

ولم يكتفِ الخليفة بالاغداق على عمه الحكم بل امتدَّ كرمه الى ابن عمه مروان ! فكتب الى عبد الله بن أبي السرح يأمره بتقديم خمس غنائم افريقيا الى مروان بن الحكم بعد أن زوَّجه ابنته. وخبر إطعام عثمان خمس افريقية – وأحياناً يذكر خمس مصر – لمروان شائعٌ ومشهور، ولا خلاف حوله بين أصحاب الاخبار. ومن ذلك:

ذكر الطبري في تاريخه في معرض حديثه عن غزوة افريقي سنة 27 رواية الواقدي (حدثني أسامة بن زيد الليثي عن ابن كعب) «وكان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهباً. فأمر به عثمان لآل الحكم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدري».

قال اليعقوبي انه بعد انتصار المسلمين بقيادة ابن ابي السرح في غزوة افريقية «كثرت الغنائم وبلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار».

«وروى بعضهم ان عثمان زوج ابنته من مروان بن الحكم وأمر له بخمس هذا المال».

وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء «وكتب لمروان بخمس افريقية».

وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ان عطاءات عثمان لمروان كانت من المآخذ عليه:

«اجتمع ناسٌ من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه.

وما كان من هبته خُمس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بذي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله»

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الزهري «لما ولي عثمان عاش اثني عشرة سنة أميراً. يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمر كان شديداً عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ثم توانى في أمرهم، واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر وكتب لمروان بخمس مصر وأعطى أقرباءه المال، وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها. واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، وإني أخذته فقسمته في أقربائي. فأنكر الناس عليه ذلك»[1]

كما تجب الاشارة الى ان هناك اضطراباً في الروايات التي تتحدث عن خُمس افريقية. فبالاضافة الى الروايات الكثيرة التي تذكر قيام عثمان بمنح ذلك الخمس لابن عمه مروان، توجد روايات تقول ان الخليفة قد منح ذلك الخمس لأخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي السرح. ولكن العلامة ابن الأثير في الكامل حل ذلك الاشكال بقوله ان فتح افريقية تم على مرحلتين: الاولى كانت عام 25 للهجرة حين كان ابن ابي السرح لا يزال يعمل تحت

---

(1) ويروي نص هذا النص السيوطي في تاريخ الخلفاء نقلاً عن ابن سعد، مع استبدال عبارة «خمس مصر» بعبارة «خمس افريقية».
وذكر المتقي الهندي، وهو من أصحاب الحديث، في كنز العمال أن عثمان «كتب لمروان بخمس مصر، وأعطى أقرباءه المال وقال: ان أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما. واني أخذته فقسمته في أقربائي». وهذا نص رواية ابن سعد.

إمرة عمرو بن العاص بمصر فوجهه عثمان الى أطراف افريقية غازياً فقال له عثمان: إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلاً، فتحجج جيش عبد الله في الوصول الى أطراف افريقية، دون التوغل فيها، وصالحه أهلها على مال يؤدونه.

والثانية كانت عام 27 للهجرة بعدما تولى ابن ابي السرح ولاية مصر فأذن له عثمان بشن حملة كبرى باتجاه افريقية أسفرت عن نجاح باهر وغنائم كبيرة وأموال كثيرة (ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار). وأضاف ابن الاثير *وحُمل خمس افريقية الى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار، فوضعها عنه عثمان. وكان هذا مما أُخذ عليه.*

*وهذا أحسن ما قيل في خمس افريقية. فإن بعض الناس يقول: أعطى عثمان خمس افريقية عبدالله بن سعد. وبعضهم يقول: أعطاه مروان بن الحكم. وظهر بهذا انه أعطى عبدالله خمس الغزوة الاولى وأعطى مروان خمس الغزوة الثانية التي افتتحت فيها جميع افريقية. والله اعلم*

ورأي ابن الاثير هذا جائز وممكن، وعليه يكون عثمان قد منح الخمس في المرة الاولى كحافز للقائد ابن ابي السرح. ويكون في المرة الثانية قد قرر مسامحة ابن عمه مروان في تأدية مبلغ الخمسمائة ألف دينار الذي كان عليه دفعه لبيت المال لقاء خمس غنائم افريقية الذي كان اشتراه!

## عطايا لبقية بني أمية

وطبعاً لم يقتصر عثمان في عطاياه على بني عمه الحكم بل كان يعطي غيرهم من بني أمية، من أمثال عبد الله بن خالد بن أسيد.

قال اليعقوبي في تاريخه *وزوّج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد وأمر له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة*

وقال الطبري في تاريخه في رواية عبد الله بن احمد بن شبويه ان من المآخذ التي ذكرها الصحابة على عثمان *قالوا: أعطيت عبدالله بن خالد بن*

أسيد ومروان. وكانوا يزعمون أنه أعطى مروان خمسة عشر ألفاً، وابن أسيد خمسين ألفاً..»

وروى البلاذري في أنساب الأشراف عن أبي مخنف والواقدي «أنكر الناس على عثمان إعطاءه سعيد بن العاص مائة ألف درهم» وذكر رواية عن ابن جريج «كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه بها». كما روى عن الواقدي «قدمت إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص»

وجمع ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أخبار عطايات عثمان لأقربائه وخاصته فقال عنه:

فإنه أوطأ بني أمية رقاب الناس، وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع. وافتتحت افريقية في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان ....

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله (ص) قد سيره، ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدق رسول الله (ص) بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور، على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها (ص) تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدفعت عنها.

وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلاّ عن بني أمية.

وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب الى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى. فقال عثمان: أتبكي أن وصلتُ رحمي ؟ قال: لا ، ولكن أبكي لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله (ص). والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً ! فقال: ألقِ المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسمها كلها في بني أمية .

وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه»[1]

ومن الطبيعي، والمتوقع، أن تثير سياسة عثمان بتوزيع الأموال على ذوي قرباه انتقادات متعددة. والشعر أحد أهم مظاهر التعبير في تلك الزمان. وقد ذكر ابن عبد البر في ترجمة عبد الرحمن بن حنبل في الاستيعاب حالة احتجاج على سياسة عثمان فهو القائل في عثمان بن عفان رضي الله عنه لما أعطى مروان خُمس أفريقية :

وأحلف بالله جهد اليميـ ... ـن ما ترك الله أمراً سدى

ولكن جُعلت لنا فتنة ... لكي نُبتلى بك أو تُبتلى

دعوت الطريد فأدنيته ... خلافاً لما سنّه المصطفى

ووليت قرباك أمر العباد ... خلافاً لسنة من قد مضى

وأعطيت مروان خُمس الغنيمة ... آثرته وحميت الحمى

ومالاً أتاك به الأشعري ... من الفيء أعطيته من دنا

فإن الأمينين قد بيّنا ... منار الطريق عليه الهدى

فما أخذا درهماً غيلة ... ولا قسما درهماً في هوى

---

(1) وهذه الرواية تذكر اسم زيد بن أرقم كخازن بيت المال الذي اختلف مع عثمان. وقد ورد سابقاً أنه عبد الله بن أرقم. فربما حصل لبس لدى ابن أبي الحديد.

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه أن مصير عبد الرحمن هذا كان النفي إذ قال: "وسيّر عبد الرحمن بن حنبل صاحب رسول الله إلى القموص من خيبر، وكان سبب تسييره إياه أنه بلغه كرهه مساوئ ابنه وخاله، وأنه هجاه".

وكان كرم عثمان في الواقع يتسع ليشمل كل قبيلة قريش، من بعد بني أمية. ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن سعيد بن المسيب عن عمرو بن عثمان بن عفان أن أباه قال له: "يا بني إن وليت من أمر الناس شيئاً فأكرم قريشاً، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: من أهان قريشاً أهانه الله".

وسوف يأتي الحديث مفصلاً حول ثروات كبار الصحابة في زمان عثمان.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

كانت تلك الحقائق حول عطايا عثمان لقومه من بني أمية، ولا بد بعد ذلك من معرفة الخلفية النظرية التي سمحت للخليفة بهذا التصرف. فكيف كان عثمان يبرر سياسته المالية تجاه أقربائه؟

## فلسفة عثمان في الإغداق على بني أمية[1]

ان المعلم الأساسي لشخصية عثمان بن عفان، والذي ميّز حياته كلها، في الجاهلية وفي العهد النبوي وأثناء فترة خلافته، هو الولاء لصلات القرابة ورابطة الدم والانتماء القرشيّ الشديد.

وبالاضافة الى رواية الزهري لدى ابن سعد، والتي يقول فيها عثمان ان أبا بكر وعمر تركا ما هو حق لهما من بيت المال، كما أوردناها سابقاً، ذكر ابن سعد رواية أخرى عن المسور قال فيها: "سمعت عثمان يقول: أيها الناس! إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما، وإني تأولت فيه صلة رحمي".

---

(1) مصادر هذا المبحث: مسند أحمد بن حنبل (ج1 ص62)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص64، ج5 ص145)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص1099)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص46)، تاريخ الطبري (ج3 ص382)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج5 ص33)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص380)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص252، ج39 ص253)

وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد أن عثمان بن عفان قال لعبد الرحمن بن عوف الذي طالبه بأن يسير بسيرة أبي بكر وعمر «عمر كان يقطع قرابته في الله، وأنا أصل قرابتي في الله»

فالنصوص تتواتر لتؤكد أن المستند الشرعي الأساسي لعثمان في سلوكه تجاه قومه من بني أمية هو صلة الرحم. فبنظر عثمان، إعطاء الأقرباء المال هو أمرٌ محمودٌ شرعاً لأن الله حث المؤمن على الإحسان لذوي قرباه. وكان عثمان يبيح لنفسه التصرف في بيت المال كما يشاء.

ولستُ أعرف كيف فات عثمانَ أن صلة الرحم التي أمر الله بها تنحصر في المال الشخصي، وليس المال العام الذي هو أمانة في رقبة المسؤول. فهل غنائم إفريقية ملك شخصيٌ للخليفة حتى يعطي خمسها لابن عمه ليصل رحمه؟ هذا أمرٌ محيرٌ حقاً، لأنه من الصعب تصوّر عدم معرفة عثمان بتلك المسألة التي هي من البديهيات.

وربما يكون عثمان يرى في الأموال العامة عوضاً له عما كان يكسبه هو شخصياً من التجارة. فواجبات منصب الخليفة بالتأكيد لم تكن تتيح لعثمان أية فرصة لمتابعة النشاط التجاري المربح الذي كان يمارسه. فوقته أصبح مشغولاً بالكامل في رعاية شؤون المسلمين، فلا بأس إذن من أن يبسط يده في بيت مال المسلمين فيأخذ منه ما يشاء.

بل إن من المرجح أن يكون عثمان يرى في المال العام عوضاً له عما كان ينفقه ويتبرع به أيام النبي(ص) لصالح المسلمين[1]. فلطالما ساهم في تجهيز الجيوش وحفر الآبار، فلماذا لا يكون له الآن حق معلوم في المال العام، خصوصاً وأن الله قد فرج على المسلمين وأكثر من الأموال؟

ويبدو أن مفهوم عثمان الخاص لصلة الرحم كان جسراً ليشمل التعيينات في المناصب القيادية في الدولة أيضاً.

فحين ولى عثمانُ ابنَ خاله عبدَ الله بن عامر البصرة وهو شاب يافعٌ

(1) وقد أوردنا كلام ابن أرقم لعثمان في هذا المعنى، كما ذكره ابن أبي الحديد

في الخامسة والعشرين من عمره» كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول له أنه لم يعزله عن منصبه لعجز أو خيانة «ولكني أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر»[1]

وفي رواية للطبري في التاريخ أضاف عثمان محتجاً أنه عيّن رأيه في صلة رحمه: فهو أولاً يقتدي بالنبي (ص) الذي كان يعطي أقاربه. وهو ثانياً يشير إلى أن أقرباءه الكثيرين كانوا يعانون من صعوبات اقتصادية مما يجعل من مساعدتهم واجباً عليه وهو بمنصبه ذلك، فلا يجوز أن يتخلى عنهم.

يقول نص الطبري أن عثمان قال للصحابة في معرض دفاعه عن سياسته «ألا أخبركم عني وعما وليتُ: إن صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً. وإن رسول الله (ص) كان يعطي قرابته. وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطتُ يدي في شيء من ذلك المال لمكاني ما أقوم به فيه. ورأيتُ أن ذلك لي ...»

وفي رواية لابن قتيبة في الامامة والسياسة يوضح عثمانُ سببا آخر لسلوكه:

«لما أنكر الناس على عثمان بن عفان صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن لكل شيء آفة، ولكل نعمة عاهة. وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة: قوم عيابون طعانون يرونكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون. أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار لقد عبتم عليّ أشياء ونقمتم أموراً قد أقررتم لابن الخطاب مثلها، ولكنه وقمكم وقمعكم، ولم يجترئ أحد يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه إليه. أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عدداً، وأقرب ناصراً وأجدر.

إلى أن قال لهم: أتفقدون من حقوقكم شيئاً؟ فما لي لا أفعل في الفضل ما أريد؟ فلِمَ كنتُ إماماً إذن؟ أما والله ما عابَ عليّ من عابَ منكم أمراً أجهله، ولا أتيتُ الذي أتيتُ إلاّ وأنا أعرفه»

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق نقلاً عن ابن سعد.

فهنا يقول عثمان إنه قد أدّى واجباته تجاه الرعية، وأعطاهم حقوقهم، فلا بأس بعدها من التصرف بالمال الفائض كما يشاء «فمالي لا أفعل بالفضل ما أريد؟». ويؤكد عثمان هنا انه يتصرف عن وعي تام وإدراك كامل لما يفعله، ولا يريد أن يصغي للمنتقدين الحاقدين الذين لا يتوقفون عن النميمة!

ويبدو أن كلامه المتكرر، وفي عدة مناسبات، عن «صلة الرحم» لم يكن مقنعاً لسامعيه، مما كان يثير أعصابه ويدفعه أحياناً الى كلام حادّ مُحْنَق غاضب، من قبيل ما رواه ابن شبة النميري في تاريخ المدينة عن سالم بن أبي الجعد:

*دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عمار،*

*فقال: إني سائلكم، أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشاً على سائر الناس، ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟*

*فسكت القوم.*

*فقال: لو أن مفاتيح الجنة في يدي لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم! والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم*"[1]

(1) وقد روى مثل هذا الحديث ابن عساكر في تاريخ دمشق عن سالم بن أبي الجعد. كما روى هذا الحديث بتمامه عن سالم بن أبي الجعد أحمد بن حنبل في مسنده وابن الأثير في أسد الغابة، ولكن بدون عبارة «والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم» في آخره.

# الفصل الثالث: التعيينات في قيادة الدولة:

## ولاة عثمان

### عثمانُ يبدأ بتغيير سياسة عمر

ورث عثمان عن عمر دولة شاسعة مترامية الأطراف. فعلى الرغم من أن الفتوحات الكبرى لم تكن قد اكتملت بعد، إلا أن الفعل الأساسي كان قد حصل، والحسم قد تم بالفعل، ولم يبق سوى إكمال العمل.

فالقوة الفارسية قد دُمّرت ودخل العرب إيران كفاتحين، ولم يعد لبقايا النظام الساساني القديم سوى تجمعات غير كبيرة في مناطق متباعدة، وغير قادرة على تشكيل تهديد جدّي وحقيقي للقوة العربية الساحقة. كانت الأرضية لإكمال الفتح وإنجاز السيطرة التامة على كل أنحاء إيران قد وضعت على يد عمر بن الخطاب.

وكانت سوريا الكبرى قد سقطت بالفعل في أيدي العرب، وكان قد بدأ ينشأ نوع من التوازن في بلاد الشام بين القوة العربية وبين الروم البيزنطيين الذين كانوا قد بدأوا يسلمون بالخسارة ولا يطمحون سوى إلى المحافظة على مواقعهم إلى الشمال من سوريا. وكذلك كان العرب قد بدأوا بتوطيد أركان حكمهم في مصر.

إذن كان التحدي الحقيقي أمام الخليفة عثمان يتمثل في تأصيل وتجذير السيطرة العربية على الأقاليم المفتتحة، بالإضافة إلى متابعة الحملات العسكرية لإخضاع ما تبقى من مناطق خارج السيطرة في تلك الأقاليم، وخاصة فارس.

كانت الفتوحات التي حصلت في عهد عمر إنجازاً عظيماً هائلا بكل المقاييس. وكانت مهمة الحفاظ على تلك البلاد وجعلها جزءاً من الفضاء العربي، ليست بالسهلة أبدا. فتلك بلاد كان فيها تنظيم إداري واقتصادي قديم جدا وفاعل، ولم يكن العرب معتادين على أمور حضارية ومدنية بذلك الحجم.

ولذلك فإن مهمة الولاة العرب لتلك الأقاليم كانت في غاية الأهمية والصعوبة أيضاً. فمطلوبٌ من الوالي أن يحسن إدارة شؤون الجيوش العربية الفاتحة التي بدأت تستقر وتستوطن في البلاد المفتتحة،

وعليه أيضا أن يتبنّى سياسة مدروسة تجاه أهل البلاد الأصليين بما يضمن ولاءهم للحكام الجدد وبما يكفل استمرار إنتاجية تلك الأراضي الشاسعة وما تعود به من فوائد اقتصادية هائلة

وأخيرا عليه أن يتأكد من الجاهزية العسكرية الدائمة للتجمعات العربية لمواجهة أية تحديات أو تهديدات قد تشكلها بقايا الأنظمة الرومانية أو الساسانية في الشام أو العراق أو مصر أو فارس.

ولكن عثمان بن عفان أظهر سوء سياسة وسوء تقدير في نظر بعضهم، لم يكن عثمان على مستوى التحدي الحضاري الكبير الذي كان ماثلا أمام قيادة أمة العرب.

بدأ عثمان في تغيير سياسة عمر بن الخطاب فيما يتعلق بحكام الولايات. فعلى الرغم من أن عمر حافظ على وضع قيادي، بشكل عام للقرشيين في دولته، إلا أنه كان يخضعهم إلى متابعة ومراقبة حثيثة ودائمة. كان عمر يحاسب عماله على سياستهم، وكانت له طرق أخرى في الحصول على معلومات عن وضع ولاياته، غير الولاة. كان عمر يعزل العمال، وينقلهم ويستبدلهم، ويفتشهم ثم يعيد تعيينهم حين يرى الوقت مناسبا. ولم يقم عمر أبدا بتعيين أقرباء له في مناصب قيادية في الدولة.

كان ولاة عمر يخشونه جدا، وكانوا يهابون شبحه المخيّم عليهم، رغم بعد المسافة عن العاصمة. لم يُتِح عمر بسياسته تلك المجال لولاته لكي يصبحوا ولاة شخصيا لهم في المناطق التي كانوا يديرونها.

خلفية الوليد

الوليد من أقرباء عثمان المقربين، وهو من عائلته من بني أمية، واسمه الكامل: الوليد بن عقبة بن ابي معيط بن ابي عمرو بن أمية بن عبد شمس[1]. وبالاضافة الى ذلك الوليد هو أخو الخليفة عثمان من أمه.

وكان أبوه، عقبة بن أبي معيط، معروفاً بين كل المسلمين بشدة عدائه لرسول الله(ص) وإيذائه له في مكة إلى درجة فاقت الآخرين من سادة قريش في مكة. وكان من شدة عدائه للرسول(ص) أنه قد أمر بإعدامه هو وبضعة أشخاص من بين أسرى قريش يوم بدر، وخفف الحُكم.[2]

والوليد من الطلقاء، وقد أعلن اسلامه يوم فتح مكة.[3]

والوليد نفسه، كما أبوه، كان له نصيبٌ موفور من الرداءة في سيرته وسلوكه أمام النبي(ص)، بعد دخوله الاسلام!

وهناك إجماعٌ بين المفسرين أن الآية القرآنية «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبينوا. أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» نزلت فيه[4]

---

(1) وهناك شك يطعن في صحة نسبه: فثمة روايات تقول ان أبا عمرو، واسمه ذكوان، لم يكن في الحقيقة ابناً لأمية بل كان عبداً له فاستلحقه وتبناه. ولكن ليس هذا الموضوع هنا.
وبالاضافة الى كونه من أبناء عمومة عثمان، كان الوليد أخاً لعثمان من أمه، وهي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

(2) وقد روى أصحاب السير والحديث أخباراً شنيعة جداً بشأن ممارسات عقبة بحق النبي(ص) في مكة. وبالامكان مراجعتها في مصادرها.

(3) وقد كان قبل ذلك متصلباً في عدائه للاسلام الى حد أنه حاول رد أخته أم كلثوم بنت عقبة الى مكة، بعد أن كانت قد أسلمت وهاجرت بعد صلح الحديبية، فقدم هو وأخوه عمارة الى المدينة وطالب النبي(ص) بتسليمها إياهما، ولكن النبي(ص) رفض ورجعهما خائبين. وروى ذلك ابن هشام في سيرته.

(4) ومن هؤلاء الإمام البخاري الذي قال في التاريخ الصغير أن الآية (رقم 6 من سورة الحجرات) نزلت في الوليد.
وقال ابن عبد البر في الاستيعاب «لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمتُ أن قوله تعالى إن جاءكم فاسقٌ بنبأ نزلت في الوليد بن عقبة»
ويمكن مراجعة تفسير ابن كثير وأيضاً الواحدي في أسباب النزول للاطلاع على تفاصيل الحادثة المخزية التي كان بطلها الوليد بن عقبة الذي حاول الاساءة وتعمد الكذب على رسول الله (ص) من أجل الاضرار ببني المصطلق الذين كان بينه وبينهم عداوة قديمة. وقد فضحه القرآن ونعته بالفاسق.

وهناك آية قرآنية أخرى نزلت بحق الوليد: فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول، وابن عساكر في تاريخ دمشق أن قوله تعالى (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون)[1] نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي قال له: أنا أحدّ منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك.

فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق. فنزلت الآية[2]

وباختصار، لم يكن الوليد من ناحية الخصال والشرعية الإسلامية، يمتلك ما يؤهله لشغل أي منصب عال في دولة الإسلام، بل على العكس، كانت مثالبه والمآخذ عليه كبيرة إلى حد يجعل من مجرد التفكير في توليته مسؤوليات قيادية أمراً غريباً، بل مستهجناً.

## عزل سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة وتعيين الوليد مكانه

في عام 25 للهجرة (أو 24 أو 26) قرر عثمان عزل والي الكوفة الصحابي المشهور سعد بن أبي وقاص وتعيين الوليد بن عقبة مكانه. واستمر الوليد في منصبه ذلك إلى عام 30.

ويمكن النظر إلى هذا القرار من عثمان باعتباره خطوة مهمة في اتجاه تغيير ولاة عمر بن الخطاب في الولايات المهمة واستبدالهم برجاله هو، رجال مرتبطون به ويوالونه شخصياً. فأغلب الشخصيات التي خلفها عمر بن الخطاب في مناصب حكام الولايات كانت من الوزن الثقيل في المعايير

---

(1) سورة السجدة الآية 18

(2) وقد أعطاه ابن كثير في تفسيره حين قال: قوله ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط، لأنه وجّه سبب النزول إلى عقبة بن أبي معيط، بدلاً من ابنه الوليد. ولكن ما ذهب إليه الواحدي وابن عساكر هو الأصح وأسدّ أسباب: فعقبة بن أبي معيط أعدم بأمر النبي (ص) بعد أن أسر يوم بدر، وبالتالي لا تنطبق عليه تماماً صفة الفاسق المذكورة في الآية، فهو كافر ومشرك بلا لبس ولم يدخل الإسلام يوماً حتى يقال له فاسق، بخلاف ابنه الوليد. كما أن فارق السن بين علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط كبير جداً لدرجة تجعل من المستبعد أن يخوضا جدالاً من أي نوع. فعقبة كان كبيراً وكان معادياً للنبي (ص) مثله. وأما الوليد فكان عدوه الرئيسي علي.

الإسلامية: شخصيات من أوساط الصحابة أو قامات انجازات في مجال القيادة والفتوحات من نمط سعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري. وهؤلاء كانت لهم شخصياتهم المستقلة ولم يكونوا يدينون لعثمان بمناصبهم. وربما لم يكن عثمان مرتاحاً لهامش الاستقلالية هذا.

وأرسل عثمان الوليدَ إلى الكوفة حاملاً بنفسه الخبرَ لواليها ولأهلها.

وأثار قرار عثمان بتعيين الوليد بن عقبة والياً على الكوفة استياء سعد بن أبي وقاص الذي لم يصدّق الخبر الذي جاءه به الوليد نفسه.

فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين انه قال له لما أبلغه قرار عثمان بعزله واستبداله بالوليد بن عقبة «والله ما أدري أكيّستَ بعدي أم حمقتُ بعدك!»

وفي لفظ ابن عبد البر في الاستيعاب من رواية ابن سيرين أن سعداً قال له «ما أدري أصلحت بعدنا أم فسدَ الناس؟» وفي رواية سعيد بن جبير لدى ابن عبد البر أن الوليد أجاب سعداً «لا تجزعن أبا إسحق. فإنما هو الملك يتغدّاه قومٌ ويتعشاه آخرون. فقال سعد أراكم والله ستجعلونها ملكاً»[1]

ويمكن القول ان صدمة سعد واستياءه كانت ناتجة عن شخصية الوالي الذي اختاره عثمان وليس عن قرار العزل بحد ذاته. وظاهرٌ من كلام سعد انه لا يرى للوليد من الصلاح والاستقامة ما يجعله أهلاً لهذا المنصب الرفيع. وبالتالي لم يجد سعدٌ سبباً لذلك القرار سوى قرابة الوليد اللصيقة من الخليفة.

وقد أخرج الطبري في تاريخه أربع روايات عن سيف بن عمر التميمي يتحدث فيها عن «سبب عزل عثمان عن الكوفة سعداً واستعماله عليها الوليد» وذلك ضمن أحداث سنة 26 هجرية. وملخص هذه الروايات أنه كانت هناك مخالفات مالية ارتكبها سعد ولم يرض أن يسكتَ عنها خازن بيت المال الذي كان وقتها عبد الله بن مسعود. فقد استقرض سعدٌ مبلغاً من المال من بيت مال المسلمين ولم يؤدّه. ولما طالبه ابن مسعود بالسداد رفض وشتمه بقول قبيح جداً:

---

(1) وذكر ابن الأثير في الكامل نص هذا الحوار بين سعد والوليد.

فأتى ابنُ مسعود سعداً فقال له: أدِّ المال الذي قِبَلك!

فقال له سعد: ما أراك إلا ستلقى شراً! هل أنت إلا ابن مسعود عبدٌ من هذيل؟!

ويقول سيف في هذه الروايات أن ما جرى أثار غضب الخليفة عثمان عليهما، فقام بعزل سعد من ولاية الكوفة بينما أقر ابن مسعود على بيت المال، وكان الذي أقرّه بدل سعد هو الوليد بن عقبة «وكان عاملاً على عرب الجزيرة لعمر بن الخطاب»[1].

ولكن لا بد من التحفظ بشأن هذه الروايات في تاريخ الطبري، للأسباب التالية:

- فهذه روايات سيف بن عمر. وسيف له منهج ثابتٌ في رواياته يتلخص بالدفاع الدائم والمتواصل عن الخليفة عثمان وكل ولاته وسياساته. وهنا يظهر أن قيام عثمان بعزل سعد أمرٌ طبيعي بعد مشكلته تلك مع ابن مسعود. فكل ما عمله عثمان هو تغيير الوالي الذي ارتكب مخالفة بوالٍ آخر من ولاة عمر بن الخطاب (وتؤكد الروايات على أن الوليد كان عاملاً لعمر على الجزيرة).

- هناك رواية تتشابه مع هذه، ذكرها ابن عبد ربه وغيره، وتتحدث عن خلاف بين ابن مسعود ووالي الكوفة بسبب الاعتداء على بيت مال الكوفة. ولكن الوالي في هذه الحالة كان الوليد بن عقبة نفسه (وليس سعد). وسيأتي الحديث عنها لاحقاً. وهناك احتمال بأن يكون ابن مسعود قد كرر التصدي للوالي الجديد، الوليد، لما حاول أن يعتدي

---

(1) وقال ابن حجر في فتح الباري أن عثمان عزل سعد بن أبي وقاص واستبدله بالوليد «وكان سبب ذلك أن سعداً كان أميرها وكان عبد الله بن مسعود على بيت المال. فاقترض سعدٌ منه مالاً. فجاءه يتقاضاه فاختصما. فبلغ عثمان فغضب عليهما وعزل سعداً، واستحضر الوليد - وكان عاملاً بالجزيرة على عربها - فولاه الكوفة». وذكر ذلك الطبري في تاريخه.
وهذه الرواية ظاهرها أن الخلاف كان أساساً بين ابن مسعود وسعد وأن عثمان حل الإشكالية بينهما، وكان الوليد هو الحل!

عذر سلفه سعد في الاقتراض من بيت المال وعدم السداد. ولكن هذا الاحتمال ضئيل، وإلاّ لكرر عثمان موقفه المتمسك بابن مسعود الحريص على المال العام. ولكن هذا لم يحصل، وقام عثمان بعزل ابن مسعود وتفاقم الخلاف بينهما كما سيأتي لاحقاً.

فروايات سيف بن عمر هذه تنفي عن الوليد مثلبة الاعتداء على بيت المال.

- بل ان البلاذري في أنساب الأشراف يروي عن أبي مخنف ان ابن مسعود عبّر عن استيائه من استبدال سعد بالوليد وقال «من غيّر غيّر الله ما به، ومن يبدّل أسخط الله عليه. وما أرى صاحبكم إلاّ وقد غيّر ويدله أيعزل مثل سعد بن ابي وقاص ويولى الوليد؟!»

- وروايات سيف هذه تحاول أن تجد للخليفة عذراً لعزله قائداً مشهوراً، كسعد بن ابي وقاص. ولكن عثمان بن عفان نفسه لم يكن يرى انه مضطرٌ لمثل هذا التبرير. فهو عزل والياً قديماً، أبا موسى الأشعري، من البصرة وعيّن مكانه قريبه ابن عامر، على أساس صلة الرحم لا أكثر! فلمَ لا يكون الأمر هنا في الكوفة مثل ذلك؟

- كما ان سيرة عثمان ومنهجه فيما يتعلق بالمال، تشير الى أنه كان متساهلاً ومتسامحاً بشأن بيت المال. ومن المتوقع أن لا يثير اقتراض واليه مبلغاً من بيت المال وعدم سداده غضب عثمان، بل تفهمه. فهو ذاته كانت له مثل تلك الممارسة التي يعتبرها طبيعية ومشروعة ما دامت حقوق عامة المسلمين مؤداة، فهو ليس كعمر.

- كما ان في روايات سيف خللاً من حيث الشكل. فهي تدرج القضية ضمن حوادث سنة 26 للهجرة (رغم ان الطبري يصرح بأن سيف قال ان عزل سعد كان سنة 25 ). ولكن الرواية ذاتها تقول ان الوليد قدم أميراً على الكوفة في السنة الثانية من خلافة عثمان. ومعروفٌ ان عثمان تولى الحكم في ذي الحجة سنة 23. وسواء قال سيف ان هذه المشكلة حصلت سنة 25 أو 26، فهي ليست السنة الثانية من خلافة عثمان.

## ممارسات الوليد بن عقبة في الكوفة

قال ابن عبد البر في الاستيعاب عن الوليد بن عقبة: «وله أخبار فيها نكارة وشناعة، تقطع على سوء حاله وقبح أفعاله، غفر الله لنا وله، وأخباره في شرب الخمر، ومنادمته أبا زبيد الطائي مشهورة كثيرة، يسمج بنا ذكرها هنا، ونذكر منها طرفاً».

كما قال:

«وخبرُ صلاته بهم وهو سكران، وقوله: أزيدكم، بعد أن صلى الصبح أربعاً، مشهورٌ من رواية الثقات من نقل أهل الحديث، وأهل الأخبار».

وقال عنه ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «وقصة صلاته بالناس الصبح أربعاً وهو سكران مشهورة مخرجة. وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضاً مخرجة في الصحيحين. وعزله عثمان بعد جلده عن الكوفة وولاها سعيد بن العاص»[1]

إذن كان الوليد يشرب الخمر، ويبدو أنه كان يعاقر الخمر كثيراً إلى حد لم يتمكن معه من إخفاء هذا السلوك عن الكتمان، فانفضح أخيراً. وكانت فضيحته صارخة صاخبة: ترنّحَ يوماً وهو ثمِلٌ بينما كان يؤمّ الناسَ في صلاة الصبح، وقال كلاماً خليعاً عابثاً! وهذا كان أمراً لا يطاق في ذلك الزمان: فهو اعتداءٌ على أمر الله واستهتار بتعليمات رسوله وإهانة لمشاعر عامة المسلمين.

وكانت هذه الحادثة القشة التي قصمت ظهر البعير. فلم يعد الأمرُ يحتمل المماطلة أو التأجيل. فالوليدُ كان أحياناً يتهاون في شأن الصلاة (ويبدو أنه كان يؤديها مرغماً بحكم واجبات منصبه)، وكان له ندماء في مجالس الشرب والسمر، وكان يسمح للمسخرة ويستمتع بمعلوماتهم.

ولكن عامة الناس كانوا يهابون الوليدَ ويخشون بأسَهُ، لأنهم يعلمون

---

(1) وحادثة صلاته بالمسلمين الصبح أربع ركعات وهو مخمور، وأنه قال لهم لما انتهى: هل أزيدكم؟ مذكورة في كل كتب التاريخ. ومنها مثلاً: تاريخ الخلفاء للسيوطي، وحتى أن الشيخ القطب سيد سابق ذكرها في كتابه المشهور فقه السنة.

انه أخو الخليفة ومن رجاله الثقات المقربين. وكان عثمان يقدم له الحماية والدعم المطلق ويرفض تصديق ما يفيض من انتقادات ومآخذ عليه.

وأكد ابن حجر في فتح الباري ان تصرفات الوليد بن عقبة ومماطلة الخليفة عثمان في معاقبته كانت من المآخذ الشائعة عليه «وكان أكثر الناس فيما فعل به» أي من تركه إقامة الحد عليه» وقال في موضع آخر «كانوا يتكلمون في سبب تأخيره إقامة الحد على الوليد» ولكنه اعتذر عن الخليفة وعدم تغييراً لتركه «وولى الوليد لما ظهر له من كفايته للملك وتحمّل رعيته، فلما ظهر له سوء سيرته عزله. وإنما أخّر إقامة الحد عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك، فلما وضح له الأمر أمر بإقامة الحد عليه»

وروى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ان من جملة مآخذ الصحابة على عثمان:

«.. وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه»

وقد روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة كيف حاول عثمان الدفاع عن أخيه الوليد وحمايته في وجه الذين كانوا يشهدون عليه، وفي وجه الذين يطالبون بعزله من منصب:

فمن الزهري نقلاً من كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني «خرج رهط من اهل الكوفة الى عثمان في أمر الوليد. فقال: أكلما غضب رجل على أميره رماه بالباطل؟! لئن أصبحتُ لكم لأنكلن بكم.

فاستجاروا بعائشة. وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة،

فقال: أما يجدُ فساق العراق ومرّاقها ملجأً إلاّ بيت عائشة؟!

فسمعت، فرفعت نعل رسول الله (ص) وقالت: تركتَ سنة صاحب هذا النعل؟ وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد، فمن قائل: قد أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا؟ حتى تخاصموا وتضاربوا بالنعال.

ودخل رهط من أصحاب رسول الله (ص) على عثمان فقالوا له: اتق الله ولا تعطل الحدود، واعزل أخاك عنهم.

ففعل»

ومن المعطي نقلاً من كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني «قدم رجل من أهل الكوفة الى المدينة فقال لعثمان: اني صليت صلاة الغداة خلف الوليد فالتفتَ في الصلاة الى الناس فقال: أأزيدكم؟ فإني أجد اليوم نشاطاً، وشممنا منه رائحة الخمر.

فضرب عثمانُ الرجلَ،

فقال الناس: عطلتَ الحدود، وضربتَ الشهود!»

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ما يشير الى مدى شدة إدمان الوليد. فقد روى عن علقمة أن الوليد بن عقبة، وهو على رأس جيش للمسلمين، كان يشرب الخمر، إلى درجة أن جنوده فكروا في إقامة الحد عليه، ثم تراجعوا من أجل المصلحة:

«... شرب الوليد الخمر، فأردنا أن نحدّه.

فقال حذيفة: أتحدّون أميركم وقد دنوتم من عدوكم، فيطمعوا فيكم...»

وأمام توافر أخبار فسق الوليد ومجونه، والشهود الكثر على ذلك، والأدلة القاطعة، لم يجد عثمان بداً من إقامة الحد الشرعي عليه، وعزله عن منصبه. ويلاحظ في كل الروايات التي تتحدث عن ذلك أن عثمان كان يوجّه خطابه دائماً الى علي بن ابي طالب، دون غيره، ويسأله عما ينبغي عمله ويطلب منه أخيراً أن يطبق الحد عليه. وهذا يدل على أن علياً كان بالفعل يمارس ضغطاً متواصلاً على عثمان لكي يضع حداً للوليد وممارساته. والارجح ان الكثيرين من أهل الكوفة كانوا يلجأون الى علي بالذات ليشكوا اليه شكاواهم على الوليد، لأنهم خافوا أن ينالهم غضب الخليفة بسبب انحيازه لأخيه.

وقد ورد خبر شربه الخمرَ وحدِّه في صحيح مسلم كتاب الحدود، على النحو التالي:

عن حضين بن المنذر، أبي ساسان، قال: شهدتُ عثمان بن عفان، وأُتي بالوليد، قد صلى الصبح ركعتين ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان، أحدهما حمران، أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ.

فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها. فقال: يا علي: قم فاجلده.

فقال علي: قم يا حسن. فاجلده!

فقال الحسن: ولِّ حارها من تولى قارها (فكأنه وَجَدَ عليه). فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده!

فجلده، وعلي يعدّ، حتى بلغ أربعين. فقال: أمسك.

ثم قال: جلد النبي (ص) أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين. وكلٌّ سنّة. وهذا أحبّ إليّ»[1]

وروى أحمد بن حنبل في مسنده خبر جلد الوليد كما يلي:

عن حضين بن ساسان الرقاشي «أنه قدم ناسٌ من أهل الكوفة على عثمان رضي الله عنه فأخبروه بما كان من أمر الوليد، أي بشربه الخمر. فكلمه عليٌّ في ذلك

فقال: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد.

فقال: يا حسن قم فاجلده.

قال: ما أنت من هذا في شيء، ولِّ هذا غيرك!

قال: بل ضعفتَ ووهنتَ وعجزتَ! قم يا عبد الله بن جعفر.

فجعل عبد الله يضربه ويعد علي حتى بلغ أربعين ثم قال: أمسك، أو قال كف، جلد رسول الله (ص) أربعين وأبو بكر أربعين، وكملها عمر ثمانين، وكلٌّ سنة»[2]

---

(1) ولعدم ثبوت صحة الرواية لم يجد ابن كثير بدّاً من الاعتراف بمحاولة صلاة الوليد بالناس مخموراً وشهادة الشهود عليه ولكنه أخرجها في البداية والنهاية باختصار شديد وأشار إلى أن عثمان أمر بجلده.

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة نفس رواية أبي ساسان التي في صحيح مسلم مع زيادة تنسب لعلي شتمه ابنه الحسن لرفضه تنفيذ الجلد.

(2) ووردت نفس الرواية مرة أخرى في مسند أحمد عن حضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة، ولكن في مقدمتها أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح أربعاً ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟

ولا بدّ من التحفظ بشأن ما ورد في هذه الروايات على لسان عليّ من إقراره اجتهاد عمر بالجلد ثمانين، خلافاً لعمل رسول الله وتركه عن ذلك «كلّ سُنّة». استنهاج علي، الشديد الالتزام بأحكام النبي (ص)، يتناقض تماماً مع هذا القول المنسوب له. كما أن عصيان الحسن لأبيه حين طلب منه أن يقوم بالجلد لا يمكن تصديقه. بل الأرجح أن الهدف من عقد الدعوى القول بأن الحسن ليّنٌ ورقيق، بخلاف أبيه.

فالرواية الأخرى التي رواها ابن شبة عن هرار بن موسى الهمداني تبدو أقرب للصحيح *«لما كان من أمر الوليد بن عقبة ما كان، حيث شهدوا عليه أنه شرب الخمر. فأتي به عثمان رضي الله عنه. فلما ثبتت الشهادة قال علي: أنا جلاّد لربك سائر اليوم لعترة الخلق...»* ثم يتابع فيقول أن علياً ذكر أن بني اسرائيل هلكوا بسبب تعطيلهم الحدود من أشرافهم ولذلك لا يجوز للمسلمين أن يكونوا مثلهم.

من البيّن أن الخليفة أمر بإقامة الحد على الوليد، مُرغماً غير راغب، وأن ذلك كان ظاهراً على حاله وقوله، مما جعل الناس يهابون تطبيق حد الجلد على الوليد. وهذا أيضاً ما جعل علياً أكثر إصراراً على تطبيق الحد ولو بنفسه. فتلك مسألة مهماً لدى علي: فحكم الله يجب أن يطبق على أيّ كان، مهما كان منصبه ومرتبته.

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة المزيد من التفاصيل:

قال أبو الفرج الاصفهاني نقلاً عن أبي عبيدة وهشام بن الكلبي والأصمعي *«كان الوليد زانياً يشرب الخمر. فشرب بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبح في المسجد الجامع.*

*فصلى بهم أربع ركعات!*

*ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟*

*وتقيأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:*

*علق القلب ربابا　　بعدما شابت وشابا*

فشخص اهل الكوفة الى عثمان فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشرب الخمر.

فأتي به. فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحد. فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين! فتركه.

فخاف علي بن ابي طالب عليه السلام أن يعطل الحد، فقام اليه فحدّه بيده فقال الوليد: نشدتك الله والقرابة!

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): اسكت ابا وهب، فإنما هلكت بنو اسرائيل لتعطيلهم الحدود.

فلما ضربه وفرغ منه قال: لتدعوني قريش بعدها جلاداً!

وروى ابو الفرج ايضاً عن ابي الضحى: كان ناس من اهل الكوفة يطلبون عثرة الوليد بن عقبة، منهم ابو زينب الازدي وابو مورع. فجاءا يوماً ولم يحضر الوليد الصلاة، فسألا عنه، فتلطفا حتى علما أنه يشرب، فاقتحما الدار فوجداه يقيء. فاحتملاه، وهو سكران حتى وضعاه على سريره وأخذا خاتمه من يده.

فأفاق، فافتقد خاتمه، فسأل عنه أهله فقالوا: لا ندري. وقد رأينا رجلين دخلا عليك فاحتملاك فوضعاك على سريرك. فقال: صفوهما لي. فقالوا: أحدهما آدم طوال حسن الوجه، والآخر عريض مربوع عليه خميصة. فقال: هذا ابو زينب وهذا ابو مورع.

ولقي ابو زينب وصاحبه عبد الله بن حبيش الأسدي وعلقمة بن يزيد البكري وغيرهما فأخبروهم. فقالوا: اشخصوا الى أمير المؤمنين فاعلموه. وقال بعضهم: انه لا يقبل قولكم في أخيه.

فشخصوا اليه فقالوا: إنا جئناك في أمر ونحن مخرجوه اليك من أعناقنا. وقد قيل انك لا تقبله.

قال: وما هو؟

قالوا: وأتينا الوليد وهو سكران من خمر شربها، وهذا خاتمه أخذناه من يده وهو لا يعقل.

فأرسل عثمان إلى علي (عليه السلام) فأخبره، فقال: أرى أن تشخصه فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حددته.

فكتب عثمان إلى الوليد فقدم عليه. فشهد عليه أبو زينب وأبو مورع وجندب الأزدي وسعد بن مالك الأشعري.

فقال عثمان لعلي: قم يا أبا الحسن فاجلده...»

وروى أبو الفرج عن الشعبي أن الشاعر الحطيئة قال

شهد الحطيئة يوم يلقى ربّه ... أنّ الوليد أحق بالعذر

نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم –سكراً– ولم يدرِ

فأبوا أبا وهب ولو أذنوا ... لقرنت بين الشفع والوتر

كفوا عنانك إذ جريت ولو ... تركوا عنانك لم تزل تجري[1]

ويبدو أن الظرفاء من الرواة قد أدخلوا بعض التفاصيل الطريفة في أخبار سيرة الوليد في الكوفة. فموقف الوليد وهو يؤم الناس سكرانا مسطولا يثير الخيال ويطلق العنان للرواة للاستفاضة في التفاصيل. وهكذا ظهر شعرٌ كثير منسوب لنديمه أبي زبيد وللشاعر النصراني الحطيئة حول الوليد وشربه[2].

---

(1) كما روى ابن شبة في تاريخ المدينة أبيات الشعر الذي قاله الحطيئة تلك السالفة وبه اختلافات طفيفة. كما روى عن خالد بن سعد أبياتا قالها صديقه المقرب أبو زبيد الطائي وكان نديما للوليد وكان نصرانيا»

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق أن الناس قد زادوا البيتين التاليين إلى شعر الحطيئة:

نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم ثملاً وما يدري

ليزيدهم خيراً ولو قبلوا ... لأتت صلاتهم على العشر

وهذا كله يدل على اشتهار حادثة صلاة الوليد بن عقبة بالناس وهو سكران وغير عهد حتى أصبحت مثلو تتلو

(2) وأضاف ابن عبد البر في الاستيعاب إلى شعر حطيئة أعلاه قوله:

«تكلم في الصلاة وزاد فيها ... علانية وجاهر بالنفاق

ومجّ الخمر في ستر المصلى ... ونادى والجميع إلى افتراق

أزيدكم على أن تحمدوني ... فما لكم وما لي من خلاق»

ولكن مع ذلك فإن فسقَ الوليد وخلاعته أمرٌ متواتر لا يرقى إليه الشك.

وقد ازدادت صورته سوءاً بعد توليه إمارة شؤون الكوفة، فعُرف بتقريب صديقه النصراني أبي زبيد الذي أنزله في دار الضيافة بالقرب من منزله، وأدخله المسجدَ برغم نصرانيته، وأقام له الموائد الشهرية التي تتصدرها الخمور. وتمادى الوليد في تجاوزاته، فأدخل أحد السكرة إلى المسجد ليقيم الصلاة، مما أثار الناس عليه، حتى وصل الخبر إلى المدينة. وهناك أخبار كثيرة جداً حول ذلك[1].

منها ما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن أبي الفرج الاصفهاني أن الوليد استقبل صديقه القديم، أبا زبيد الطائي، لما قدم عليه الكوفة، وأنزله داراً قريبة للمسجد، بعد أن كان استوهبها من صاحبها عقيل بن أبي طالب. فطعن أهل الكوفة على الوليد لأن أبا زبيد كان يخرج من داره حتى يشق المسجد الى الوليد فيسمر عنده، ويشرب معه، ويخرج ليشق المسجد وهو سكران. لذلك نبههم عليه وقال في رواية أخرى «فكان مما احتج به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج اليه من داره وهو نصراني يخترق المسجد فيجعله طريقاً»

وقد روى الذهبي في سير اعلام النبلاء عدة روايات عن حادثة الساحر الذي كان يلعب عند الوليد في المسجد مما أثار استهجان الصالحين من الناس وخاصة الصحابي جندب الأزدي الذي اندفع الى قتل الساحر والدخول في مشكلة مع الوليد الذي عاقبه بسبب ذلك. فعن أبي عثمان النهدي «ان ساحراً كان يلعب عند الوليد بن عقبة الامير. فكان يأخذ سيفه فيذبح نفسه، ولا يضره. فقام جندب الى السيف فأخذه فضرب عنقه ثم قرأ (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون)»

وأضاف في رواية عن أبي مخنف أن الساحر كان يدخل في جوف حمار ويخرج من دبره ويضرب عنق الرجل ثم يحييه! فقتله جندب بن كعب فأراد الوليد بن عقبة قتله، فلم يستطع. فحبسه»

---

[1] رواية أبي مخنف من أكثرها تفصيلاً. وهي مذكورة في كتاب الانساب للبلاذري.

وقال أيضاً في رواية عن ابي الأسود فسجنه الوليد. نهرّبه السجان لصلاحه»

ويبدو ان علاقة السمر والشرب بين الوليد بن عقبة وصديقه ابي زبيد الطائي كانت وثيقة الى حد أنهما دفنا الى جوار بعضهما البعض في الرقة. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق :

«مر مسلمة بن عبد الملك بقبر الوليد بن عقبة بن ابي معيط بالرقة فقال: قبر من هذا ؟

قيل: قبر الوليد بن عقبة.

قال: رحم الله ابا وهب وجعل يثني عليه.

قبر من هذا الآخر؟

قيل: قبر ابي زبيد الطائي الشاعر.

قال: وهذا فرحمه الله

فقيل: انه كان نصرانياً.

قال: انه كان كريماً»

وقد لخص اليعقوبي في تاريخه ضمن كلامه عن احداث سنة 26 للهجرة أخبار الوليد بن عقبة فقال «وفيها ولي الوليد بن عقبة بن ابي معيط الكوفة، مكان سعد، وصلى بالناس الغداة، وهو سكران، اربع ركعات، ثم تهوّع في المحراب، والتفت الى من كان خلفه فقال: أزيدكم؟

ثم جلس في صحن المسجد وأتى بساحر يدعى بطروى من الكوفة، فاجتمع الناس عليه، فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها، ويعمل اعاجيب.

فرآه جندب بن كعب الازدي فخرج الى بعض الصياقلة، فأخذ منه سيفاً ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتى ضرب عنقه ثم قال له: احيي نفسك إن كنت صادقاً!

فأخذه الوليد فأراد أن يضرب عنقه فقام قوم من الأزد فقالوا: لا تقتل والله صاحبنا!

فحبسه في الحبس. وكان يصلي الليل كله، فنظر اليه السجان، وكان يكنى ابا سنان فقال: ما عذري عند الله إن حبستك على الوليد يقتلك؟ فأطلقه.

فسار جندب الى المدينة، وأخذ الوليد ابا سنان فضربه حتى سرطه، فوثب عليه جرير بن عبد الله، وعدي بن حاتم، وحذيفة بن اليمان، والأشعث بن قيس، وكتبوا الى عثمان مع رسلهم

فعزله وولى سعيد بن العاص مكانه.

فلما قدم الوليد قال عثمان: من يضربه؟ فأحجم الناس لقرابته، وكان أخا عثمان لأمه، فقام عليّ فضربه.

ثم بعث به عثمان على صدقات كلب وبلقين؛

## أكاذيب سيف بن عمر

لم يكتفِ سيفُ بن عمر بالتغاضي عن سلبيات الوليد او التخفيف من حدة بعض الأخبار المتعلقة به، ولا حتى بالدفاع عنه في بعض مواقفه وسياساته بل قدم منظومة متكاملة من الروايات الملفقة حول ممارسات الوليد بن عقبة خلال عهده في الكوفة تؤدي نتيجتها الى صورة تختلف تماماً عن كل ما ذكره الآخرون.

ولما كانت مسألة شرب الخمر واقامة الحد عليه بسبب ذلك هي الفضيحة الأكثر لصوقاً بالوليد وسمعته، فقد لجأ سيف الى مواجهتها بشكل محترف وعلى النحو التالي:

فهو أولاً تطرق الى سبب «الوشاية» التي تعرض لها الوليد. وقد أرجع الأمر الى «حقد شخصي» تجاه الوليد أضمره مجموعة من أهل الكوفة لا ذنب للوليد فيه إلا قيامه بتطبيق القانون وتنفيذ واجبات منصبه! فقد روى الطبري في تاريخه عن سيف ان الوليد «كان أحبَّ الناس في الناس وأرفقهم بهم، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب» ثم بدأ يتحدث عن مشكلة

وقعت بين مجموعة من شباب الكوفة قامت خلالها مجموعة منهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشبل بن أبي الأزدي بالاعتداء على شاب آخر هو ابن الحيسمان الخزاعي وقتله. فشهد عليهم لدى الوليد أبو شريح الخزاعي وابنه «فكتب فيهم إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر». ويضيف سيف أنه بسبب تلك الحادثة، التي لا ذنب فيها للوليد على الاطلاق، أصبح آباء الشبان المعدومين، وخاصة جندب وأبي مورع، أعداء لشخصين للوليد، يتربصون به ويحاولون الايقاع به!

ثم انتقل سيف ليعالج المسألة الأصعب وهي شرب الخمر، وإذ به وبجرأة وصفاقة نادرة ينفيها من أصولها! ولم يأبه بالأخبار المتواترة، ولا بالصحاح، ليجعل الأمر كله تلفيقاً تعرض له الوليد «المظلوم» على يد المجموعة الحاقدة! وهكذا خرج سيف قصته كما رواها الطبري في تاريخه وابن عساكر في تاريخ دمشق: فهو يقول أن جندب الأزدي ومن معه أطلقوا «الشائعة» أن الوليد يشرب الخمر «فجاء جندب ومن معه الى ابن مسعود فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر! وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس. فقال ابن مسعود: من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره...»

ثم تناول سيف موضوع أبي زبيد الطائي، نديم الوليد في جلسات الشرب كما يلي:

«كان عمر بن الخطاب قد استعمل الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة فنزل في بني تغلب. وكان أبو زبيد في الجاهلية والإسلام في بني تغلب حتى أسلم وكانت بنو تغلب أخواله. فاضطهده أخواله دينًا له، فأخذ له الوليد بحقه، فشكرها له أبو زبيد وانقطع إليه وغشيه بالمدينة. فلما ولي الوليد الكوفة أتاه مسلّماً معظماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة، فنزل دار الضيفان، وآخر قدمة قدمها أبو زبيد على الوليد وقد كان ينتجعه ويرجع، وكان نصرانياً قبل ذلك فلم يزل الوليد به وعنده حتى أسلم في آخر إمارة الوليد وحسّن إسلامه فاستدخله الوليد. وكان عربياً شاعراً حين قام على الإسلام.

فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورع وجندباً وهم يحتفون له مذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون فقال لهم: هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد؟ فثاروا في

ذلك. فقال ابو زينب وابو مورع وجندب لأناس من وجوه اهل الكوفة: هذا اميركم وابو زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر. فقاموا معهم ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة وليس عليه باب. فاقتحموا عليه من المسجد وبابه الى المسجد.

فلم يفجأ الوليد إلا بهم، فنحى شيئاً فأدخله تحت السرير. فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره، فإذا طبق عليه تفاريق عنب! وانما نحاه استحياء أن يروا طبقه ليس عليه الا تفاريق عنب.

فقاموا فخرجوا على الناس فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. وسمع الناس بذلك فأقبل الناس عليهم يسبونهم ويلعنونهم ويقولون أقوام غضب الله لعمله وبعضهم أرغمه الكتاب فدعاهم ذلك الى التجسس والبحث. فستر عليهم الوليد وطواه عن عثمان، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر»

ويلاحظ في سياق رواية سيف ان الوليد يستحق الثناء والتقدير على اخلاصه في سبيل دين الله ونجاحه في إدخال صديقه النصراني في الاسلام! كما لا بد من التنويه بحسن خصال الوليد الذي يصبر على الأذى ويكره ان يضر هؤلاء الحاقدين فلا يبلغ الخليفة بما جرى!

واما كيف حُدّ الوليد وعُزل ؟ فيقول سيف ان الحاقدين انفسهم تابعوا مؤامرتهم ضد الوليد من أجل عزله

«انتشوا الوليد وأكبوا عليه. فبيناهم معه يوما في البيت وله امرأتان في المخدع بينهما وبين القوم ستر، احداهما بنت ذي الخمار والاخرى بنت ابي عقيل،

فنام الوليد،

وتفرق القوم عنه. وثبت ابو زينب وابو مورع، فتناول احدهما خاتمه، ثم خرجا.

فاستيقظ الوليد وامرأتاه عند رأسه فلم ير خاتمه فسألهما عنه فلم يجد عندهما منه علماً. قال: فأي القوم تخلف عنهم؟ قالتا: رجلان لا نعرفهما ما

فسألك إلا منذ قريب. قال: حليتهما. فقالتا: على أحدهما خميصة وعلى الآخر مطرف وصاحب المطرف أبعدهما منك. فقال: الطوال؟ فقالتا: نعم فقال: والقصير؟ فقالتا: نعم. وقد رأيناه يده على يدك.

قال: ذاك أبو زينب والآخر أبو مورع وقد أرادا داهية فليت شعري ماذا يريدان؟

فطلبهما فلم يقدر عليهما. وكان وجههما إلى المدينة

فقدما على عثمان ومعهما نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال

فقالوا له.

فقال: من يشهد؟ قالوا: أبو زينب وأبو مورع. وكاع الآخران.

قال: كيف رأيتما؟

قالا: كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر

فقال: ما يقيء الخمر إلا شاربها

فبعث إليه فلما دخل على عثمان رآهما فقال متمثلا:

ما إن خشيت على أمر خلوتُ به فلم أخفك على أمثالها حار

فحلف له الوليد وأخبره خبرهم

فقال: نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار. فاصبر يا أخي.

فأمر سعيد بن العاص فجلده، فأورث ذلك عداوة بين ولديهما حتى اليوم»

وهكذا يحاول سيف بن عمر أن يظهر الوليد بن عقبة، الفاسق بالإجماع، وبالنص القرآني، وابن أخي أعداء رسول الله(ص)، بمظهر الوالي الطيب المسكين الذي يأكل قطعاً من عنب لا قيرا بينما يحاول «الأشرار» الإساءة إليه، حتى أنهم يجردونه خاتمه من على إصبعه دون أن يشعر بهم لأنه نائما

ثم شهدوا عليه زوراً عند عثمان الذي اضطر – رغم قناعته ببراءة الوليد – الى تطبيق الحد عليه.

وقد علق العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب على هذه القصة كما يلي «وقد رُوي فيما ذكر الطبري، أنه تعصّب عليه قوم من أهل الكوفة بغياً وحسداً، وشهدوا عليه زوراً أنه تقيّأ الخمر، وذكر القصة، وفيها أن عثمان قال له: يا أخي اصبر، فإن الله يأجرك ويبوء القوم بإثمك.

وهذا الخبر من نقل أهل الأخبار لا يصح عند أهل الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل»

ومن المفيد التأمل في الرواية التالية لملاحظة التلاعب الذي قام به سيف بن عمر :

فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن أبي الضحى:

«كان ابو زينب الأزدي وأبو مروع، يلتمسان عثرة الوليد. فجاءا يوماً -ولم يحضر الصلاة- فسألا عنه وتلطفا حتى علما انه يشرب. فاقتحما الدار فوجداه يقيء، فاحتملاه وهو سكران فوضعاه على سريره وأخذا خاتمه وخرجا. فأفاق، ففقد خاتمه، فسأل، فقالوا: قد رأينا رجلين دخلا الدار فاحتملاك فوضعاك على سريرك. فقال: صفوهما. فوصفوهما. فقال: هذان ابو زينب وابو مروع. ولقي ابو زينب وابو مروع عبد الله بن جبير الأسدي وعقبة بن يزيد البكري، وغيرهما فأخبراهم فقالوا: اشخصوا الى امير المؤمنين فأعلموه. فشخصوا.

فقالوا له: انا جئناك لأمر نحن مخرجوه اليك من أعناقنا.

قال: وما هو؟

قالوا: رأينا الوليد سكران من خمر قد شربها، وهذا خاتمه أخذناه وهو لا يعقل.

فأرسل الى علي رضي الله عنه يشاوره. فقال: أرى أن تشخصه فإن شهدوا عليه بمحضر منه حددته.

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه فقدم. فشهدوا عليه منهم زينب وابو مروع وجندب الاسدي وسعد بن مالك الاشعري- ثم شهد عليه الايمان فقال عثمان رضي الله عنه لعلي: قم فاضربه....»

وهذه الرواية كما لا يخفى أكثر وجاهة من رواية سيف. فهي تختلف عنها في نقطة رئيسية: إثبات شرب الخمر. وطبعاً انتزاع خاتم الوليد من يده وهو سكران أمرٌ ممكن، بعكس ما يدعيه سيف بأنهم انتزعوا خاتمه من يده وهو نائم ودون أن يفيق!

## ثانياً: تعيين سعيد بن العاص والياً على الكوفة[1]

إذن قام عثمان في عام 29 أو 30 للهجرة باستبدال الوليد بن عقبة في منصب والي الكوفة بسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية

وسعيد بن العاص هذا كان قد نشأ في حجر عثمان، بالاضافة طبعاً الى كونه من أبناء عمومته.

ذكر ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب وابن الاثير في أسد الغابة:

«ولد عام الهجرة وقيل: بل ولد سنة احدى. وقتل أبوه العاص بن سعيد بن العاص يوم بدر كافراً، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: رأيته يوم بدر يبحث للتراب عنه كالأسد فصمد إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله....

وكان سعيد بن العاص هذا أحد أشراف قريش، ممن جمع السخاء والفصاحة، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان رضي الله عنه

استعمله عثمان على الكوفة، وغزا بالناس طبرستان فافتتحها، ويقال أنه افتتح أيضاً جُرجان في زمن عثمان سنة 29 أو سنة 30»

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص31-37 و ج6 ص32)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج17 ص242 و ج2 ص39 و ج14 ص118)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص272 + ص753)، اسد الغابة لابن الاثير (ج2 ص310)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج21 ص114)، تاريخ الطبري (ج3 ص344)، وكنز العمال للمتقي الهندي (ج5 ص625) ومروج الذهب للمسعودي (ج2 ص261)

ومن المؤكد أن هذا التعيين الجديد سبّب خيبة أمل شديدة في أوساط الكوفيين. فما يرونه أمامهم هو مجرد تغيير في الأسماء لا في المضمون، فالوالي الجديد يشترك مع الوليد بن عقبة في المعالم الرئيسية: فكلاهما من أقرباء الخليفة من العائلة الأموية. وكلاهما ابنٌ لواحدٍ من أشرس أعداء رسول الله(ص) ممن قتلهم علي بن أبي طالب يوم بدر. وكلاهما رمزٌ لقريش وسلطانها. والفارق هنا أن الوالي الجديد أصغر سناً، فهو يبلغ من العمر 29 عاماً فقط.

وبعد كل تلك المشاكل والفضائح التي سببها الوليد بن عقبة في الكوفة، كان من المتوقع أن يعين الخليفة والياً له خبرة وسلطة لإصلاح الضرر. ولكن عثمان لم يفعل، وفضل تعيين قريبه الشاب في ذلك المنصب الحساس.

وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وابن عبد البر في الاستيعاب شعراً قاله أحدهم معبّراً فيه عن رأي الناس في هذا التعيين الجديد :

*فررتُ من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا*

*يلينا من قريش كل عامٍ أميرٌ محدَثٌ أو مستشار*

*لنا نارٌ نحرقها فنخشى وليس لهم - ولا يخشون- نار*

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي وكرره عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق :

*فلما قدم الكوفة قدمها شاباً مترفاً ليست له سابقة.*

*فقال: لا أصعد المنبر حتى يُطهرا فأمر به فغسل.*

*ثم صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونسبهم إلى الشقاق والخلاف. فقال: إنما هذا السواد بستانٌ لأغيلمة من قريش!*

*فشكوه إلى عثمان فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله!*

وعبارة "إنما هذا السواد بستان قريش" التي قالها سعيد بن العاص سوف

تشتهر وتنتشر وسوف يكون لها تأثير مهم على مستقبل الأحداث في الكوفة وعلى مصير الخليفة ذاته. وسيأتي الحديث عنها لاحقاً.

وفي رواية للواقدي في تاريخ الطبري أن عثمان بعث سعيد بن العاص إلى الكوفة أميراً عليها حين شهد على الوليد بن عقبة بشرب الخمر من شهد عليه، وأمره أن يبعث إليه الوليد بن عقبة.

فقدم سعيد بن العاص الكوفة فأرسل إلى الوليد: أن أمير المؤمنين يأمرك أن تلحق به.

فتضجع أياماً، فقال له: انطلق إلى أخيك فإنه قد أمرني أن أبعثك إليه.

وما صعد منبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل، فناشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بني أمية وقالوا: إن هذا قبيح! والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تذب عنه! يلزمه عار هذا أبداً

فأبى إلا أن يفعل. فغسله

وأرسل إلى الوليد أن يتحول من دار الإمارة، فتحول منها ونزل دار عمارة بن عقبة»

وذكر المسعودي في مروج الذهب «... فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتى يغسل، وأمر بغسله وقال: إن الوليد كان نجساً رجساً»

وقد عبر ابن عبد البر في الاستيعاب عن خيبة أمل الناس وإحباطهم من تعيينات الخليفة، خاصة بعد أن شاهدوا سياسات سعيد:

فأكثروا إلى عثمان: لا حاجة لنا في سعيدك ولا وليدك!

وكان في سعيد تجبّر وغلظة، وشدة سلطان.

وكان الوليد أسخى منه وألين جانباً، فلما عزل الوليد وانصرف قال بعض شعرائهم:

يا ويلنا قد ذهب الوليدُ وجاءنا من بعده سعيدُ

ينقص في الصاع ولا يزيدُ»

## استطراد بشأن فروع بني أمية

ومبادرة سعيد بن العاص الى «غسل المنبر» في الكوفة قبل ان يصعده تطهيراً من «رجس» الوليد بن عقبة، والتي تدل على احتقاره الشديد له، تعتبر مدخلاً مناسباً للتطرق الى بطون العائلة الأموية.

فيمكن تقسيم بني امية الى أربعة بطون:

**آل حرب:** وهؤلاء ابناء وسلالة حرب بن أمية. ومن هؤلاء أبوسفيان صخر بن حرب، وابنه معاوية وحفيده يزيد بن معاوية. وهذا الفرع الأموي له سؤدد سياسي ومالي في مكة. فحرب بن أمية كان يقود جموع قريش في معاركها. وكذلك ابنه صخر الذي تابع دربه فيه فتولى قيادة قريش، على مدار سبعة أعوام في حروبها ضد النبي (ص) بعد مصرع القيادات الكبيرة يوم بدر. وبالإضافة الى نزعته السياسية والقيادية، يمتاز هذا الفرع الأموي بغناه ونشاطه التجاري البارز. وهذا الفرع الاموي هو الاشهر والابرز، وأخباره كثيرة ومعروفة.

**آل العاص:** ومن أبرز هؤلاء سعيد بن العاص بن أمية، الملقب بأبي أحيحة، الذي كان عظيم الشأن في قريش، ثرياً، مهاباً مطاعاً، حتى يروى أنه كانت له عمامة زرقاء وكان يمنع أي أحد من قريش أن يرتدي مثلها! قال ابن الأثير في أسد الغابة «كان أبو أحيحة إذا اعتم بمكة لا يعتم أحدٌ بلون عمامته إعظاماً له. وكان يقال له: ذو التاج» وقد كان ابو أحيحة هذا شديد العداء لمحمد (ص) ودعوته في مكة رغم كونه طاعناً في السن. فلما سمع أن ابنه خالداً قد أسلم سراً وتبع محمداً (ص):

*«فبعث إليه وكلمه أن يدع ما هو عليه.*

*فقال خالد: لا أدع دين محمد حتى أموت عليه!*

*فضربه أبو أحيحة بقراعة في يده حتى كسرها على رأسه ثم أمر به إلى الحبس، وضيّق عليه، وأجاعه وأعطشه. حتى لقد مكث في حر مكة ثلاثاً ما يذوق ماء...»*[1]

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد

وحتى بعد أن هرب ابنه منه وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة، بقي سعيد بن العاص بن أمية غاضباً وحاقداً على محمد(ص)، حتى أنه مرض مرة:

«... فقال: لئن رفعني الله من مرضي هذا، لا يُعبد إله ابن أبي كبشة ببطن مكة...»

وقد قتل ابنه العاص بن سعيد كافراً في معركة بدر على يد علي بن أبي طالب. ويشتهر من هذا الفرع الاموي سعيد بن العاص، ووالي الكوفة أيام عثمان ووالي المدينة أيام معاوية. وهو ابن القتيل في بدر، ويحمل نفس اسم جده أبي أحيحة، فاسمه الكامل سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية. ولذلك يحصل تشوّش لدى الكثير من الباحثين بسبب تشابه الاسم بين الجد والحفيد.

وتجدر الاشارة إلى ان هذا الفرع الاموي قد خرج منه جناحٌ آمن بالاسلام مبكراً. وقد مرّ ذكر خالد بن سعيد ومشكلته مع أبيه بسبب ذلك. بل ان خالد بن سعيد، رغم كونه أموياً بالنسب، يمكن وصفه بأنه شيعي اقيعد وخلة النبي (ص) كان يقول: لا أبايع إلاّ علياً، وبقي لفترة طويلة مُصراً على رفضه لبيعة أبي بكر.

وكان خالد يقول لبني هاشم «أنتم الظهر والبطن والشعار دون الدثار، والعصا دون اللحاء فإذا رضيتم رضينا وإذا سخطتم سخطنا ..... أما والله يا بني هاشم: إنكم الطوال الشجر، الطيبو الثمر..»[1]

«وبقي خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر»[2]

وقد حاول أبو بكر أن يستميله ويسترضيه، فبعد عودته من اليمن، التي كان النبي(ص) قد بعثه عليها، قرر الخليفة الجديد تعيينه قائداً لأحد الجيوش المتجهة لفتح الشام. ولكن عمر بن الخطاب تدخل لدى أبي بكر من عزله، فقام أبو بكر بعزله وعيّن مكانه يزيد بن أبي سفيان وأعطاه لواءه.

والسبب كان شك عمر في ولائه للقيادة الجديدة لأنه كان ممن رفض

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد. وكذلك ورد في كنز العمال للمتقي الهندي

بيعة أبي بكر، وكان هواه مع عليّ. كما روى ابن سعد في الطبقات الكبرى «وأقام خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر. ثم مر عليه أبو بكر بعد ذلك مظهراً وهو في داره فسلم عليه. فقال له خالد: أتحب أن أبايعك؟ فقال أبو بكر: أحب أن تدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون. قال: موعدك العشية أبايعك. فجاء وأبو بكر على المنبر فبايعه. وكان رأي أبي بكر فيه حسناً وكان معظماً له، فلما بعث أبو بكر الجنود على الشام عقد له على المسلمين، وجاء باللواء إلى بيته. فكلم عمرُ أبا بكر وقال: تولي خالداً وهو القائل ما قال؟ فلم يزل به حتى أرسل أبا أروى الدوسي فقال إن خليفة رسول الله (ص) يقول لك: اردد إلينا لواءنا. فأخرجه فدفعه إليه وقال: والله ما سرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وإن المليم غيرك.»

ورغم هذا الخلاف مع أبي بكر، إلا أن خالداً ومعه أخواه عمرو وأبان خرجوا مع الجيوش المتجهة الى الشام. وكان بلاؤهم حسناً فاستشهدوا جميعاً في معارك اجنادين، ومرج الصفر واليرموك.

والخلاصة أن فرع آل العاص هو أكرم فروع بني أمية وأكثرها تسوعاً واحتفاظاً بالخلق. ورغم أن سعيد بن العاص كان بالتأكيد ملتزماً بالخط الأموي العام أثناء عمله لعثمان ومعاوية من بعده، إلا أنه كان يظهر لديه في بعض المواقف ما يشير الى كرم الأصل والمنبت. فكان يأبى ان يمارس سلوكاً ينمّ عن خسّةٍ مما تعافه النفس السوية، بخلاف أقربائه الأمويين من البطون الأخرى وبالذات مروان بن الحكم والوليد بن عقبة. فمثلاً هو كان يرفض ان يشتم الامام علي بن ابي طالب على المنبر في المدينة. كما انه لم يمانع ان يُدفن الامام الحسن بن علي عند قبر جده رسول الله(ص) لما توفي ولم يتدخل فيما جرى بين بني هاشم ومروان بن الحكم، رغم كونه الوالي على المدينة آنذاك. هذا عن أن سعيد بن العاص لم يحارب الامام علي في الجمل وصفين، وبقي في مكة ورفض أن يتابع المسير مع عائشة الى البصرة، ولم يذهب الى معاوية إلا بعد أن بويع بالخلافة.

آل أبي العاص: وهؤلاء سلالة ابي العاص بن أمية، وأبرزهم الخليفة

عثمان بن عفان بن أبي العاص، وابن عمه مروان بن الحكم بن أبي العاص، ومن بعده ابنه عبد الملك وبقية خلفاء بني أمية حتى انهيار دولتهم. وهذا الفرع لم يكن بارزاً ولا معروفاً بالسيادة والعلو. فهو لا يعدّ نداً لآل حرب ولا آل العاص من أمية. بل ان في ممارسات وسلوكيات الحكم بن ابي العاص، بعد أن اضطرّ للدخول في الاسلام، ما يشير الى نزعة للتهتك والخلاعة مما تأباه الأنفس الكريمة.

آل أبي مُعيط: وهؤلاء سلالة ابي معيط بن ابي عمرو بن أمية. وهذا الفرع هو الأكثر خمولاً وضآلة من بين بطون أمية. بل ان هناك عدة روايات تطعن في صحة نسب هذا الفرع. فيقال ان ابا عمرو بن أمية، واسمه الاصلي ذكوان، كان في الحقيقة عبداً لأمية، اشتراه من صفورية من الشام، وتبناه واستلحقه فيما بعد. ومن أشهر شخصيات هذا الفرع عقبة بن ابي معيط الذي أعدمه رسول الله (ص) يوم بدر، وابنه الوليد بن عقبة، والي عثمان على الكوفة، وقد مرّ ذكره.

وهذه البطون الأموية كانت تتنافس فيما بينها، وتتحاسد وتتفاخر. ومن الامثلة على ذلك، كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، أن بطن أبي العاص الاموي، رأى في قيام معاوية بن ابي سفيان باستلحاق زياد بن أبيه بنسبه محاولة لتقوية فرع آل حرب على حسابه! حتى أن عبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاص قال لمعاوية «لو لم تجد إلاّ الزنج لاستكثرت بهم علينا».

وفي ختام هذا الاستطراد لا بد من الاشارة الى مجموعة أخرى من الشخصيات البارزة التي يمكن اعتبارها أموية رغم عدم انتسابها لأمية من الناحية السلالية. فأمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس هذا له عقبٌ غير أمية، وهو أخوه حبيب وابنه ربيعة. وهناك شخصيات لعبت أدواراً مهمة تنتمي الى ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، منها من عظماء قريش وأعداء النبي (ص) في مكة: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنته هند زوجة ابي سفيان. ومن الجيل اللاحق اشتهر عبد الله بن عامر بن كريز، والي عثمان على البصرة،

وكذلك محمد بن أبي حذيفة بن عتبة، عدو عثمان في مصر! فهؤلاء جميعاً هم من بني عبد شمس، وبنو أمية كلهم من بني عبد شمس أيضاً. وفي الاجمال هناك تداخل بين الجهتين، من ناحية القرابة اللصيقة، والمواقف والسلوك أيضاً، حتى يمكن اعتبارهم كلهم شيئاً واحداً.

## ثالثاً: تعيين عبد الله بن عامر والياً على البصرة[1]

قال ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب «عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي، ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه. أم عثمان أروى بنت كريز...

وُلِدَ على عهد رسول الله (ص)...

قال صالح بن الوجيه وخليفة بن خياط: وفي سنة 29 عزل عثمانُ أبا موسى الأشعري عن البصرة، وعثمانَ بن أبي العاص عن فارس، وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر بن كريز. وقال صالح: وهو ابن 24 سنة»

---

(1) مصادر هذا البحث: اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص191)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص427)، تاريخ خليفة بن خياط (ص161)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص166)، تاريخ الطبري (ج4 ص264)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص44)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص252) و فتوح البلدان البلاذري (ج2 ص444).

قال ابن الاثير في ترجمته في اسد الغابة «استعمله عثمان على البصرة سنة 29 بعد أبي موسى، وولاه أيضا بلاد فارس بعد عثمان بن أبي العاص، وكان عمره لما ولي البصرة أربعاً أو خمساً وعشرين سنة»

وبشأن الأهلية الاسلامية لعبد الله بن عامر: بما أنه قد ولد في السنة الرابعة للهجرة، لا يمكن الحديث عن أي دور له شخصياً في الفترة النبوية لا سلباً ولا ايجاباً، لأن عمره حين توفي النبي (ص) لم يكن يتجاوز السادسة الا قليلا. وأما أبوه فلا يوجد له ذكرٌ في أحداث الفترة النبوية. فلا هو معروفٌ ضمن أعداء النبي (ص) من قيادات قريش في مكة، ولا هو من الذين أسلموا واتبعوا النبي(ص)، بل كل ما يذكر عنه انه كان من الطلقاء من مسلمة الفتح. وأغلب الظن أنه كان شخصية خاملة رغم نسبه الرفيع. والظاهر أنه اكتفى بدور التابع البسيط لأعمامه عتبة وشيبة ابني ربيعة اللذين كانا يتصدران أهل مكة في مواجهة محمد(ص).

وهكذا يكون عثمان قد تابع مسلسل تعييناته لأقربائه وأبناء عائلته في المناصب القيادية العليا في الدولة. وهو هنا يعين قريبه من بني عبد شمس وابن خاله والياً على البصرة عام 29 للهجرة بعد أن عزل واليها الصحابي القديم أبا موسى الأشعري.

وهكذا منحه صلاحيات واسعة، رغم صغر سنّه الذي لم يتجاوز الخمسة وعشرين، ثم ولاّه أيضاً بلادَ فارس بعد عزل عثمان ابن أبي العاص الثقفي.

ومثلما كان رد فعل سعد بن أبي وقاص حينما عُزل عن الكوفة وعُيّن مكانه الوليد الوليد بن عقبة، كان رد أبي موسى: الاستياء والاستنكار:

قال خليفة بن خياط في تاريخه من أحداث عام 29 للهجرة فيها عزل عثمان بن عفان أبا موسى الاشعري عن البصرة، وعثمانَ بن ابي العاص عن فارس، وجمع ذلك أجمع لعبد الله بن عامر بن كريز.

فحدثني الوليد بن هشام قال: حدثني أبي عن جدي عن الحسن قال: قال ابو موسى: يقدم عليكم غلامٌ كريمُ الجدات والعمات، يجمع له الجندان. فقدم ابن عامر.

وسمعت ابا اليقظان ذكر نحو ذلك وقال: قدم ابن عامر وهو ابن اربع أو خمس وعشرين سنة»

قال اليعقوبي في تاريخه «وعزل أبا موسى الأشعري وولّى مكانه عبد الله بن عامر بن كريز وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة. فلما بلغ أبا موسى ولاية عبد الله بن عامر قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: قد جاءكم غلام كثير العمات والخالات والجدات في قريش، يفيض عليكم المال فيضاً»

وفي رواية للطبري عن أبي بكر الهذلي أن ابا موسى قال لأهل البصرة لما شيّع بابن عامر «أتاكم غلام خرّاج ولّاج كريم الجدات والخالات والعمات، يُجمع له الجندان. ......

قال الحسن: فقدم ابن عامر. فجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي»

وكدأبه المتواصل وعادته في الدفاع عن عثمان وسياساته كائنة ما كانت، لم يفت سيف بن عمر أن يجد تبريراً لقرار عزل أبي موسى وتعيين ابن عامر مكانه. فانفرد الطبري، في روايته عن سيف، في ذكر قصة طويلة ملخصها ان اهل (إيذج والأكراد) قد ارتدوا فندبَ الوالي ابو موسى الناسَ للخروج للجهاد حتى لو كانوا راجلين فاستجابوا، ولكنهم فوجئوا أن ابا موسى لما خرج معهم «أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلاً» مما أثار استياءهم فرفضوا فأتوا عثمانَ فاستعفوه منه وقالوا: ما كل ما نعلم نحب أن نقوله. فأبدلنا به.

فقال: من تحبون؟

فقال غيلان بن خرشة: في كل أحد عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا. فلا تنفك من أشعري كان يعظم ملكه عن الأشعريين ويستصغر ملك البصرة. وإذا أمّرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مهتراً كان فيه عوض منه ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه.

فدعا عبد الله بن عامر وأمّره على البصرة»

وهذا الوصف الوارد في رواية سيف هذه في نعت أبي موسى «العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا» هو قاسٍ جداً بحقه، ولا يوجد له نظير في المصادر الأخرى، التي هي في إجمالها تشير إلى أن أبا موسى كان والياً ناجحاً. وكلمة (العبد) المستعملة هنا غريبة ومستهجنة فأبو موسى صريحٌ من عرب اليمن وليس من الموالي حتى يشتمه عدوه بقوله عنه «عبد».

وهناك رواية أخرى في الطبري عن علي بن مجاهد، ربما أمكن قبولها، وهي تذكر أن غيلان بن خرشة هذا قال لعثمان «أما منكم خسيس تجرونه؟ أما منكم فقيرٌ تجبرونه؟ يا معشر قريش حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟

فانتبه لها الشيخ فولاها عبد الله بن عامر»

وهذه الرواية أخف وطأة من رواية سيف، فلا يستبعد أن يكون غيلان هذا قد اقترح على عثمان استبدال أبي موسى بواحد من قومه، تزلفاً وتملقاً للخليفة وتقرباً منه. فالأرجح أن سيف بن عمر قد أخذ هذه الرواية وحرفها وأضاف إليها فقرة الأرجس بغلاً والأوصاف المسيئة بحق أبي موسى. كل ذلك من أجل إيجاد عذر لعثمان في عزله.

والظاهر أن غيلان بن خرشة هذا قد نال مكافأة من عبد الله بن عامر بعدما تولى. فقد ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن من ضمن الأنهار التي كان ابن عامر يحفرها في البصرة واحداً عرف باسم أمه: نهر أم عبدالله دجاجة «وتولاه غيلان بن خرشة الضبي».

ولستُ متأكداً من المقصود بـ «تولاه» هنا، ولكن أظنها تعني امتلاك حقوقه والسيطرة عليه.

وعلى كل حال فإن عثمان لم يرَ نفسه مضطراً إلى شرح أسباب عزله لأبي موسى الأشعري واكتفى بأن كتب له «إني لم أعزلك عن عجز ولا خيانة ... وإني لأعرف فضلك وأنك من المهاجرين الأولين ولكني أردتُ أن أصل قرابة عبد الله بن عامر...» كما ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى وابن عساكر في تاريخ دمشق.

## رابعاً: تعيين عبد الله بن سعد بن أبي السرح والياً على مصر[1]

هو عبدالله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري. وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة.

### خلفية ابن أبي السرح

من الضروري التذكير بأن هذا الشخص كان من أخبث رجالات قريش منذ القدم. فبخلاف غيره من سادة قريش الذين رفضوا دعوة محمد(ص) وحاربوه علناً وبكل صراحة، فضّل هو محاربة محمد(ص) بطريقة أخبث والأمر: فقد تظاهر بالإيمان بدعوة محمد(ص) وهو مستضعفٌ في مكة، وتقرّب منه إلى أن جعله من الذين يكتبون الوحي القرآني. وبعد ذلك ارتدّ وعاد إلى إخوانه في قريش ليقول لهم إن محمداً(ص) كذاب وليس نبيّ: فما يدري ما يقول! إني لأكتب له ما شئت!!

وليس هناك اختلافٌ يُذكر بين أصحاب السير والحديث والأخبار حول سيرة ابن أبي السرح. فمثلاً قال عنه ابن إسحق، صاحب السيرة، كما يروي ابن هشام: *أنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله(ص) الوحي، فارتدّ مشركاً راجعاً إلى قريش*. وذكر ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمته: *وكان يكتب الوحي لرسول الله (ص) ثم ارتدّ مشركاً وصار إلى قريش بمكة فقال لهم: إني كنتُ أصرف محمداً حيث أريد. كان يملي عليّ عزيز حكيم فأقول: أو عليم حكيم، فيقول: نعم كلٌ صوابٌ!!* وقال الواحدي في أسباب النزول، وقريبٌ منه ما رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، أن الآية (ومن

---

(1) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج4 ص[illegible])، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص[illegible])، أسباب النزول للواحدي (ص[illegible])، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص[illegible]) و(ج2 ص[illegible])، كتاب المغازي للواقدي (ج1 ص[illegible])، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص[illegible]) و(ج[illegible] ص[illegible])، الإصابة لابن حجر العسقلاني (ج4 ص[illegible])، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص190)، سنن النسائي (ج7 ص[illegible])، سنن أبي داود (ج1 ص[illegible])، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج2 ص[illegible])، الاستيعاب لابن عبد البر (ص[illegible])، الكامل لابن الأثير (ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج3 ص[illegible])، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص[illegible])، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص[illegible]).

قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قد أنزلت فيه، وذلك حين دعاه رسول الله (ص) ليكتب له آية خلق الإنسان حيث قال: فلئن كان محمد صادقا لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال. وارتدّ عن الإسلام» وروى الواقدي في كتاب المغازي أن ابن أبي السرح ارتدّ ورجع ليقول لقريش «ما كان يعلّمه إلاّ ابن قمطة، عبدٌ نصرانيّ. لقد كنتُ أكتب له فأحوّل ما أريدُ. فأنزل الله عز وجل «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسانٌ عربيّ مبين»(1)

وبسبب هذا الدور الشيطاني الخطير الذي لعبه ابن أبي السرح، قرر الرسول(ص) إعدامه يوم فتح مكة: روى ابن عساكر «قال رسول الله(ص): من وجد ابن أبي السرح فليضرب عنقه، وإن وجده متعلقا بأستار الكعبة»

وقد كان المسلمون حريصين جداً على تنفيذ الأمر النبوي بقتله، لولا أنّ عثمان بن عفان خبّأه ثم أتى به إلى النبي(ص) فجأةً ليشفعَ له، فألحّ عليه كثيرا إلى أن أحرجه فتركه وأعرض عنه.

وقد ورد في سنن النسائي وسنن أبي داود، واللفظ للأول، «لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله(ص) الناس إلاّ أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، عبد الله بن خطل، مقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح. فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيدٌ عماراً وكان أشبَّ الرجلين فقتله. وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر ...... وأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله(ص) إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي(ص).

قال: يا رسول الله بايع عبد الله!

قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى،

---

(1) الآية رقم 103 من سورة النحل.

فبايعه بعد ثلاث.

ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلاّ أومأتَ إلينا بعينك؟

قال: إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنة أعين»[1]

وبالرغم من طريقة إسلامه هذه إلا أن ابن أبي السرح لم يعدم من يتعاطف معه على قاعدة (عفا الله عما سلف)، ومن هؤلاء ابن عبد البر الذي قال عنه في الاستيعاب «حسُنَ إسلامه، فلم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك. وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش»

## عزل عمرو بن العاص

ورغم هذه الخلفية الحافلة لابن أبي السرح، لم يرَ الخليفة بأساً في تعيينه في منصب رفيع جداً وحساس.

ففي مصر عيّن عثمانُ عبدالله بن سعد بن أبي السرح حاكماً بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص عام 25 للهجرة[2]

والذي حدث أن عمرو بن العاص، الداهية والسياسي والقائد المشهور له، قد تعرّض إلى نكسة شديدة في عهد عثمان بن عفان. فقد أسفر صراعٌ باطنيّ، طويلٌ ومُعقد، بين عمرو بن العاص ورجل يماثله في الخلق: عبد الله بن أبي السرح، على أرض مصر، تواته المكائد والوشايات، عن انتصار الأخير، الذي لا شكّ استغلّ علاقته الوطيدة بالخليفة ،وكونه أخاه بالرضاعة. فقام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعيين ابن أبي السرح مكانه.

---

(1) سنن النسائي. وسنن أبي داود باب قتل الأسير لا يعرض عليه الإسلام. وكذلك رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق. والجزء الأول من الرواية ورد في المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري. وأيضاً وردت القصة بألفاظ مختلفة لدى ابن سعد في الطبقات الكبرى وابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر العسقلاني في الإصابة.
(2) أسد الغابة لابن الأثير

وكان عزل عمرو عن ولاية مصر قد تم على مرحلتين: الأولى كفُ يده عن مالية البلاد وتسليمها لابن أبي السرح. وطبعاً لن يستقيم أمر البلاد برأسين متنافسين ولا بد من إطاحة أحدهما. قال ابن الأثير في الكامل ضمن كلامه عن سنة 27 «في هذه السنة عُزِل عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستُعمِل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان أخا عثمان من الرضاعة. فتباغيا. فكتب عبد الله إلى عثمان يقول: إن عمرا كسر عليّ الخراج. وكتب عمرو يقول: إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب.

فعزل عثمان عمراً واستقدمه، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها[1]»

ولكن ابن عبد البر في الاستيعاب يذكر سبباً مباشراً لعزل ابن العاص «في سنة 25 انتقضت الاسكندرية، فافتتحها عمرو بن العاص، وقتل المقاتلة وسبى الذرية. فأمر عثمانُ بردّ السبي الذين سُبوا من القرى، ولم يصح عنده نقضهم. وعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن ابي السرح[2]»

وأنا لا أظن أن عثمان قد عزل ابن العاص عن ولاية مصر بسبب خطأ إداري معيّن كما توحي بذلك هذه الرواية الأخيرة لابن عبد البر وابن حبان واليعقوبي، بل المرجّح أن عثمان أراد حاكماً لمصر يدين له شخصياً بالولاء والطاعة، فكان ابن أبي السرح هو الحل. فابن أبي السرح يدين بحياته كلها لعثمان الذي أنقذه من حكم الإعدام الذي كان النبي(ص) قد أصدره عليه، وإخلاصه لشخص عثمان لن تشوبه شائبة.

أو لعل ما صنعه عمرو بن العاص في سبي الاسكندرية كان ذريعة اتخذها عثمان لتبرير قراره الذي كان مضمراً في نفسه.

وأما سيف بن عمر فإن روايته لتعيين ابن ابي السرح تحمل درجة من السخف تجعلها لا تستحق البحث الجدي. وفيما يلي ملخصها كما روى

---

(1) وهذه الرواية منقولة بالتأكيد من تاريخ الطبري التي وردت فيه مسندة «قال ابن عمرو حدثني اسامة بن زيد عن يزيد بن ابي حبيب»

(2) ومثل هذه الرواية وردت في كتاب الثقات لابن حبان وكذلك وردت في تاريخ اليعقوبي

ابن عساكر في تاريخ دمشق: وحسب قول سيف فإن المسألة كلها سببها ذلك الشخص اليهودي الشيطاني عبد الله بن سبأ! فابن سبأ قد رسم لأتباعه في مصر، وخاصة سودان بن حمران والغافقي وكنانة بن بشر، خطة جهنمية لزعزعة الأوضاع فيها. فقرر لهم أن يظهروا في البداية عمرو بن العاص ويكثروا الشكوى منه وأن يطالبوا بتعيين عبد الله بن أبي السرح مكانه! وأنهم ظلوا تلك الخطة إلى أن نجحوا في مساعيهم لدى عثمان بن عفان على خطوتين: فأولاً عيّن عثمانُ ابن أبي السرح على الخراج واستبقى عمراً على الصلاة بالناس. فسعى أتباع ابن سبأ بالإفساد بين ابن أبي السرح وابن العاص وأغروهما ببعضهما البعض! إلى أن نجحوا ثانياً وأخيراً في إقناع الخليفة بناء على إصرارهم، بتعيين عبد الله بن أبي السرح والياً مطلقاً على مصر!

واقتبس ابن كثير في البداية والنهاية جوهر الرواية وذكرها بدون سند ودون التصريح باسم عبد الله بن سبأ بل استبدله بلفظة (الخوارج) فقال عن عزل عمرو وتولية ابن أبي سرح «وكان سبب ذلك أن الخوارج من المصريين كانوا محصورين من عمرو بن العاص، مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير. فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألين منه. فلم يزل ذلك دأبهم حتى عزل عمراً عن الحرب وتركه على الصلاة، وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما، حتى كان بينهما كلام قبيح. فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها. وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك»

## خامساً: توسيع ولاية معاوية بن أبي سفيان[1]

في الشام وسّع عثمان صلاحيات معاوية، وهو واحدٌ من بني عمومته من بني أمية، وزاد في ولايته وجعلها تشمل كل بلاد الشام دمشق وحمص

---

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص157)، تاريخ الطبري (ج4 ص350)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص241)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص161)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص406) و (ج4 ص375)، فتوح البلدان للبلاذري (ج1)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص131)

والأردن وفلسطين وأضاف لها الجزيرة، بعد أن كانت تقتصر على دمشق أو بعض الشام بضعة أشهر، أيام عمر.

قال ابن كثير في البداية والنهاية أن يزيد بن أبي سفيان هو أول من تولى إمرة دمشق من المسلمين وذلك في زمن عمر، بعد أن كان أبو بكر قد وعده بذلك حين أرسله قائداً لأحد الجيوش الأربعة التي بعثها لفتح الشام، ولكنه توفي في طاعون عمواس القاتل ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق، فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك»

وذكر الطبري في تاريخه أسماء عمال عمر بن الخطاب على الولايات عند وفاته في أواخر سنة 23 للهجرة، وكان منهم «وعلى حمص عمير بن سعد[1]، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان»

وكذلك روى ابن حبان في كتاب الثقات عن عمال عمر لدى وفاته «وعلى حمص أعمالها عمير بن سعد الأنصاري، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان»

وقال اليعقوبي في تاريخه عن عمال عمر لدى وفاته «وعمير بن سعد الأنصاري على حمص، ومعاوية بن أبي سفيان على بعض الشام»

وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى عن معاوية «ولاه عمر بن الخطاب دمشق عمل أخيه يزيد بن أبي سفيان حين مات يزيد. فلم يزل والياً لعمر حتى قتل عمر رضي الله تعالى عنه. ثم ولاه عثمان بن عفان ذلك العمل وجمع له الشام كلها»

وروايات البلاذري في كتابه فتوح البلدان تفيد بأن عمير بن سعد كان قد تولى حمص والجزيرة لعمر بن الخطاب، وذلك بعد أن توفي واليها السابق

[1] ولقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن عمير بن سعد هو صحابيٌّ أنصاريٌّ كان أبوه قد شهد بدراً واستشهد في معركة القادسية. وذكر له بسنده خطبة تدل على حرصه على الرعية وعلى العدل والحق «كان يقول وهو أمير على المنبر على حمص، وهو من أصحاب النبي (ص): ألا إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق، فحائط الإسلام العدل وبابه الحق، فإذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان. وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل»

عياض بن غنم الذي كان له دور بارز في فتح منطقة الجزيرة، فقام عثمان بضم كل ذلك الى عمل معاوية.

والظاهر أن ولاية الشام قد استقرت أيام عمر بن الخطاب على اقليمين: جنوبيٌ ومركزه دمشق برئاسة معاوية ويشمل الأردن وفلسطين وجزء من لبنان، وشماليٌ مركزه حمص برئاسة عمير بن سعد الأنصاري ويشمل قنسرين والرقة وكل منطقة الجزيرة. روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الزهري *انتزع عثمان عميّر بن سعد وجمع الشام لمعاوية* ، وعنه أيضا *لم يزل معاوية بالشام حتى استخلف عثمان*.

مع العلم أن طلائع جيوش الفتح العربي التي أرسلها الخليفة أبو بكر الى الشام كانت مقسمة الى أربعة جيوش ولها أربعة اتجاهات: جند دمشق، جند الاردن، جند فلسطين وجند حمص، وكان لها أربع قادة. ولكن بعد نجاح الفتح استقرت الولاية على ما ذكرناه.

وثمة ملاحظة هنا: وهي ان معاوية كان هو الوحيد الذي استبقاه الخليفة عثمان من ولاة عمر بن الخطاب. وهو قام بتغيير عمال كل الولايات الأخرى ونزع عنها ولاة عمر. والمفارقة هنا ان عثمان كان يحتج على الذين يلومونه بسبب وضعية معاوية المميزة جدا في الدولة بقوله ان عمر قد ولاه! والسائل أن يسأل: ان عمر قد ولى أبا موسى الاشعري وعمرو بن العاص وغيرهم فلماذا استبدلهم عثمان اذن؟ ان استبقاء معاوية - الاموي - فقط من بين عمال عمر كان يدعم نظرية كارهي الخليفة الذين قالوا انه أراد أن يسيطر عائلته على كل مفاصل دولة الاسلام.

وبالاضافة الى توسيع حدود ولاية معاوية، غيّر عثمان أسلوب التعامل معه عما كان أيام عمر. فبعد أن كان عمر يحكم قبضته على كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحكم في الولايات كلها، لجأ عثمان إلى أسلوب تفويض الصلاحيات إلى الوالي. وسواء اتخذ عثمان هذا المنحى بسبب ضعف في شخصيته، أم بسبب صعوباتٍ موضوعية ناتجة عن بُعد المسافات وضخامة حجم الدولة، فالنتيجة واحدة وهي المزيد من اللامركزية في الإدارة والقرارات.

فتخلص معاوية، أخيراً، من شبح عمر المهيمن، وأصبح حراً طليقاً في ولايته الضخمة والغنية. فعدا عن المبلغ السنوي الذي يرسله معاوية من خراج الشام إلى مركز الخلافة في المدينة، صار معاوية مستقلاً بالفعل فيما يختص بشؤون الجيوش والإدارة والتجمعات العربية التي استوطنت الشام، والعلاقة مع أهل البلاد القدماء ومع دولة الرومان في الشمال.

واستغل معاوية قرابته من عثمان وصلاته العائلية به، في ترسيخ هيبته وسيطرته على مقاليد الأمور في الشام. فكان يقول لرعيته إن كل ما يأمر به ويقرره إنما هو أمر الخليفة وسياسته. ولم تكن هناك قنوات تواصل بين الخليفة في المدينة وبين الرعية في الشام، إلاّ من خلال معاوية. وبمرور الوقت، أخذ الناس في الشام يعلمون أن معاوية هو فقط من يعبّر عن مؤسسة الخلافة وينطق باسمها، ويمتلك صلاحية التقرير بالنيابة عنها.

وسوف يأتي لاحقاً الحديث عن الدور الذي صار معاوية يلعبه في أواخر عهد عثمان، وكيف تحوّل إلى الرجل القوي في الامبراطورية الاسلامية يلجأ له الخليفة عثمان عندما يريد أن يؤدب أحداً عارضه أو يقمع خطراً هدده.

## سادساً: والي اليمن يعلى بن أمية [1]

ولي اليمن كان رجل عثمان وواليه المخلص هو يعلى بن أمية (وهو أحياناً ينسبُ إلى أمه منية، فيقال له: يعلى بن منية). وعلى الرغم من أنه لم يكن من أقرباء عثمان، بل كان من قبيلة تميم، إلاّ أنه كان من حلفاء قريش في مكة، وكان كغيره من ولاة عثمان من الطلقاء ومسلمة الفتح.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن المدائني «استعمل أبو بكر الصديق يعلى بن أمية على بلاد حلوان في الردة. ثم عمل لعمر على بعض اليمن، فحمى لنفسه حمى، فبلغ ذلك عمر، فأمره أن يمشي على رجليه إلى المدينة، فمشى خمسة أيام أو ستة إلى صعدة، وبلغه موت عمر فركب، فقدم المدينة على عثمان رضي الله عنه، فاستعمله على صنعاء».

---

(1) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص755)، أسد الغابة لابن الاثير (ج5 ص523)، سير الصحابة للكاظمي (ج8 ص556)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص1058)، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد (ج15 ص239 - 244)

ثم قدم وافداً على عثمان، فمرّ عليّ على باب عثمان، فرأى بغلة جوفاء عظيمة فقال: لمن هذه البغلة؟ فقالوا: هي ليعلى. فقال: ليعلى والله!

وكان عظيم الشأن عند عثمان، وله يقول الشاعر:

إذا ما دعا يعلى وزيد بن ثابت    لأمر ينوب الناس أو لخطوب

وقال عنه ابن الأثير في أسد الغابة:

أسلم يوم الفتح. وشهد حنيناً والطائف وتبوك...

وهو حليف بني نوفل بن عبد مناف. واستعمله عمر بن الخطاب على بعض اليمن، واستعمله عثمان على صنعاء.

وقدم على عثمان، فمرّ علي بن أبي طالب على باب عثمان فرأى بغلة جوفاء عظيمة، فقال: لمن هذه البغلة؟ فقالوا: ليعلى. قال: ليعلى والله!

وكان ذا منزلة عظيمة عند عثمان.

وقول علي فليعلى والله! هو من قبيل الاستهجان والاستنكار المنزلة تلك العالية الرفيعة عند الخليفة.

ورغم تصريح ابن الأثير أنه شهد غزوات حنين والطائف وتبوك مع النبي(ص) بعد فتح مكة، إلا أن هناك ما يشير الى أنه كان يفعل ذلك معارلة، وأنه كان يتحين الفرص والأعذار للتخلف ما أمكنه ذلك. ومن ذلك ما ذكره الكاندهلوي في حياة الصحابة عن البيهقي أن يعلى بن منية رضي الله عنه قال: آذن رسول الله (ص) بالغزو، وأنا شيخ كبير ليس لي خادم فالتمست أجيراً، وأجري له سهمه، فوجدت رجلاً ...!

فكيف يكون يعلى شيخاً كبيراً بينما كان له دور ملحوظ في حرب الجمل بعد حوالي 25 عاماً؟ وكيف يكون بلا خادم وهو يقول انه استأجر رجلاً ليذهب مكانه للغزو مع النبي(ص)؟

وسوف يأتي الحديث عن دوره في التحضيرات لحرب الجمل لاحقاً.

وهناك رواية تقول بأن يعلى بن منيه كان هو بالذات سبباً في محاولة اغتيال تعرض لها عثمان بن عفان في السابق نتيجة لظلمه للناس. فقد جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري أن رجلاً أراد قتل عثمان بالخنجر

فكمن له ولكنه فشل في محاولته وقبض عليه، ولما سأله عثمان عن السبب الذي دفعه لقتله أجابه: (قلتني ملكت باليمن) فأمر به عثمان فبقي في الحبس حتى مات.

ورغم أنني لم أجد هذا الخبر في مصدر آخر، إلا أن علاقة يعلى الوطيدة الوطيدة بالخليفة هي أمر مؤكد وكذلك اختلاؤه من جبيه الرفيع في زمان عثمان، وقد أشار معاوية بن أبي سفيان في رسالة منه إلى يعلى بعد مقتل عثمان أن من المآخذ التي عيبت على عثمان تعيينه يعلى على اليمن لفترة طويلة. وفيما يلي نص الرسالة كما ذكرها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

«وكتب إلى يعلى بن أمية: حاطك الله بكلاءته، وأيدك بتوفيقه. كتبت إليك صبيحة ورد علي كتاب مروان يخبرني بمقتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه. وإن أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه، وثقلت نهضته، وظهرت الرعشة في أعضائه، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعا للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به وألبوا عليه، فكان أعظم ما نقموا عليه وعابوه به، ولايتك اليمن وطول مدتك عليها. ثم ترامى بهم الأمر حالا بعد حال حتى ذبحوه ذبح النطيحة .....

واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حسبه ...».

وكان جواب يعلى: «وكتب إليه يعلى بن أمية: إنا وأنتم يا بني أمية كالحجر لا يبنى بغير مدر، وكالسيف لا يقطع إلا بضاربه. وصل كتابك بخبر القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة يراد بها الموت لينحرن ذابحه نحر البدنة وافى بها الهدي الأجل، ثم لتكلفني من أنا ابنها إن نمت عن طلب وتر عثمان، أو يقال: لم يبق فيه رمق! إني أرى العيش بعد قتل عثمان مرا، إن أدلج القوم فإني مدلج، وأما قصدهم ما حوته يدي من المال، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان، وإن أبوا ذلك أنفقنا المال على قتالهم، وإن لنا ولهم لمعركة نتناحر فيها نحر القدار النقائع عن قليل تصل لحومها ...».

*****

## كلمة بشأن أهلية وكفاءة ولاة عثمان[1]

لا بد من الاشارة الى خطأ يقع فيه الكثيرون، ممن تدهشهم وتثير استنكارهم قرارات الخليفة عثمان بتعيين أقربائه الاصغين الذين بعضهم شبانٌ بلا خبرة في تلك المناصب المهمة. والخطأ يتمثل في القفز للاستنتاج بأن هؤلاء الولاة كانوا مجموعة من التافهين وعديمي الكفاءة الذين انصرفوا الى اللهو والدعة. وربما يكون في بعض سلوكيات وممارسات هؤلاء الولاة وخاصة الوليد بن عقبة، ناهيك عن تحدرهم من العائلة الأموية الغنية والارستقراطية، ما يدفع الى ذلك الاستنتاج.

ولكن ذلك الاستنتاج ليس صحيحاً.

فاذا تجاوزنا النظر الى الأمور من الزاوية الدينية الشرعية المحضة، أو الأخلاقية والروحية، سنجد أن عمال عثمان هؤلاء كانوا في الحقيقة أصحاب قدرات قيادية مميزة. بل أكثر من ذلك فهم يستحقون الثناء والتقريظ على نجاحهم في قيادة الجيوش والغزوات، وإدارة الرجال والمقاتلين، وقوتهم في مواجهة أشرس الأعداء والانتصار عليهم في الميدان، وعلى جرأتهم وذكائهم.

فرغم فساد أخلاقه وسوء سلوكه، إلا أنه لا ينبغي الاعتقاد بأن الوليد بن عقبة بن ابي معيط كان رخواً أو متقاعساً عن أداء مهام منصبه الأساسية. فهو كان يقوم بمسؤولياته في تنظيم القوات ومتابعة الفتوحات. وهو قاد الجيش الذي هاجم آذربيجان وأرمينيا سنة 26 للهجرة وعاد من هناك ظافراً بعد أن هزمت قواته أهلها، كما ذكر الطبري في تاريخه. فالوليد كان له سهمٌ ظاهرٌ في الفتوح وقتال الأعاجم. وروى البلاذري في فتوح البلدان أن الوليد بن عقبة لما تولى غزا الديلم مما يلي قزوين، وغزا اذربيجان وغزا جيلان وموقان، والببر، والطيلسان.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص307)، فتوح البلدان للبلاذري (ج2 ص399)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص272)، أسد الغابة لابن الأثير (ج5 ص310) و (ج5 ص291 + ص479)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج21 ص34-379)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص77)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص136) و النزاع والتخاصم للمقريزي (ص37).

وبشأن سعيد بن العاص، ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أسد الغابة :

«استعمله عثمان على الكوفة. وغزا بالناس طبرستان فافتتحها. ويقال إنه افتتح أيضاً جرجان في زمن عثمان سنة 29 أو سنة 30» وروى البلاذري في فتوح البلدان ان سعيد بن العاص أيضاً «غزا الديلم ومصّر قزوين، فكانت ثغر أهل الكوفة وفيها بنيانهم»

وأما عبد الله بن عامر فقد قال عنه ابن الأثير في أسد الغابة «افتتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وهي أعمال غزنة. أرسل الجيوش ففتح عليه الفتوح كلها. وفي ولايته قتل كسرى يزدجرد، فأحرم ابن عامر من نيسابور بعمرة وحجة شكر الله عز وجل على ما فتح عليه»

وكذلك فإن عبد الله بن سعد بن أبي السرح، كانت له صولات وجولات في الغزو والقتال. وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق تفاصيل حملاته التي نوجزها كما يلي :

فهو قائد الجيش الذي توغّل في إفريقية سنة 27 للهجرة حتى وصل القيروان وعاد ظافراً.

ثم إنه غزا النوبة والسودان والحبشة سنة 31 للهجرة

كما انه كان قائد غزوة ذات الصواري البحرية الفتكية التي ألحق فيها المسلمون هزيمة مدوّية بالرومان وأسطولهم البحري سنة 34 للهجرة.

وقال عنه ابن الأثير في اسد الغابة «... وكان على ميمنة عمرو بن العاص لما افتتح مصر وفي حروبه هناك كلها

.... ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة كذا ففتح الله على يديه افريقية، وكان فتحاً عظيماً بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف مثقال ذهباً وسهم الرجل ألف مثقال

... وغزا عبد الله بن سعد بعد افريقية الاساود من أرض النوبة سنة احدى وثلاثين وهو الذي هادنهم الهدنة الباقية الى اليوم

وغزا غزوة الصواري في البحر الى الروم»

وأما معاوية بن أبي سفيان فقد كان مشاركاً في حركة الفتوحات في الشام منذ بداياتها وخبرته في هذا المجال طويلة. ومؤهلاته وقدراته الفذة في القيادة والادارة والتخطيط مشهورة ومعروفة.

فولاة عثمان هؤلاء كانت لهم مهمة أساسية أرسلهم عثمان لتنفيذها وهي متابعة حركة الفتوحات التي كانت أيام عمر بن الخطاب. ويبدو أن هذا كان معيار النجاح والفشل بنظر الخليفة. وهم كانوا يدركون ذلك فصرفوا جهدهم في اتجاه الحملات العسكرية التي كانوا يباشرونها بأنفسهم حيناً وعن طريق قادة يختارونهم أحياناً أخرى.

وعلى الصعيد الشخصي، وبعيداً عن مقاييس التقوى والورع والإيمان، كان هؤلاء أهل كفاية وثقافة. فالوليد بن عقبة كان شاعراً وصاحب بلاغة وقوي الشكيمة. وسعيد بن العاص كان كذلك فصيحاً إلى الحد الذي جعل عثمان يضمه الى لجنة نسخ المصحف. وابن عامر كان كريماً وقوي الشخصية. وكان ابن أبي السرح ذكياً ومتسلطاً وقوياً.

والعائلة الأموية بأجمعها كانت متطلعة وقتية وذات نفوذ قديم. فلا عجب أن يكون أبناؤها مؤهلين للمناصب القيادية.

وسوف تثبت مجريات الأحداث كيف كان هؤلاء فعّالين ومؤثرين في الصراع الكبير الذي خاضوه ضد الامام علي بقيادة معاوية.

لقد كان بنو أمية على أتم استعداد وجاهزية لاقتناص الفرصة الذهبية التي يوفرها لهم الخليفة عثمان. لتفتح الأبواب أمامهم وأشرعت للوصول إلى قمة الهرم ومفاصل الحكم والإدارة في الدولة، ولم يكونوا في وارد إضاعة هذه الفرصة الثمينة التي ربما لا تتكرر. وكانت القيادات الأموية من العناصر الشابة، الذكية والقوية تعلم أن شيخها لن يدوم لها طويلاً. فعثمان رجل عجوز وبالتالي ينبغي التصرف بسرعة وتركيز من أجل تحقيق أكبر قدر من الاستفادة من الموارد اللامحدودة والهائلة التي تتدفق على خزينة الدولة، والتي أصبحت فعلياً بين أيديهم. ونجح الأمويون وبالأخص معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم في السيطرة تماماً على أجهزة الحكم في الدولة: الإدارية

والتنظيمية والعسكرية، وقاموا ببناء شبكة واسعة من القيادات الصف الثاني المرتبطة مصلحياً وعضوياً بهم، لتعمل معهم وفي خدمتهم. وفي كل بلاد المسلمين، أوجد الأمويون طبقة تدين لهم بالولاء ولا ترى مستقبلها إلا معهم ولا تعرف رؤساء لها سواهم، وسواء اتفق الخليفة مع مخططات وطموحات القيادات الأموية أم لم يتفق، فإن قدوة هؤلاء، مؤكدة على تورط عثمان، إن هو أبدى بعض التحفظ والممانعة في الانسياق وراء تحقيق الأحلام الأموية. وذلك الذي حدث. فقد تمكن الاتجاه الأموي من شلّ الخليفة والاستحواذ على القرار بشكل كامل.

ولذلك كله لم يتورع مروان بن الحكم، في أواخر أيام عثمان من قولها علانية: إنه المُلك الأمويّ الصريح!

فقد قال مروان أمام حشود المتمردين من أهل الكوفة والبصرة ومصر:

«جئتم تريدون أن تنزعوا مُلكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم أمر يسوؤكم. ولا تحمدوا غبّه. ارجعوا إلى منازلكم، فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا»[1].

ينظر مروان فإن دولة بني أمية قد كانت بالفعل، وهو ونظراؤه لن يفرطوا بها!

وبعد ذلك، فنا لا أستبعد أن تكون رواية ابن أبي الحديد والمقريزي صحيحة:

«قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مرّ بقبر حمزة، وضربَه برجله وقال: يا أبا عمارة: إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به»[2].

فقولٌ كهذا ليس غريباً على شخصية أبي سفيان.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير
(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص136). وفي رواية المقريزي ط ص27 من النزاع والتخاصم إضافة على لسان أبي سفيان فركلها الحق به من تيم وعدي».

الجزء الثاني:

# معارضة عثمان في أوساط الصحابة

يموت به لمرض ألمّ به «والله يا أبا الحسن ما أدري أأشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟ فوالله لئن مت لا أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأني لا أجد منك خلفاً، ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلماً وعضداً، ويعدك كهفاً وملجأً، لا يمنعني منه إلاّ مكانه منك، ومكانك منه. فأنا منك كالابن العاق من أبيه: إن مات فجعه، وإن عاش عقه! فإما سلمٌ فنسالم، وإما حربٌ فنحارب، فلا تجعلني بين السماء والأرض، فإنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفاً، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً. ولن يلي أمر هذه الأمة بادئ فتنة»

وهذا النص يظهر حيرة عثمان الحقيقية تجاه علي، فهو لا يدري ماذا يفعل تجاهه، فاكتفى بتحذيره من الفتنة.

## أسباب الخلاف

### أولاً: معارضة علي لتسليم قيادة دولة الإسلام لبني أمية

فالظاهر أن السبب الرئيسي وراء غضب علي الشديد كان التعيينات التي قام بها عثمان لأقاربه في قيادة الدولة، وسياساتهم التي طبقوها.

وفي نهج البلاغة لخّص عليٌّ ببلاغته الفريدة موقفه من عثمان ورهطه من بني أمية. فقال عن عثمان في خطبته الشقشقية المشهورة «... إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نَثيلِه ومُعتَلَفِه. وقام معه بنو أبيه يَخضمون مالَ الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتلُه، وأجهز عليه عملُه، وكبت به بطنتُه...»(1)

ومن المفيد التأمل بالنص التالي الذي أورده الطبري في تاريخه من رواية للواقدي، وفيه تظهر حيرة علي وإحباطه الشديد من عثمان وسياساته التي لا يرى لها سبباً مقنعاً. وكان موضوع ولاة عثمان، وبالأخص معاوية وابن

---

(1) نافجاً حضنيه: رافعاً لهما. والحضن: ما بين الإبط والكشح. يقال للمتكبر: جاء نافجاً حضنيه. ويقال مثله لمن امتلأ بطنه طعاماً. والنثيل: الروث. والمعتلف: موضع العلف. والخضم: الأكل بأقصى الأضراس أو ملء الفم بالمأكول. انتكث فتله: انتقض. والبطنة: البطر والأشر والإسراف في الشبع. وكبت به: من كبا الجواد إذا سقط لوجهه.

عام، من الأمور التي يلوم عليُّ بن أبي طالب على عثمان بشأنها ويطالبه بعزل هؤلاء. وفيما يلي الحوار :

قال علي لعثمان: فوالله ما أدري ما أقول لك! وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلمه ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله (ص) ونلت صهره. وما ابن ابي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك. وإنك أقرب الى رسول الله (ص) رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله (ص) ما لم ينالا، ولا سبقاك الى شيء.

فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة.

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدي وهدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة، فوالله إن كلا لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعت رسول الله (ص) يقول: يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في قعرة جهنم.

وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الامة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الامة إمام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً.

فقال عثمان: قد والله علمتُ ليقولن الذي قلت! أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبتُ عليك ولا جئتُ منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي.

أنشدك الله يا علي: هل تعلم ان المغيرة بن شعبة ليس هناك؟

قال: نعم.

قال: فتعلم أن عمر ولاه؟

قال: نعم.

قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟

قال علي: سأخبرك! أن عمر بن الخطاب كان كل من ولّى فإنما يطأ على صماخه. إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفعل. ضعفت ورفقت على أقربائك.

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً!

فقال علي: لعمري أن رحمهم مني لقريبة. ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته.

فقال علي: أنشدك الله! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟

قال: نعم.

قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها. فيقول للناس: هذا أمر عثمان. فيبلغك ولا تغير على معاوية»[2]

ومن المهم ملاحظة إصرار عثمان على موضوع صلة الرحم في تبرير تلك التعيينات، بالاضافة الى القول بأن عمر بن الخطاب كان قد استعمل أشخاصاً ليسوا ذوي أهلية إسلامية، بل أصحاب كفاءات إدارية والمستشهد على ذلك بالمغيرة بن شعبة، الذي يتفق كلاهما على أنه ساقط من الناحية الدينية (بتعبير عثمان: ليس هناك) وأشار الى أن عمر ولّى معاوية خلافته. مما اضطر علياً لتوضيح الفارق بين عمر وعثمان في التعامل مع الولاة.

(٢) وقد أخرج ابن كثير في البداية والنهاية هذه الرواية عن الواقدي في سياق كلامه عن سنة ٣٤ للهجرة، حين كثر كلام الناس وانتقادهم لعثمان فطلبوا من علي أن يكلم عثمان.

### ثانياً: اعتراض علي على سياسة عثمان تجاه مجموعة من الصحابة غير القرشيين وبطشه بهم

وكان ما أظهره عثمان من بطش وقسوة تجاه الصحابة من ذوي الأصول المتواضعة الموالي وذوي الأصول غير القرشية الذين أوقع بهم عثمان عقاباً معنوياً ومالياً بل وجسدياً عنيفاً لأنهم واجهوه وأعلنوا رفضهم لمناهجه، مما يفاقم من المشاكل بين علي وعثمان، لأن علياً كان يدافع عنهم بحرارة وخاصة أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود.

أخرج ابن أبي الحديد رواية عن الواقدي وفيها أن عثمان لما أحضر أبا ذر الغفاري من الشام وتبادل معه كلاماً حاداً، التفت إلى الحضور وقال: *أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه أو أحبسه أو أقتله، فإنه فرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام.*

فتكلم علي عليه السلام -وكان حاضراً- فقال: *أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون (فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم. إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب).*

*فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه علي عليه السلام بمثله.*

*ولم نذكر الجوابين تذمماً منهما!*

ولا يخفى ان تشبيه علي لأبي ذر بمؤمن آل فرعون فيه ذم شديد للسلطة الحاكمة ورئيسها عثمان، الذي فهم المغزى ورد على عليّ بجواب مقذع استبشعه ابن ابي الحديد.

روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ضمن كلامه عن حادثة نفي ابي ذر الغفاري من المدينة المنورة ان علياً وآل بيته قد خرجوا لوداع ابي ذر رغم نهي عثمان عن ذلك. ولما تصدى مروان بن الحكم لتنفيذ أمر الخليفة وحاول أن ينهى علياً عن وداع ابي ذر، غضب علي وضرب وجه راحلة مروان بالسوط وطرده، وأثار ذلك غضب عثمان فرجع القوم إلى المدينة فيه علي عليه السلام إلى عثمان.

فقال له: ما حملك على ردّ رسولي وتصغير أمري؟

فقال علي عليه السلام: أما رسولك، فأراد أن يردّ وجهي فرددته، وأما أمرك فلم أصغّره.

قال: أما بلغك نهيي عن كلام أبي ذر؟!

قال: أوَكلما أمرتَ بأمرِ معصيةٍ أطعناك فيه؟!

قال عثمان: أقِدْ مروان من نفسك.

قال: مم ذا؟

قال: من شتمه وجذب راحلته.

قال: أما راحلته فراحلتي بها، وأما شتمه إياي فوالله لا يشتمني شتمة إلاّ شتمتك مثلها، لا أكذب عليك.

فغضب عثمان وقال: لم لا يشتمك؟ كأنك خيرٌ منه؟

قال علي: إي والله، ومنك! ثم قام فخرج.

فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بني أمية، يشكو إليهم عليّاً عليه السلام. فقال القوم: أنت الوالي عليه، وإصلاحكم أجمل. قال: وددتُ ذلك.

فأتوا عليّاً عليه السلام فقالوا: لو اعتذرت إلى مروان وأتيته؟

فقال: كلا! أما مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه، ولكن إن أحبّ عثمانُ أتيته.

فرجعوا إلى عثمان فأخبروه، فأرسل عثمان إليه، فأتاه ومعه بنو هاشم.

فتكلم علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما ما وجدتَ عليَّ فيه من كلام أبي ذر ووداعه، فوالله ما أردتُ مساءتك ولا الخلاف عليك، ولكن أردتُ به قضاء حقه. وأما مروان فإنه اعترض يريد ردّي عن قضاء حق الله عز وجل، فرددته ردّ مثلي مثله. وأما ما كان مني إليك، فإنك أغضبتني، فأخرج الغضب مني ما لم أرده.

فتكلم عثمان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما ما كان منك إليّ فقد وهبته لك. وأما ما كان منك إلى مروان فقد عفا الله عنك، وأما ما حلفتَ عليه فأنت البر الصادق. فادنُ يدك. فأخذ يده فضمها إلى صدره.

ويروي المسعودي في مروج الذهب تفاصيل أكثر عن الغضب المتبادل بين الخليفة وعلي بسبب تشييعه لأبي ذر فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من علي؟ ردّ رسولي عما وجهته له وفعل كذا. والله لنعطينه حقه.

فلما رجع علي استقبله الناس فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غاضب لتشييعك أبي ذر.

فقال علي: غَضَب الخيل على اللُّجُم!

فلما كان بالعشي جاء إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ما صنعتَ بمروان؟ ولمَ اجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟

قال: أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردّي. وأما أمرك فلم أرده.

قال عثمان: ألم يبلغك أني قد نهيتُ الناس عن أبي ذر وعن تشييعه؟

فقال علي: أوَكلّ ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل!

فقال عثمان: أقِدْ مروان.

قال: ومم أقيده؟

قال: ضربتَ بين أذني راحلته (وشتمته، فهو شاتمك وضاربٌ بين أذني راحلتك).

قال علي: أما راحلتي فهي تلك، فإن أراد أن يضربها كما ضربتُ راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا.

قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه!

فخطب علي بن أبي طالب وقال: ألي تقول هذا؟! ويمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، ولأبي أفضل من أبيك، ولأمي أفضل من أمك! وهذه نبلي قد نثلتها، وهلمّ فانثل نبالك!

فغضب عثمان واحمرّ وجهه، فقام ودخل داره. وانصرف علي، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليّاً وقال: إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما. فدخل الناس بينهما (حتى اصطلحا) وقال له علي: والله ما أردتُ بتشييع أبي ذر إلا الله تعالى»

وكذلك حصل خلافٌ بين الرجلين بشأن عبد الله بن مسعود، فعندما أوقع عثمان عقاباً جسدياً على ابن مسعود بسبب مشكلة[1] مع الوليد بن عقبة تصدى له علي ولامه على ذلك. روى البلاذري في أنساب الأشراف أنه لما استدعى عثمان ابن مسعود من الكوفة تبادل معه كلاماً قاسياً «... ثم أمر به عثمان فأخرج من المسجد اخراجاً عنيفاً، وضرب به عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأرض، ويقال بل احتمله يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدقّ ضلعه.

فقال علي: يا عثمان أتفعلُ هذا بصاحب رسول الله(ص) بقول الوليد بن عقبة؟!

فقال: ما بقول الوليد فعلتُ هذا، ولكن وجّهتُ زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة فقال له ابن مسعود: إن دم عثمان حلال!

فقال علي: أحلتَ عن زبيد على غير ثقة ..... وقام علي بأمر ابن مسعود حتى أتى به منزله ...»

---

(1) سيأتي الحديث مفصلاً حول ابن مسعود ومشاكله مع عثمان والوليد

## وجهة نظر عثمان في سبب معارضة عليّ له، وردة علي

روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس ان عثمان زار العباس بن عبد المطلب شاكيا وقال له فأما بعد فإني جئتك استعذرك من ابن أخيك علي: سبّني وشهر أمري، وقطع رحمي، وطعن في ديني، وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب! إن كان لكم حق تزعمون انكم غلبتم عليه، فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب إليكم رحماً منه، وما لمتُ منكم احداً إلاّ عليا، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه فتركته لله والرحم، وأنا أخاف ألاّ يتركني فلا أتركه»

وقد خصص ابن ابي الحديد فصلا في شرح نهج البلاغة للحديث عما شجر بين علي وعثمان ايام خلافته، ذكر فيه روايات عديدة عن الزبير بن بكار في الموفقيات، وأبي العباس المبرد في الكامل، والجوهري في السقيفة، والواقدي في الشورى، وعن الجاحظ، وعن ابي سعد الآبي.

وهذه الروايات تتكامل لتظهر مدى التوتر الذي كان يميز علاقتهما، والغضب المتبادل والمطاعن التي كان كل منهما يذكرها عن الآخر. ويظهر فيها عثمان وهو يشكو مُرّ الشكوى من علي الذي يعتبره رأس الطاعنين عليه وحاسدا له متجرأ عليه رغم قرابته. وكان عثمان يقول انه ليس ذنبه ان قريشا لا تحب عليا وتوضح الروايات ان عثمان لجأ في احيان كثيرة الى طلب وساطة خاله[1] العباس، واحيانا عبد الله بن العباس، من اجل ان يكف علي عنه. وتذكر الروايات دفاع ابن عباس عن علي وقوله لعثمان ان عليا ليس مصدر الطعن عليه بل هو يقول مثل ما يقوله الناس بشأن سياسة الخليفة. وفي هذه الروايات يظهر فيها عمار بن ياسر كرجل علي، اللصيق به، والمحرّض على عثمان الذي كان يضربه بعلته ويتوعده. وفي مقابل عمار بن ياسر، يلعب مروان بن الحكم دورا مناظراً في جانب عثمان، فيحرضه هو وبنو امية على علي وعمار.

---

(1) العباس هو خال عثمان مجازاً لأنه ليس أخا أمه بل أخو جدته، فأم عثمان هي أروى بنت كريز – من بني عبد شمس. ولكن أمها – أي جدة عثمان – هي البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم وقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف أنها كانت التوأم لعبدالله والد النبي (ص). ولذلك كان عثمان كثيراً ما يخاطب العباس بصيغة الخال.

وإنما هنا نختار رواية الواقدي لأنها توضح فكرة عثمان بأن علياً لم يخالف أبا بكر وعمر بينما يخالفه هو رغم أنه انتقد رأييهما. ويظهر أن موقف علي كان نابعاً مما يراه سياسة ظالمة للمسلمين عامة وليس له خاصة ولهذا هو لا يسعه السكوت:

«عن ابن عباس رحمه الله قال: شهدتُ عتاب عثمان لعلي عليه السلام يوماً،

فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً، فعهدي بك وأنت تطيع عتيقاً وابن الخطاب طاعتك لرسول الله(ص)، ولستُ بدون واحدٍ منهما، وأنا أمسّ بك رحماً، وأقرب إليك صهراً. فإن كنتَ تزعم أن هذا الأمر جعله رسول الله(ص) لك، فقد رأيناك حين توفي نازعتَ ثم أقررتَ.

فإن كانا لم يركبا من الأمر جدداً، فكيف أذعنتَ لهما بالبيعة وبخعتَ بالطاعة؟ وإن كانا أحسنا فيما وليا، ولم أقصر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنتَ لهما.

فقال علي عليه السلام: أما الفرقة فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، وأسهل إليها سبيلاً، ولكني أنهاك عما ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك.

وأما عتيق وابن الخطاب، فإن كانا أخذا ما جعله رسول الله(ص) لي فأنت أعلم بذلك والمسلمون. وما لي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين.

فأما ألا يكون حقي بل المسلمين فيه شرع، فقد أصاب السهم الثغرة.

وأما أن يكون حقي دونهم، فقد تركته لهم طبتُ به نفساً، ونفضتُ يدي منه استصلاحاً.

وأما التسوية بينك وبينهما، فلستَ كأحدهما: إنهما وليا هذا الأمر، فظلفا أنفسهما وأهلهما عنه، وعُمتَ فيه وقومك عوم السابح في اللجة!

فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عمرك إلا كظمء الحمار؟ فحتى متى وإلى متى؟! ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتبى! وأفعل وأعزل من عمالي كل من تكرهه ويكرهه المسلمون.

ثم افترقا. فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك وقال: يجترأ عليك الناس، فلا تعزل أحداً منهم!

## مشاجرات ووساطات

ويبدو أنه كثيراً ما كانت تتطور الأمور بين علي وعثمان الى مشاجرات حادة، خاصة بعد وفاة العباس، مما يستدعي تدخل وسطاء آخرين بينهما.

ورد في نهج البلاغة عرض كلام له عليه السلام وقد وقعت بينه وبين عثمان مشاجرة، فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة: يا ابن اللعين الأبتر، أنت تكفيني! فوالله ما أعز الله من أنت ناصره، ولا قام من أنت منهضه. أخرج عنا أبعد الله نواك ثم ابلغ جهدك. فلا أبقى الله عليك إن أبقيت!»

وشرح ابن أبي الحديد هذا الكلام على النحو التالي:

المغيرة بن الاخنس بن شريق الثقفي: كان أبوه من كبار المنافقين الذين أسلموا كرها يوم الفتح، فأعطى أبوه مائة من الابل من النبي(ص) مع غيره من المؤلفة قلوبهم. والمغيرة حاقد على الامام علي الذي قتل بنفسه أخاه أبا الحكم بن الاخنس يوم أحد كافرا

وقد قال له علي: يا ابن الابتر لأن من كان عقبه ضالا خبيثا فهو كمن لا عقب له، بل من لا عقب له خير منه»

قال ابن أبي الحديد «واعلم ان هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، ولكن عوانة روى عن اسماعيل بن ابي خالد، عن الشعبي: ان عثمان لما كثرت شكايته من علي عليه السلام، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله(ص) أحدٌ إلاّ شكا اليه عليا.

فقال له زيد بن ثابت الأنصاري - وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشي إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك. قال: بلى، فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي - وعداده في بني زهرة، وأمه عمة عثمان بن عفان - في جماعة، فدخلوا عليه

فحمد زيد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله قدم لك سلفا صالحا في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك، ووالي هذه الأمة، فله عليك حقان: حق الولاية وحق القرابة. وقد شكا إلينا أن عليا يعرض لي، ويرد أمري علي. وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما.

قال: فحمد علي عليه السلام الله، وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أما بعد فوالله ما أحب الاعتراض، ولا الرد عليه، إلا أن يأبى حقا لله لا يسعني أن أقول فيه إلا بالحق. ووالله لأكفن عنه ما وسعني الكف.

فقال المغيرة بن الأخنس - وكان رجلا وقاحا، وكان من شيعة عثمان وخلصائه: إنك والله لتكفن عنه أو لنكفنك، فإنه أقدر عليك منك عليه! وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين إعزازا لتكون له الحجة عندهم عليك.

فقال له علي عليه السلام: يا ابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفني! فوالله ما أعز الله من أنت ناصره. أخرج أبعد الله نواك، ثم اجهد جهدك. فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيتم!

فقال له زيد: إنا والله ما جئناك لنكون عليك شهودا، ولا ليكون ممشانا إليك حجة، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر أن يصلح الله ذات بينكما، ويجمع كلمتكما. ثم دعا له ولعثمان. وقام فقاموا معه.

وهذا الخبر يدل على أن اللفظة (أنت تكفني)، وليست كما ذكره المرتضى

رحمه الله (أنت تكلفيني)، لكن الرضي طبق هذه اللفظة على ما قبلها، وهو قوله (أنا أكفيكه). ولا شبهة أنها رواية أخرى[1]

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر رواية عن صهيب مولى العباس بن عبد المطلب قال: أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه، فأتيته فإذا هو يغدي الناس فدعوته.

فأتاه فقال: أفلح الوجه أبا الفضل!

فقال العباس: ووجهك يا أمير المؤمنين.

فقال عثمان: ما زدتُ إذ أتاني رسولك وأنا أغدي الناس فغديتهم ثم أقبلتُ.

قال له العباس: أذكرك الله في علي ! فإنه ابن عمك وأخوك في دينك وصاحبك مع رسول الله (ص) وصهرك. فإنه قد بلغني أنك تريد أن تقوم بعلي وأصحابه، فأعفني من ذلك يا أمير المؤمنين.

فقال عثمان: إن أول ما أجيبك به أن قد شفعتك. إن علياً لو شاء ما كان أحدٌ دونه، ولكنه أبى إلاّ رأيه!

قال ثم بعث العباس إلى علي فقال له (أحسبه قال): أذكرك الله في ابن عمك وابن عمتك وأخيك في دينك وصاحبك مع رسول الله (ص) وولي بيعتك.

قال علي: والله لو أمرني أن أخرج من داري لخرجتُ ! فأما أداهن أن لا يقام بكتاب الله فلم أكن لأفعل.

ولم يكن العباس ليتدخل عارضاً وساطته لولا شعوره بمدى تدهور العلاقة بين علي وعثمان. ويلاحظ هنا قول عثمان إنه لو شاء عليٌ لكان أقرب الناس إليه ولكنه أبى إلاّ رأيه ورأيه هنا لا شك أنه منحازٌ ضد الخليفة

(1) ورواية ابن أبي الحديد الأخيرة هذه التي أسندها إلى الشعبي أخرجها أيضاً ابن أعثم الكوفي بإسناده الجمعي في كتاب الفتوح بنفس العبارات تقريباً وفيها كلام الصحيفة الرقيع الموجه إلى علي مرة! لكفتني ما كنت أو أبيت، وصر والله أكثر عليك منك علي!

وسياسته وبطانته مما جعل العباس يشعر انه فيريد ان يقوم بعلي واصحابه. كما يلاحظ فشل وساطة العباس بسبب رفض علي للمجاملات وإصراره على المبدأ: فهو لن يداهن في كتاب الله. فعلي يريد تغييراً جدياً في سياسة الخليفة، ولن يقبل ما دون ذلك.

## ردود فعل عثمان على مواقف عليّ

ولكن عثمان، مع استيائه وغضبه، لم يكن ليستطيع ان يوقع عقاباً مباشراً بعليّ، هذا عن تهميشه وتجاهله. وقد روى ابن عساكر أن الناس كانوا يأتون علياً ليشكوا إليه ولاة عثمان، فكتب عليّ صحيفة وأرسلها إلى عثمان فردّها ولم يستجب.

ففي تاريخ دمشق لابن عساكر روايات حول خلافات علي وعثمان :

واحدة عن محمد بن علي بن ابي طالب (ابن الحنفية) يقول فيها ان ان اباه أرسله بكتاب يتضمن شكاوى الناس من جباة عثمان وسعاته فرده ولم يستجب «كان الناس أتوا علياً يشكون اليه سعاة عثمان.

فأرسلني أبي فقال: يا بني: خذ هذا الكتاب، فإن فيه عشر النبي (ص) والصدقة. فاذهب به الى عثمان.

قال فأتيته فأخبرته به.

فقال: أطلقني فلا حاجة لنا به!

فأتيت أبي فأخبرته فقال: لا عليك. ضعه حيث أخذته»

وقد تدخل أحد الرواة لتأويل موقف عثمان، الرافض لقبول كتاب علي ومطالبته لعثمان بالالتزام بسياسة النبي (ص): «قال سفيان: ونرى ان عثمان انما رده ان عنده من ذلك علماً، فاستغنى عنه»

وهنا يلاحظ كيف كان الكثيرون يلجأون لعلي بالشكوى لبث شكاواهم. ولا شك ان ذلك لثقتهم به وبانحيازه الحازم للحق، وربما أيضاً لنفورهم من الخليفة ومن بطانته.

وكان عثمان في بعض الأحيان يتجاوب مع طلبات علي ومساعيه خاصة إذا لم يكن الأمر ذا خطر. ومثال ذلك ما رواه ابن أعثم في كتاب الفتوح حول تدخل علي للحيلولة دون ضرب الرسول الذي حمل كتاب شكوى وتظلم من أهل الكوفة إلى عثمان، وهو من قبيلة عنزة فأمر عثمان بالعنزي، فجردوه من ثيابه ليضرب.

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لماذا يضرب هذا الرجل؟ إنما هو رسول جاء بكتاب وأبلغك رسالة حملها، فلم يجب عليه في هذا ضرب.

فقال عثمان رضي الله عنه: أفترى أن أحبسه؟

قال: لا، ولا يجب عليه الحبس.

قال: فخلى عثمان عن العنزي، وانصرف إلى الكوفة، وأصحابه لا يشكون أنه قد حبس أو ضرب أو قتل، قال: فلم يشعروا به إلا وقد طلع عليهم فما بقي في الكوفة رجل مذكور إلا أتاه ممن كان على رأيه، ثم سألوه عن حاله فأخبرهم بما قال وما قيل له، ثم أخبرهم بصنيع علي رضي الله عنه، فعجب أهل الكوفة من ذلك ودعوا لعلي بخير وشكروه على ما فعله»

وكان العباس بن عبد المطلب، عم علي وأكبر بني هاشم سناً، هو الأكثر قياماً بدور الوسيط بين الخليفة وعلي. فكان العباس يتدخل مرات من تلقاء نفسه حين يرى التوتر وقد بلغ ذروته، ومرات بطلب من عثمان نفسه الذي كان يتردد في موقفه من علي فلا يدري دائماً ماذا يفعل. وكانت ردود فعل الخليفة على وساطات العباس تتراوح ما بين الاستجابة الجزئية لبعض مطالب علي، وبين الإعراض والتجاهل. وفي بعض المواقف التي استجاب فيها عثمان لمطالبه، كانت استجابته شكلية دائماً، ولم تمسّ جوهر سياسته وتوجهاته.

## ألم يكن علي قادراً على التفاهم مع صحابيٍّ حليم كعثمان؟!

هكذا كانت الأمور بين علي والخليفة: توتر دائمٌ وخلافٌ متواصل[1] ترتفع

(1) بل إن حدة الخلاف بينهما تعدت المواقف السياسية والنظرة إلى طريقة إدارة الدولة ووصلت إلى القضايا الدينية والشرعية، وهناك نص في صحيح البخاري (جزء باب التمتع والإقران من كتاب الحج) يشير بوضوح إلى أن علياً لم يكن يعترف بعثمان كمصدر للفتوى الشرعية ولم يكن يتردد في مخالفته شكل علني:

حدته وتنخفض حسب الظرف والموقف. ولا يوجد ما يشير الى انسجام أو تآلف بينهما أو تعاون في قيادة الأمة، كما هو متوقع من شخصيتين من كبار الصحابة في زمان بدأ يقل فيه وجود صحابة حقيقيين ممن عاصروا النبي (ص) واحتكوا به. والروايات أيضاً تشير بوضوح الى وجود رغبة واستعداد حقيقي لدى عثمان للتفاهم مع علي واسترضائه وكسب وده، وأن الصد والرفض كان يأتي من طرف علي الذي كان يصر على مواجهة الخليفة ومعارضته والتصدي له.

وهذا السلوك، الفاعل والقوي، من عليٍّ تجاه عثمان يختلف عن سلوكه تجاه الخليفتين أبي بكر وعمر. فلم يُروَ أنه كان يجابههما بانتقادات حادة فيما يتعلق بالشؤون العامة.

فلمَ كان ذلك؟ وهل حصل ذلك، كما تصور عثمان نفسه، لأن علياً كان يتملكه الشعور بأن منصب الخليفة من حقه هو وأن عثمان مغتصبٌ له؟ والجواب هو بالنفي. فعليٌّ كما أثبت بالسلوك والفعل كان لديه الاستعداد الكامل للتنازل عن حقوقه هو بالذات، والتغاضي عن مشاعره الشخصية، وتحمل الأحاسيس بالغبن والضيم، في سبيل الاسلام والمسلمين، فما دامت حقوق الناس مصونة، وما دام ولي الأمر القائم يبذل جهده لتحقيق العدل بين المسلمين، وما دامت قيادة الدولة تسعى لرفع شأن الاسلام في الأرض، فلن يثير عليٌّ أي خلاف ولن يُحدث أية فرقة.

ولذلك كانت المشكلة مع عثمان. فعليٌّ يرى انحرافاً تاماً عن مبادئ الاسلام يحصل أمام ناظريه، ولم يكن يسعه السكوت. فما كان مطلوباً من عثمان يتجاوز جميل القول وعبارات المجاملة بكثير. كان علي يريد تغييراً ملموساً في سياسة الخليفة. وهذا ما لم يكن عثمان ليقبله. فعثمان كان لديه كامل الاستعداد لاكرام علي وتقريبه منه ورفع مكانته في الدولة بشرط أن يدعه يحكم كما يشاء.

---

[illegible] عثمان وعلياً بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما. فلما رأى ذلك علي أهلّ بهما جميعاً قائلاً: لبيك عمرة وحجة معاً. فقال عثمان: تراني أنهى الناس عن شيء وتفعله أنت؟ فقال علي: لم أكن لأدع سنة رسول الله (ص) لقول أحد من الناس».

وبين هذين الموقفين لم يكن ممكناً الالتقاء.

وليس هناك سبب وجيه يدعو الى الشك في مصداقية المصادر التي اعتمدناها في هذا البحث، فهي قديمة ومتنوعة ولا تنحصر في إخباري معين. وهي متكاملة ومتسقة مع سياق الأحداث التاريخية.

وسوف نتطرق الى المزيد عن علاقة علي بعثمان عند الحديث عن ظروف الثورة على الخليفة ومقتله.

وسوف نفرد فصلاً نتكلم فيه عن موقف الإمام علي من مقتل الخليفة عثمان ودوره في تلك الأحداث المهمة.

## الفصل الخامس: عثمان يقسو على معارضيه من الصحابة غير القرشيين

### عددٌ من كبار أصحاب الرسول يتصدون لعثمان

تصدّى عددٌ من كبار صحابة الرسول(ص)، ذوي الماضي الإسلامي العريق والبارز، لعثمان بن عفان. كانت شخصيات معروفة وذات مكانة عالية في الإسلام، ممن تمتلك مؤهلات شرعية مرموقة ترى أمام أعينها مدى الانحراف عن السياسة النبوية الذي كان الخليفة يمارسه. وبدأت الضغوطات على عثمان على شكل نصائح، وملاحظات وطلبات من أجل التراجع عن تطبيق سياسة الانفراد والهيمنة الأموية على الدولة. فكيف يمكن لهؤلاء أن يقبلوا، مثلاً، وضع مروان بن الحكم الجديد؟! لقد تحول مروان الى ما يقرب من رئيس وزراء فعليٍّ للدولة الإسلامية. لقد استغنى عثمان عن الاستعانة بكبار الصحابة من سكان المدينة، واكتفى بمروان بن الحكم الذي جعله مستشاره وكاتم سرّه ووزيره. ولم يعد عثمان يستشير إلاّ خاصته من بني أمية ولا يستمع إلاّ لهم. فليس غريباً أن يثير ذلك غضب علي بن ابي طالب(*) وغيره من قدماء الصحابة الذين عايشوا الفترة النبوية منذ بداياتها، فحاولوا ثني عثمان عن استعمال بطانته هذه، وخاصة مروان، دون جدوى.

---

(*) قال له علي بن أبي طالب في لسعد الموالف؟ أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به. والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه ... أذهبت شرفك وغلبت على أمرك. كما روى الطبري في تاريخه (ج3 ص397) ..

وقد وضحنا أن علي بن أبي طالب كان هو المعارض الأبرز والصوت الأعلى في معارضة عثمان. وإذا كان عليٌّ، بحكم وضعه المرتفع والمميز في المنظومة الاسلامية، قد نجا من العقوبة المباشرة والصارمة المتلفة، إلاّ أن غيره من الصحابة ذوي الأصل الأدنى، من الموالي أو الحلفاء أو القبائل البعيدة، الذين لا ينحدرون من قريش وحلفائها، قد انصبّ عليهم جام غضب عثمان، وكأنه كان يريد التعويض عن عجزه عن ايقاع العقوبة بغيرهما.

وسوف نتطرق فيما يلي من صفحات الى تفاصيل الصراع الذي خاضه ثلاثة من أشهر هؤلاء الصحابة ضد عثمان: أبو ذر الغفاري، عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر.

## أولاً: أبو ذر الغفاري: صراعهُ مع عثمان ومعاوية ونفيُه ووفاته(1)

على الرغم من ان الصحابي أبا ذر الغفاري قد توفي عام 30 للهجرة، وبالتالي لم يعش ليشهد أحداث الثورة على عثمان ومقتله سنة 35 للهجرة إلاّ انه يمكن القول ان أبا ذر كان له دور وتأثير في تلك الأحداث الكبيرة.

### خلفية أبي ذر

وأبو ذرّ كان من الشخصيات المميزة فعلاً في ميزان الشرعية الإسلامية.

---

(1) مصادر هذا المبحث: تاريخ الطبري (ج3 الصفحات 335-337، 344، 378، 379، 400)، صحيح البخاري (كتاب الصلاة زمزم ج4 ص221) و( باب ما أدى زكاته فليس بكنز ج2 ص133)، (ج1 ص27 باب العلم قبل القول والعمل)، سنن ابن ماجه ج1 ص55، سير أعلام النبلاء، الذهبي (ج2 الصفحات 42، 65، 68-69، 70، 77)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج8 الصفحات 256، 251، 257، 258، 259، 260، 264، 262 وج3 ص220)، تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ج3 الصفحات 1034-1041)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص343)، مقتل الخوارزمي (ج4 ص254)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج4 ص171)، البيان والتبيين للجاحظ (ج2 ص132)، سنن الدارمي (ج1 ص136)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص 171-172)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج4 ص226-230) و(ج3 ص[illegible])، فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر (ج3 ص[illegible])، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص183)، صحيح ابن حبان (ج1 ص[illegible])، السيرة النبوية لابن هشام (ج4 ص139)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص17)، ومسند أحمد بن حنبل (ج1 ص[illegible])

فقد كان له نطق لا يتوفر لغيره وهو نفس السعي الفاني للحقيقة والإيمان. فهو كان بدوياً من قبيلة غفار، البعيدة عن مكة، ولكنه كان يمتلك نفساً تسمو للحقيقة وتتوق للوصول إلى سبيل الهداية. كانت نفس أبي ذر تأبى وتستنكر ما شاع بين الناس في الجاهلية من شركٍ وضلال. ولذلك فعندما سمع من بعض المسافرين أن هناك رجلاً يقول إنه نبيٌ في مكة، أثاره ذلك إلى حد أنه أرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بخبره. ولما عاد لم يشفِ غليل ورغبته الملحة إلى الحق، فشدّ الرحال إلى مكة ووصلها في أحلك الظروف سرياً على رسول الله(ص)، حين كان يلقى الأمرّين من جباري قريش. فأخذ يبحث عن النبي(ص)، وهو غريبٌ في مكة، إلى أن التقى صدفةً بعليّ بن أبي طالب الذي أخذه حتى أتى النبي(ص) فسمع منه وآمنَ به فوراً. وقصة إسلامه هذه مشهورة ومعروفة وقد رواها أصحاب السير والحديث ومنهم البخاري في صحيحه (باب قصة زمزم).

فأبو ذر يعتبر من الطبقة الاولى من صحابة النبي(ص). وقد وردت بحقه مجموعة من الاحاديث النبوية ومن أشهرها ذلك الذي يمتدح أهم خصاله، وهي الصدق والاخلاص. فقد ورد في سنن ابن ماجه :

*«عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله(ص) يقول: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»*

## معارضة أبي ذر لعثمان

وباستعراض مجمل أخبار معارضة ابي ذر للخليفة عثمان، يمكن تمييز ثلاثة محاور، أو جذور، لتلك المعارضة :

1 - المحور الاقتصادي ويتجلى ذلك في رفض مظاهر الاثراء الفاحش واكتناز الأموال من قبل الطبقة القرشية الحاكمة ومَن سار على نهجها، والدعوة الى إنصاف الفقراء والمحرومين والمهمشين.

وقد روى الامام البخاري حديثاً يظهر كيف كانت علاقة ابي ذر بالاثرياء من قريش أيام عثمان. فقال انه كان يمرّ على «الملأ من قريش» وهو بهيئة خشنة، فيهددهم بالعقاب في النار يوم القيامة لأنهم من كانزي الأموال ويقول

عنهم "إنهم لا يعقلون شيئاً"، فكانوا يكرهون كلامه. وفيما يلي النص من صحيح البخاري (باب ما أدى زكاته فليس بكنز):

عن الأحنف بن قيس قال: "جلستُ إلى ملأ من قريش فجاء رجلٌ خشن الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسلّم ثم قال: بشّر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل.

ثم ولّى فجلس إلى سارية، وتبعته وجلستُ إليه، وأنا لا أدري من هو.

فقلتُ له: لا أرى القوم إلاّ قد كرهوا الذي قلتَ.

قال: إنهم لا يعقلون شيئاً! قال لي خليلي

قلتُ: من خليلك؟

قال: النبي (ص): يا أبا ذر، أتبصرُ أحداً؟ قال: فنظرتُ إلى الشمس ما بقي من النهار وأنا أرى أن رسول الله (ص) يرسلني في حاجة له، قلتُ: نعم.

قال: ما أحبّ أن لي مثل أُحدٍ ذهباً أنفقه كله، إلاّ ثلاثة دنانير.

وإن هؤلاء لا يعقلون! يجمعون الدنيا! لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله"[1]

ولا شك أن السلوك الشخصي لعثمان، وثراءه الفاحش، وما عُرف عنه من استمتاعه بمباهج ونعم الحياة[2]، كان مما يثير أعصاب أبي ذر ويزيد من عزيمته. فبنظر أبي ذر كان عثمان رمزاً لقريش وترفها وكانزيها.

فمثلاً أخرج ابن أبي الحديد رواية عن الواقدي بشأن الجدال العنيف الذي دار بين الخليفة عثمان وأبي ذر الغفاري لما أحضره من الشام

---

(1) رواه أيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء بعبارات قريبة
(2) ومثال على ذلك ما رواه الطبري في تاريخه عن عبد الله بن عامر "كنتُ أفطر مع عثمان في شهر رمضان، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر. قد رأيتُ على مائدة عثمان الدرمك الجيد وصغار الضأن كل ليلة. وما رأيتُ عمر قط أكل من الدقيق منخولاً ولا أكل من الغنم إلاّ مسانّها".

وفي معرض الكلام المتبادل سأله عثمان «أنت الذي تزعم أنا نقول: يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء!

فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده ...»

وأخرج ابن شبة في تاريخ المدينة رواية تظهر كيف أن أبا ذر كان يعتقد أن الله تعالى حرّم اكتناز الأموال من حيث المبدأ، حتى لو تم إخراج الزكاة الشرعية. ويرى أبو ذر أن هذا محرّم عنه حتى بحق الصحابي الكبير عبد الرحمن بن عوف، فكيف الأمر بما يتعلق بغيره ممن ليس لهم صحبة ولا يتصدقون كما كان يفعل ابن عوف ؟

فعن عبد الله بن الصامت قال عن أبي ذر وعثمان: «ودخل عليه وهو يقسم مال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بين ورثته، وعنده كعب.

فأقبل عثمان رضي الله عنه فقال: يا أبا إسحق، ما تقول في رجل جمع هذا المال فكان يتصدق منه ويحمل في السبيل، ويصل الرحم؟

فقال: إني لأرجو له خيراً.

فغضب أبو ذر، ورفع عليه العصى وقال: وما يدريك يا ابن اليهودية؟ ليودّنّ صاحب هذا المال يوم القيامة أن لو كان عقارب تلسع السويداء من قلبه»[1]

وقد روى أحمد بن حنبل في مسند قصة الصدام بين أبي ذر وكعب الأحبار بحضرة عثمان عن مالك بن عبد الله الزيادي عن أبي ذر أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان رضي الله عنه: يا كعب إن عبد الرحمن توفي وترك مالاً، فما ترى فيه؟

فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه.

فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال: سمعت رسول الله (ص) يقول: ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني أذر خلفي منه ست أواق؟ أنشدك الله يا عثمان أسمعته؟ ثلاث مرات.

---

(1) ونفس هذه الرواية أخرجها الذهبي في سير أعلام النبلاء.

قال: نعم؟

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة رواية ثانية تظهر كيف كان أبو ذر غاضباً من عثمان وسياسته المالية. فعن مالك بن انس بن الحدثان: جاء ابو ذر وأنا جالس مع عثمان رضي الله عنه.

فسلم عليه عثمان رضي الله عنه، وقال: كيف أنت يا ابا ذر؟

فقال: كيف أنت؟ وولى وجهه!

فاستفتح (ألهاكم التكاثر)، ورفع بها صوته حتى ان المسجد لرجة، أي لجبة (شك ابو عاصم).

قال: فانتهت به القراءة الى سارية فركع ركعتين فتجوّز فيهما. وركبه الناس -وأنا في الناس- فقالوا: يا ابا ذر حدثنا عن رسول الله (ص).

قال: سمعتُ النبي (ص) يقول: في الإبل صدقتها والبقر صدقتها، والغنم صدقتها، وفي البر صدقته. ومن جمع دنانير ودراهم أو تبر ذهب او تبر فضة لا ينفقه في سبيل الله ولا يعدّه لغريم فهو كنز يكوى به يوم القيامة.

قال: فقلتُ: يا ابا ذر اتق الله وانظر ما تقول، فإن هذه الاموال قد كثرت في الناس.

قال: يا ابن أخي من أنت؟

فانتسبتُ له. فقال: قد عرفتُ نسبك الأكبر، يا ابن أخي أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم

قال: أفليس يقول الله (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله)؟!

قلتُ: بلى.

قال: فافقه اذن يا ابن أخي!

3 - محور الاخلاق والقيم، وما كان يراه من انحرافٍ عن عهد رسول الله(ص) وتعاليمه.

فكان الكثير مما يجري في عهد عثمان مثار استهجان أبي ذر وغضبه، وقد روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين ان أبا ذر كان يروي عن رسول الله(ص) «إذا اقترب الزمان كثر لبس الطيالسة، وكثرت التجارة، وكثر المال، وعظم رب المال بماله، وكثرت الفاحشة، وكانت إمارة الصبيان، وكثر النساء، وجار السلطان، وطفف في المكيال والميزان، ويربي الرجل جرو الكلب خير له من أن يربي ولداً له، ولا يوقر كبير ولا يرحم صغير، ويكثر أولاد الزنا حتى إن الرجل ليغشى المرأة على قارعة الطريق فيقول امثلهم في ذلك الزمان لو اعتزلتما عن الطريق، ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب امثلهم في ذلك الزمان المداهن»

وهذا يعني أن أبا ذر كان يرى أن الاخلاق قد تسيبت والضمائر قد خربت من بعد رسول الله(ص). وكان يعارض ذلك ويحمل المسؤولية للحاكم.

وقد ورد في البيان والتبيين للجاحظ كيف كان أبو ذر مصراً على الاستمرار على منهاج الرسول (ص) في الزهد والتواضع «قال أبو ذر: فارقتُ رسول الله(ص) وقوتي من الجمعة إلى الجمعة مُدّ ولا والله لا أزدادُ عليه حتى ألقاه».

فكان أبو ذر يمتلك تصميماً شديداً على تبليغ ونشر وصايا النبي (ص) مهما كان الثمن باهظاً. ومن ذلك ما رواه القاري في سنه ان أبا ذر قال: «أمرنا رسول الله(ص) أن لا يغلبونا على ثلاث: أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونعلّم الناس السنن» وهذا ما كان يفعله أبو ذر ومستعد أن يضحي في سبيله.

ومن ذلك أيضاً ما رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء أن أبا ذر قال «أوصاني رسول الله(ص) خمساً، وواثقني سبعاً، وأشهد الله عليّ سبعاً: ألا أخاف في الله لومة لائم».

وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن الواقدي ان عثمان لما استقدم أبا ذر من عند معاوية قال له: أنت الذي فعلت وفعلت ؟!

فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتني ونصحت صاحبك فاستغشني!

قال عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها. قد أنغلت الشام علينا.

فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام.

فقال عثمان: مالك وذلك، لا أم لك!

قال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلاّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3 - محور التشيع لعلي بن أبي طالب ولآل بيت النبي(ص).

فلا أرجح أن ما تميز به أبو ذر من ولاء شديد لشخص علي بن أبي طالب وآل بيته كان لا يروق لعثمان وبطانته من حيث المبدأ. فالخليفة ومستشاروه كانوا يعتبرون ما يذيعه أبو ذر من حديث النبي(ص) بشأن آل البيت عملا عدائياً موجهاً ضدهم.

فقد ورد في علل الدارقطني عن ابي ذر ان رسول الله (ص) قال: أيها الناس: إني تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ومثلهما مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا.

وهناك مؤشرات ان التشيع لعلي بن ابي طالب لم يكن بدعة لاحقة في الإسلام نشأت في زمن عثمان، بل كان تياراً أصيلاً ترجع جذوره إلى أيام الرسول(ص) واحتدّت لما بعد وفاته. وقد كان عدداً من أهم صحابة الرسول(ص)، ممن ليسوا من أصول قرشية، متمسكين بضرورة ولاية علي بن أبي طالب بعد رسول الله(ص). وكان أبو ذر من تلك المجموعة التي اشتهر منها أيضاً عمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بن عمرو. وهؤلاء الأربعة يحظون بتقدير كبير جداً من أتباع المذهب الشيعي قديماً وحديثاً.

وقد ورد في تاريخ اليعقوبي نص ما قاله أبو ذر الغفاري في المسجد النبوي في بداية عهد عثمان بن عفان:

فبلغ عثمان أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله، ويجتمع إليه الناس، فيحدث بما فيه الطعن عليه، وأنه وقف بباب المسجد فقال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الربذي:

إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. محمدٌ الصفوة من نوح، فالأول من ابراهيم والسلالة من إسماعيل، والعترة الهادية من محمد. إنه شرف شريفهم واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة وكالكعبة المستورة أو كالقبلة المنصوبة أو كالشمس الضاحية أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية أو كالشجرة الزيتونة أضاء زيتها وبورك زبدها. ومحمدٌ وارث علم آدم وما فضل به النبيون. وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ووارث علمه.

أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها! أما لو قدّمتم من قدّم الله وأخرتم من أخّر الله وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال وليّ الله، ولا طاش سهمٌ من فرائض الله ولا اختلف اثنان في حكم الله إلاّ وجدتم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه.

فأما إذ فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»

ويضع هذا: القدحُ في بني أمية والتشكيك في شرعيتهم الاسلامية

فمثلاً أخرج ابن ابي الحديد رواية أخرى من الواقدي بشأن الجدال الذي دار بين الخليفة عثمان وابي ذر الغفاري قبل ان يصدر قراره بنفيه.

وفي معرض ذلك الحوار العاصف قال ابو ذر «أشهد اني سمعتُ رسول الله (ص) يقول (إذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، ودينه دخلاً).

فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟

قالوا: لا.

قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله؟

فقال أبو ذر لمن حضر: أما تدرون أني صدقتُ؟

قالوا: لا والله ما ندري.

فقال عثمان: ادعوا لي علياً.

فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده.

فقال عثمان لعلي عليه السلام: أسمعتَ هذا من رسول الله (ص)؟

قال: لا وقد صدق أبو ذر.

فقال: وكيف عرفتَ صدقه؟

قال: لأني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

فقال من حضر: أما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله

قال أبو ذر: أحدثكم أني سمعتُ هذا من رسول الله (ص) فتتهموني؟! ما كنتُ أظن أني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد (ص)».[1]

وبقي أبو ذر مخلصاً في ولائه لعلي بن أبي طالب وداعياً إلى ولايته حتى آخر لحظة في حياته. فقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن أبي رافع:

«أتيتُ أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أردتُ الانصراف قال لي ولأناس معي: ستكون فتنة، فاتقوا الله، وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فاتبعوه، فإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول له: أنت أول من آمن بي وأول من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين، وأنت أخي ووزيري، وخيرُ من أترك بعدي، تقضي ديني وتنجز موعدي»

(1) وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه هذه الرواية باختصار، وفيها «بني أمية» بدلاً من «بني أبي العاص».

والنتيجة كانت معارضة لا هوادة فيها أظهرها أبو ذر للخليفة عثمان، معارضة تصاعدت وتفاقمت واتسمت بالجذرية. والرواية التالية لدى الذهبي في سير أعلام النبلاء تظهر مدى كُره أبي ذر للنظام الحاكم وكل من يعمل في خدمته من الرعية. والرواية تقول انه عندما كان أبو ذر مريضاً يوشك على الموت وهو منفيٌّ بالربذة، مرّ به قوم من المسلمين فاستوقفتهم زوجته لكي يكفنوا زوجها إن قضى نحبه، فخاطبهم أبو ذر "أنشدكم الله: أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً !.

فكل القوم كان نال من ذلك شيئاً، إلا فتى من الأنصار قال: أنا صاحبك. ثوبان في عيبتي من غزل أمي وأحد ثوبي هذين اللذين علي.

قال: أنت صاحبي، فكفني"

## تسلسل أحداث صراع أبي ذر مع عثمان

ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

"واعلم ان الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل:

ان عثمان نفى أبا ذر أولاً الى الشام،

ثم استقدمه الى المدينة لما اشتكى منه معاوية،

ثم نفاه من المدينة الى الربذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام"

ولا مانع أبداً من قبول هذا التسلسل للأحداث. وأما لماذا نفاه عثمان أولاً الى الشام فالجواب ان تلك الممارسة كانت مأثورة في زمان عثمان، الذي كان يلجأ أحياناً الى نفي الناقمين عليه والمعارضين له الى الشام، حيث ابن عمه وثقته ورجل الدولة القوي معاوية، فيقوم بتأديبهم وإخضاعهم بطريقته. وسيأتي الحديث عن ذلك.

## المنفى الى الشام

يتابع ابن أبي الحديد روايته السابقة:

"فأصل هذه الواقعة: ان عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوت

الأموال واختص زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشر الكافرين بعذاب أليم ويرفع بذلك صوته ويتلو قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم).

فرفع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم إنه أرسل إليه مولى من مواليه: أن انته عما بلغني عنك!

فقال أبو ذر: أوينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟! وعيب من ترك أمر الله تعالى. فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان.

فأغضب عثمان ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، إلى أن قال عثمان يوماً، والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فإذا أيسر قضى؟

فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك.

فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا؟!!

فقال عثمان: قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي الحق بالشام. فأخرجه إليها.»

وقال اليعقوبي في تاريخه شأن حادثة النفي الاولى:

«وبلغ عثمان أيضاً أن أبا ذر يقع فيه، ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله وسنن أبي بكر وعمر. فسيّره إلى الشام، إلى معاوية»

وكذلك روى الذهبي في سير أعلام النبلاء تفاصيل عن نفي عثمان لأبي ذر إلى الشام بعد ذلك الموقف الذي أبداه خلاله عثمان إلى الاستشهاد بمستشاره كعب الأحبار ليؤكد أنه ليس على المسلم أكثر من دفع الزكاة، بينما أصر أبو ذر على أنه لا يجوز للمسلم أن يكتنز المال وأنه قال لكعب الأحبار بحضرة الخليفة: يا ابن اليهودية. وأن عثمان كان يبعد أبا ذر عن طريق تركه فترة طويلة ينتظر على بابه لدى استدعائه.

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة حادثة النفي الى الشام. وفي روايته ما يظهر بأن بطانة الخليفة وحاشيته كانت تساهم في تحريف كلام ابي ذر، ونقله الى عثمان بعد تهويله وتحريفه عن مقصده. فعن ابن عباس ان عثمان قال لأبي ذر لما دخل عليه: أنت الذي تزعم انك خير من ابي بكر وعمر؟

قال ابو ذر رضي الله عنه: ما قلتُ هذا.

قال عثمان: اني أقيم عليك البينة.

قال: ما أدري ما بينتك ؟ قد عرفتُ ما قلتُ.

قال: فكيف قلتَ؟

قال: قلتُ ان رسول الله (ص) قال (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني الذي يأخذ بالعهد الذي تركته عليه حتى يلحقني). وكلكم قد أصاب من الدنيا غيري. فأنا على العهد وعلى الله البلاغ.

قال له عثمان رضي الله عنه: الحق بمعاوية، فأخرجه الى الشام.

## بين أبي ذر ومعاوية

لا يمكن تصور رجلين في الكون كله، في ذلك الزمان، أكثر اختلافاً وتنافراً وتناقضاً من معاوية بن أبي سفيان وأبي ذر الغفاري! معاوية الثري أباً عن جد، الارستقراطي في قريش، رجل الدولة المحنك والسياسي الداهية ابن طليق ورجل مبادئ وأخلاق، بدوي من قبيلة لا تساوي قريشاً، زاهد في الدنيا، صارم لا يداهن، كأبي ذر. فكان الصدام بينهما حتمياً.

ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري انه لما وصل أبو ذر الى الشام أخذ بقلوب الناس، فأبكى عيونهم وأوغر صدورهم. وكان فيما يقول: لا يبقين في بيت أحد منكم دينار ولا درهم ولا تبر ولا فضة إلا شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم؟

ومن الطبيعي أن يستشعر معاوية بالخطر الداهم من وجود رجل مثل هذا الصحابي الجليل، وبثه الأفكار عنه في الشام. وبحكم طريقة تفكيره

بالمعهورجا. حاول معاوية أن يستكشف إمكانية رشوة أبي ذر، أو إيقاعه بإغراء مالي لكي يفضحه بين الناس ويؤاخذه عليه. يتابع ابن شبة:

فبعث إليه معاوية رضي الله عنه بجنح الليل بألف دينار، أراد أن يخالف فعله قوله وسريرته علانيته.

فلما جاءه الرسول قسم الألف فلم يصبح عنده منها دينار ولا درهم.

فلما أصبح معاوية رضي الله عنه دعا الرسول فقال له: انطلق إلى أبي ذر فقل له: أنقذ لي جسدي من عذاب معاوية، أنقذ الله جسدك من النار، فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك.

فقال له أبو ذر: اقرأ على معاوية السلام وقل له: يقول لك أبو ذر ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار واحد. فإن أخذتنا بها فأنظرنا ثلاث ليال نجمعها لك.

فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله وسريرته تصدق علانيته كتب إلى عثمان رضي الله عنه: إن كان لك بالشام حاجة فأرسل إلى أبي ذر، فإنه قد أوغر صدور الناس عليك.

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه: أن الحق بي!

وفي رواية ثانية أن معاوية كتب لعثمان إن كان لك في الشام حاجة فأخرج أبا ذر، فإنه قد نغل الناس[1] عندي!

وفي متابعة لرواية ابن أبي الحديد السابقة:

فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه يوماً معاوية ثلاثمئة دينار.

فقال أبو ذر لرسوله: إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها. وردها عليه.

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق. فقال أبو ذر: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف.

---

(1) نغل الناس أي أفسدهم

وكان أبو ذر يقول بالشام: والله لقد حدثت اعمال ما أعرفها. والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه(ص). والله اني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه.

قال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: ان أبا ذر لمفسد عليكم الشام، فتدارك أهله ان كان لك فيه حاجة!

كما ذكر ابن ابي الحديد رواية أخرى تلقي مزيداً من الضوء على الاشتباك الذي حصل بين ابي ذر ومعاوية في الشام. فمن كتاب (السفيانية) للجاحظ عن جلام الغفاري أنه جاء معاوية يوماً فسمعتُ صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار! اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له. اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له.

فازبأر معاوية وتغير لونه، وقال: يا جلام أتعرف الصارخ؟

فقلتُ: اللهم لا.

قال: من عذيري من جندب بن جنادة! يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعتَ!

ثم قال: أدخلوه عليّ، فجيء بأبي ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه.

فقال له معاوية: يا عدو الله، وعدو رسوله! تأتينا في كل يوم فتصنع ما تصنع، أما اني لو كنتُ قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكني أستأذن فيك.

قال جلام: وكنتُ أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومي. فالتفتُ اليه فإذا رجل أسمر ضرب من الرجال، خفيف العارضين، في ظهره حناً.

فأقبل على معاوية وقال: ما أنا بعدو لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الاسلام وأبطنتما الكفر. ولقد لعنك رسول الله (ص)، ودعا عليك مرات ألاّ تشبع. سمعتُ رسول الله (ص) يقول (إذا ولي الامة الأعين الواسع البلعوم، الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الامة حذرها منه).

فقال معاوية: ما أنا ذاك.

قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل. أخبرني بذلك رسول الله (ص)، وسمعته يقول وقد مررتَ به (اللهم العنه ولا تشبعه إلاّ بالتراب). وسمعته (ص) يقول (إستُ معاوية في النار).

فضحك معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه...»

ورغم أن تبادل العبارات الحادة جداً، كما هو وارد في هذه الرواية، بين أبي ذر ومعاوية أمرٌ طبيعيٌ ومتوقع، إلاّ أنه تبدو واضحة تدخلات وإضافات الرواة، وخاصة افتعالهم على لسان أبي ذر (إست معاوية في النار). [1]

ويضيف اليعقوبي في تاريخه:

«...وكان يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول، ويجتمع إليه الناس حتى كثر من يجتمع إليه ويسمع منه. وكان يقف على باب دمشق إذا صلى صلاة الصبح فيقول: جاءت القطار تحمل النار، لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له، ولعن الله الناهين عن المنكر والآتين له.

وكتب معاوية إلى عثمان: إنك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر، فكتب إليه: أن احمله على قتب بغير وطاء، فقدم به إلى المدينة، وقد ذهب لحم فخذيه...»

وكان معاوية لما عجز عن التوصل إلى أي تفاهم مع أبي ذر، وإلى أن يأتيه فيه أمر عثمان، قد أصدر أوامره بعزل أبي ذر عن المجتمع عن طريق تهديد كل من يتصل به أو يستمع إليه.

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الأحنف بن قيس أنه زار الشام فرأى في المسجد رجلاً يصلي عند سواريه فيفر عنه الناس. فلما سأله طلب منه أبو ذر أن يبتعد عنه لأنه لا يريد أن يصيبه شر بسببه فقال: قم عني لا أصبك بشر. فقلت له: كيف تصيبني بشر؟ قال: إن هذا، يعني معاوية، نادى مناديه ألاّ يجالسني أحد.

(1) ويلاحظ خطر الرواية من تفاصيل الكلام المتبادل بين معاوية وأبي ذر.

## النفي الى الربذة[1]

وأخيراً قرر الخليفة أن يتخلّص من مشكلة أبي ذر، جذرياً. لم يعد عثمان يطيق وجود أبي ذر في عاصمته، ولا في أي مكان مأهول من دولته، فكان قرار النفي القاسي إلى مكان موحش مقفر، حيث لن يجد أبو ذر مَنْ يستمع إليه من المسلمين لكي "يفسده" بكلامه المتواصل عن الظلم والفساد. ففي الربذة لمن سيتحدث أبو ذر عن وصايا النبي(ص) بالعدل بين الناس، والزهد والورع؟ ولأن أبا ذر لم تكن له قاعدة قبلية تحميه لم يتورّع الخليفة عن اتخاذ أقسى العقوبة بحقه، ربما ليجعله عبرة لمن يعتبر!

كان قرار عثمان هو بالفعل حكم بالموت بطيء على أبي ذر. وبالفعل لم يلبث أبو ذر في الربذة طويلاً، فمات هناك وحيداً.

وفي متابعة لرواية ابن ابي الحديد من كتاب (السفيانية) للجاحظ عن جلام الغفاري:

فكتب عثمان الى معاوية أن احمل جندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره. فوجّه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلا قتب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد.

فلما قدم بعث اليه عثمان: الحق بأي أرض شئت.

قال: بمكة؟

قال: لا

قال: بيت المقدس؟

قال: لا

قال: بأحد المصرين؟

---

(1) بلغت شهرة حادثة النفي تلك إلى حد أن حتى ابن اسحاق قد ذكرها في السيرة النبوية بقوله فلما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة وأصابه بها قدره لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه... في السيرة النبوية لابن هشام

قال: لا . ولكني أُسيّرك الى ربذة.

فسيّره اليها فلم يزل بها حتى مات»

روى اليعقوبي في تاريخه انه لما حُوّل أبو ذر من الشام الى المدينة، وبعد جدال عنيف مع عثمان :

«... فلم يقم بالمدينة إلاّ أياماً حتى أرسل اليه عثمان: والله لتخرجن منها !

قال: أتخرجني من حرم رسول الله؟

قال: نعم! وأنفك راغم.

قال: فإلى مكة؟

قال: لا .

قال: فإلى البصرة؟

قال: لا .

قال: فإلى الكوفة؟

قال: لا ولكن الى الربذة التي خرجتَ منها حتى تموت بها ! يا مروان أخرجه. ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج»

وفي رواية أخرى لابن ابي الحديد عن الواقدي

«ثم ان عثمان حظر على الناس ان يقاعدوا ابا ذر أو يكلموه. فمكث كذلك أياماً، ثم أتي به فوقف بين يديه.

فقال ابو ذر: ويحك يا عثمان! اما رأيت رسول الله (ص)، ورأيت أبا بكر وعمر؟! هل هديك كهديهم؟ أما انك لتبطش بي بطش جبار .

فقال عثمان: اخرج عنا من بلادنا .

فقال ابو ذر: ما أبغض اليّ جوارك. فإلى أين أخرج؟

قال: حيث شئت .

قال: أخرج إلى الشام أرض الجهاد؟

قال: إنما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها، أفأردك إليها؟!

قال: أفأخرج إلى العراق؟

قال: إنك إن تخرج إليها تقدم على قوم أولي شبه وطعن على الأئمة والولاة

قال: أفأخرج إلى مصر؟

قال: لا

قال: فإلى أين أخرج؟

قال: إلى البادية.

قال أبو ذر: أصير بعد الهجرة أعرابياً؟

قال: نعم

قال أبو ذر: فأخرج إلى بادية نجد؟

قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد أقصى فأقصى، امض على وجهك هذا فلا تعدون الربذة.

فخرج إليها

## مناقشة روايات ابن سعد

وأما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد أورد عدة روايات حول نفي أبي ذر للربذة :

واحدة عن ابن سيرين، يبدو فيها أنه بذل مجهوداً لتخفيف وطأة ما جرى، وقد لجأ إلى إقحام رسول الله(ص) في الأمر حين ذكر أنه (ص) كان قال لأبي ذر إذا بلغ البناء سلعاً فاخرج منها -ونحا بيده نحو الشام- ولا أرى أمراءك

بمصرتك»، وهو يريد أن يوحي أن ما جرى كان تنفيذاً لأمر الرسول(ص) وتبوءته! فقد خرج أبو ذر إلى الشام كما أمره الرسول(ص)، وأيضاً حال «أمراؤه» بينه وبين المقام هناك كما تنبأ الرسول(ص)! والمراد في هذه الحالة هو معاوية بالطبع. ويقول ابن سيرين إن معاوية كتب لعثمان أن أبا ذر «أفسد الناس بالشام» فطلب منه الخليفة أن يرسله له فلما وصله قال له «ألا تكون عندي تغدو عليك وتروح اللقاح. قال: لا حاجة لي في دنياكم. ثم قال: ائذن لي حتى أخرج إلى الربذة. فأذن له»

ورواية عن حصين عن زيد بن وهب أنه لقي أبا ذر وهو بالربذة فسأله عن سبب وجوده هناك فقال له انه اختلف مع معاوية بشأن تفسير الآية «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ...» لأن معاوية قال انها نزلت في أهل الكتاب بينما قال أبو ذر ان المسلمين مشمولون بها، فشكاه لعثمان الذي استجلبه إلى المدينة وقال له «إن شئت تنحيت فكنت قريباً» وهذا سبب وجوده في الربذة.

وثالثة عن عبد الله بن سيدان السلمي «تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما» وأن أبا ذر خرج من عنده (المناجاة) مبتسماً فقال له الناس: «مالك ولأمير المؤمنين؟ قال: سامع مطيع. ولو أمرني أن آتي صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت. وأمره عثمان أن يخرج إلى الربذة»

ويلاحظ أن ابن سعد قد اخرج عدداً كبيراً من الروايات التي تتحدث عن وصية رسول الله (ص) المشددة والمؤكدة لأبي ذر أن يسمع ويطيع لكل من يُولّى عليه، وأن لا يشق عصا الطاعة وان لا يتمرد على الأمراء الفاسدين ... الخ وأنه بالتالي فإن أبا ذر كان شديدَ الطاعة لعثمان إلى درجة انه كان يقول ان عثماناً لو صلبه على أطول خشبة لسمع له وأطاع! وأنه أجاب نفراً من أهل العراق ممن مروا به وهو بالربذة فقالوا له «هل يفك هذا الرجل وفعل بك فهل انت ناصب لنا راية فتكمل برجال ما شئت؟» فنهاهم عن ذلك وقال لهم «... لا تذلوا السلطان فانه من أذل السلطان فلا توبة له»!

فلو كان أبو ذر حقاً بهذه الدرجة من الطاعة والولاء لعثمان، والحرص

على السلاطين والأمراء، فلمَ طعن على معاوية ؟ ولم تحدّى الخليفة ؟ ولمَ واجهه تريثاً ؟ ولم تحمّل النفي من بلد لآخر؟ ولمَ ولِم؟ أما كان ممكناً له أن يجلس وادعاً مستقراً في بيته، يصلّي ويصوم ويعبد ربّه، تاركاً الدنيا وما فيها لأهلها ؟ وهل يمكن لأبي ذر أن يخالف تلك التوصيات المشددة من النبي(ص) له بأن لا يواجه الأمراء الذين يستأثرون بالفيء؟

بل إن هناك ما يشير إلى أن موقف أبي ذر المعارض للسلاطين والولاة كان يتسع ليشمل كل من تولّى عملاً لهم وتعاون معهم حتى لو لم تظهر منه ممارسات فاسدة أو منحرفة. فكان أبو ذر يرى هؤلاء الحكام رجساً ونجساً ولا يجد عذراً لمن يسير في ركابهم. روى ابن سعد أن أبا موسى الأشعري لما قدم كان يُقبل على أبي ذر ويلزمه ويقول له «مرحباً بأخي» فكان أبو ذر يدفعه عنه قائلاً له «*لستُ بأخيك! إنما كنتُ أخاك قبل أن تستعمل*».(1) هذا مع العلم أن أبا موسى لم يكن من ولاة عثمان المطعون عليهم، بل إنه لم يعمل لعثمان سوى فترة قصيرة في أول عهده قبل أن يعزله ويولي قريبه ابن عامر. فأبو موسى كان عاملاً لعمر في الأساس، ويمكن القول أنه كان ناجحاً في إدارته. ومع ذلك يلومه أبو ذر.

إن سيرة أبي ذر الصادق وما جرى له، يقطع بالجزم بأن حقيقة ما رواه أبو ذر عن النبي (ص) كان:

«*أوصاني خليلي بسبع:*

*أمرني بحب المساكين والدنو منهم*

*وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي*

*وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً*

*وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت*

*وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً*

(1) ونص الرواية أخرجها أيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم

وأمرني أن أكثر من (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإنهن من كنز تحت العرش»

وذلك خلاف روايات العامة التي استعرضناها

## الوداع الأخير

وأصدر عثمان أوامره بأن لا يخرج أحدٌ لوداع أبي ذر عند مسيره إلى منفاه الموحش. ولكنّ علياً بن أبي طالب تحدّى قرار عثمان وخرج لوداع أبي ذر، هو وولداه الحسن والحسين، ومعهم عمار بن ياسر. وقد روى الشريف الرضي في نهج البلاغة (شرح محمد عبده ج2 ص17) الكلام الذي قاله له عليّ عندما ودّعه لما نفاه عثمان إلى الربذة:

«يا أبا ذرّ، إنك غضبت لله، فارجُ من غضبتَ له. إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلمُ مَن الرابح غداً والأكثر حسّداً. ولو أنّ السموات والأرضين كانتا على عبدٍ رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً. ولا يؤنسنّك إلاّ الحق ولا يوحشنّك إلاّ الباطل. فلو قبلت دنياهم لأحبّوك، ولو قرضت منها لأمّنوك»

وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري خبر إخراج أبي ذر من المدينة عن عكرمة عن ابن عباس:

«لما أخرج أبو ذر إلى الربذة، أمر عثمان فنودي في الناس أن لا يكلم أحدٌ أبا ذر ولا يشيعه، وأمر مروانَ بن الحكم أن يخرج به، فخرج به.

وتحاماه الناسُ إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً أخاه، وحسناً وحسيناً عليهما السلام، وعماراً، فإنهم خرجوا معه يشيعونه.

فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال له مروان: إيهاً يا حسن! ألا تعلم أن أمير المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل؟ فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك.

فحمل علي عليه السلام على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال: تنحّ نحّاك الله إلى النار!

فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر، فتلظّى على علي عليه السلام.

ووقف أبو ذر فودّعه القوم، ومعه ذكوان مولى أم هانئ بنت أبي طالب. قال ذكوان: فحفظت كلام القوم - وكان حافظاً -

فقال علي عليه السلام: يا أبا ذر إنك غضبت لله، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فامتحنوك بالقلى ونفوك إلى الفلا. والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل له منها مخرجاً. يا أبا ذر لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل.

ثم قال لأصحابه: ودّعوا عمكم. وقال لعقيل: ودّع أخاك.

فتكلم عقيل فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذر؟ وأنت تعلم أنا نحبك وأنت تحبنا، فاتق الله فإن التقوى نجاة، واصبر فإن الصبر كرم، واعلم أن استثقالك الصبر من الجزع، واستبطاءك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع.

ثم تكلم الحسن فقال: يا عماه لولا أنه لا ينبغي للمودّع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف. وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك (ص) وهو عنك راض.

ثم تكلم الحسين فقال: يا عماه إن الله تعالى قادر أن يغيّر ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن. وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك. فما أغناك عما منعوك، وأحوجهم إلى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدّم رزقاً، والجزع لا يؤخر أجلاً.

ثم تكلم عمار رحمه الله مغضباً فقال: لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك! أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك.

وما منع الناس أن يتركوا بقولك إلاّ الرضا بالدنيا، والجزع من الموت. ومالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

فبكى أبو ذر رحمه الله، وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتكم ذكرتُ بكم رسول الله (ص). ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم. اني ثقلتُ على عثمان بالحجاز، كما ثقلتُ على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأفسدُ الناس عليهما، فسيّرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلاّ الله. والله ما أريد إلاّ الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة.

ورجع القوم إلى المدينة[1]»

وروى اليعقوبي في تاريخه أن عثمان لما أمر أبا ذر بالخروج إلى الربذة قال:

«... يا مروان أخرجه، ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج»

فأخرجه على جمل ومعه امرأته وابنته. فخرج علي والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر ينظرون. فلما رأى أبو ذر علياً قام إليه فقبل يده ثم بكى وقال: إني إذا رأيتك ورأيتُ ولدك ذكرتُ قول رسول الله فلم أصبر حتى أبكي. فذهب علي يكلمه، فقال له مروان: إن أمير المؤمنين قد نهى أن يكلمه أحد. فرفع علي السوط فضرب وجه ناقة مروان وقال: تنح، نحاك الله إلى النار! ثم شيّعه، فكلمه بكلام يطول شرحه. وتكلم كل رجل من القوم وانصرفوا.

وانصرف مروان إلى عثمان، فجرى بينه وبين علي في هذا بعض الوحشة وتلاحيا كلاماً»

---

(1) ويمكن التحفظ على وجود عقيل بن أبي طالب ضمن المودعين لأبي ذر مع أخيه علي وبنيه وعمار (كما في هذه الرواية). فعقيل لم يعرف عنه نشاط يذكر في تحدي عثمان أو الاعتراض على سياسته.

استثارت قصة أبي ذر ونهايته المأساوية ووفاته وحيداً في الصحراء مشاعر الكثيرين من المسلمين الذين رأوا فيها ظلماً تعرّض له ذلك الرجل الكبير بسبب إصراره على تحدّي الحاكمين ومواجهتهم بدعوة الحق لا تلين ولا تساوم. لقد تحوّل أبو ذر الى رمز للبطولة في نظر الكثيرين، والرموز عادة ما تحتوي قصصهم على إضافات من قبل الرواة لإضفاء حبكةٍ تناسب المقام الذي يراد للشخصية الرمز أن تبلغه.

وهذا ما حصل بشأن وفاة أبي ذر. فالرجل توفي في الربذة بلا شك معزولاً وحيداً، وربما بصحبة زوجته أو ابنته، ولكن لا بد من الإضافات...

روى البلاذري في أنساب الأشراف عن الواقدي أن زوجة أبي ذر قالت إنه حدثها بأن النبي(ص) قد تنبأ بتفاصيل وفاة أبي ذر فقال لي رسول الله (ص): *إنك تموت بأرض غربة . وأخبرني أنه يلي دفني رهطٌ صالحون» وتقول الرواية عنه «أن أبا ذر رضي الله تعالى عنه مات، فقالت امرأته: بينا أنا جالسة عنده، وقد توفي، إذ أقبل ركب فسلموا فقالوا: ما فعل أبو ذر؟ قلتُ: هو ذا ميتاً قد حضرتُ عن غسله ودفنه. فأناخوا فحضروا له وغسلوه، وأخرج جرير بن عبد الله حنوطاً وكفناً لحنطه وكفنه. ثم قبره وحملوها الى المدينة»*

وهناك عدة روايات تجعل عدداً من الذين سيكونون فيما بعد الحملة للخليفة عثمان هم أنفسهم الذين تصادف مرورهم بالربذة لدى وفاة أبي ذر. وأهم هؤلاء مالك الأشتر.

ومنها ما رواه اليعقوبي في تاريخه:

*«... فلم يزل ابو ذر بالربذة حتى توفي، ولما حضرته الوفاة قالت له ابنته: اني وحدي في هذا الموضع، وأخاف ان تغلبني عليك السباع! فقال: كلا انه سيحضرني نفر مؤمنون، فانظري أترين أحداً ؟ فقالت: ما أرى أحداً. قال: ما حضر الوقت. ثم قال: انظري هل ترين أحداً ؟ قالت: نعم أرى ركباً مقبلين. فقال: الله أكبر صدق الله ورسوله! حوّلي وجهي الى القبلة، فإذا حضر القوم*

فأقرئيهم مني السلام، وإذا فرغوا من أمري فاذبحي لهم هذه الشاة، وقولي لهم: أنشدكم عليكم ألا تبرحوا حتى تأكلوا. ثم قضى عليه، فأتى القوم فقالت لهم الجارية: هذا أبو ذر صاحب رسول الله قد توفي. فنزلوا، وكانوا سبعة نفر فيهم حذيفة بن اليمان والأشتر، فبكوا بكاءً شديداً، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه. ثم قالت لهم: إنه يقسم عليكم ألا تبرحوا حتى تأكلوا. فذبحوا الشاة وأكلوها، ثم حملوا ابنته حتى صاروا بها إلى المدينة.»

ومنها ما رواه البلاذري عن أبي مخنف «لما حضرت أبا ذر الوفاة بالربذة أقبل ركبٌ من أهل الكوفة فيهم جرير بن عبد الله البجلي، ومالك بن الحارث الأشتر النخعي، والأسود بن يزيد بن قيس بن يزيد النخعي، وعلقمة بن قيس بن يزيد عم الأسود في عدة آخرين. فسألوا عنه ليسلموا عليه فوجدوه وقد توفي. فقال جرير: هذه غنيمة ساقها الله إلينا. فحنطه جرير وكفنه ودفنه وصلى عليه –ويقال بل صلى عليه الأشتر– وحملوا امرأته حتى أتوا بها المدينة.»

وأما الواقدي –لدى البلاذري– فيجعل عمراً آخر لعثمان هو الذي صلى عليه: عبد الله بن مسعود.

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه رواية تقول بأنه عندما كان أبو ذر مريضاً يوشك على الموت وهو منفيٌّ بالربذة مرَّ به قوم من المسلمين فاستوقفتهم زوجته لكي يكفنوا زوجها إن قضى نحبَهُ، فخاطبهم أبو ذر قائلاً «إني أشهدكم أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً!

فليس أحد من القوم إلاّ قارف بعض ذلك، إلاّ فتى من الأنصار فقال: يا عم أنا أكفنك، لم أصب مما ذكرت شيئاً. أكفنك في ردائي هذا وفي ثوبين في عيبتي من غزل أمي حاكتها لي.

فكفنه الأنصاري في النفر الذين شهدوه، منهم حجر بن الأدبر ومالك بن الأشتر في نفر كلهم يمان.»

وهنا يضيف ابن حبان اسم عدوّ آخر للحكم الأموي: حجر بن عدي الكندي (وهو الذي أعدمه معاوية فيما بعد).

وفي الروايات التي مرت كلها لا يمكن تصديق تلك الصفة العجيبة التي تجعل أشخاصاً من أمثال الاشتر أو حجر بن عدي هم بالذات الذين يصادف مرورهم بالربذة أثناء أو بعيد وفاة أبي ذر. هنا يظهر تدخل الرواة.

## كيف لخص الامام البخاري موضوع ابي ذر؟

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال مررتُ بالربذة فاذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه.

*فقلتُ له: ما انزلك منزلك هذا؟*

*قال: كنتُ بالشام فاختلفتُ أنا ومعاوية في (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ). قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلتُ نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذاك.*

*وكتب الى عثمان رضي الله عنه يشكوني.*

*فكتب إلي عثمان أن اقدم المدينة.*

*فقدمتها، فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك.*

*فذكرتُ ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئتَ تنحيتَ فكنتَ قريباً*

*فذاك الذي أنزلني هذا المنزل.*

*ولو أمّروا علي حبشياً لسمعتُ وأطعتُه*

والرواية هذه مختصرة جداً، وتخفي أكثر مما تكشف. وهي تحاول أن تقول ان خلافاً فقهياً بين الصحابيين، بشأن تفسير آية قرآنية كان أساس المشكلة كلها. ولا تتحدث هذه الرواية عن علاقات بين عثمان وابي ذر ولا عما جرى بينهما. وتستخدم هذه الرواية الصيغة الملطفة والناعمة المعتادة التي «إن شئتَ تنحيتَ»، وهذه الصيغة حمالة اوجه. وتختم الرواية بالقول الشائع المنسوب الى أبي ذر عن السمع والطاعة.

ولكن الامام البخاري نفسه في موضع آخر من صحيحه أخرج ما يتعلق بمشاكل أبي ذر مع عثمان.

روى البخاري في صحيحه (باب العلم قبل القول والعمل). «قال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه -وأشار إلى قفاه- ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي(ص) قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها» . (والصمصامة هي السيف الصارم)

ولما كانت هذه الرواية مبتسرة وتخلو من مقدمة الحديث التي يظهر فيها السبب الذي دفع أبا ذر إلى القول أنه سيبلّغ حديث النبي(ص) حتى لو تعرض للقتل بسبب ذلك، فقد تولّى شارحُ صحيح البخاري توضيح ذلك. فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في شرح صحيح البخاري أن أبا ذر كان جالساً عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع إليه الناس يستفتونه فأتاه رجلٌ فوقف عليه ثم قال: ألم تُنهَ عن الفتيا؟!

فرفع أبو ذر رأسه إليه وقال: أرقيبٌ أنتَ عليّ؟! لو وضعتم الصمصامة.....

وذكر ابن حجر «أن الذي خاطبه رجلٌ من قريش وأن الذي نهاه عن الفتيا عثمانُ رضي الله عنه»

وهذا يعني أن عثمان قد حاول لجم أبي ذر وإسكاته، ولكن لما فشل في ذلك واستمرّ أبو ذر في إشاعة أحاديث الرسول(ص) والفتيا لمن يريده من المسلمين، لجأ عثمان الى الحل الأخير وهو النفي القاسي.

وأيضا ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج2 ص354) أن الرجل قال لأبي ذر «ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟»

## أكاذيب: دفاعاً عن عثمان ومعاوية

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بشأن أبي ذر «واعلم أن أصحابنا رحمهم الله قد رووا أخباراً كثيرة معناها أنه أُخرج الى الربذة باختياره»

وكمثال على ذلك روى عن قاضي القضاة في «المغني» عن شيخه أبي علي «ان معاوية كتب يشكوه وهو بالشام. فكتب اليه عثمان: أن صر الى المدينة.

فلما صار إليها قال له: ما أخرجك إلى الشام؟

قال: لأني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إذا بلغت عمارة المدينة موضع كذا فاخرج منها. فلذلك خرجتُ.

فقال: أي البلاد أحبّ إليك بعد الشام؟

قال: الربذة.

قال: فسر إليها!

وبعد أن أخرج بعض روايات أخرى بهذا الاتجاه، أعلن العلامة ابن أبي الحديد رأيه القيم:

ونحن نقول: وهذه الأخبار، وإن كانت قد رويت، لكنها ليست في الاشتهار والكثرة كتلك الأخبار.

والوجه أن يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظن بفعله: إنه خاف الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنه أن إخراج أبي ذر إلى الربذة أحسمُ للشغب، وأقطعُ لأطماع من يشرئب إلى شق العصا. فأخرجه مراعاة للمصلحة، ومثل ذلك يجوز للإمام.

هكذا يقول أصحابنا المعتزلة، وهو الأليق بمكارم الأخلاق. فقد قال الشاعر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة    فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

وإنما يتأوّل أصحابنا لمن يحتمل حاله التأويل كعثمان. فأما من لم يحتمل حاله التأويل، وإن كانت له صحبة سالفة كمعاوية وأضرابه، فإنهم لا يتأولون لهم إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وجه لتأويلها، ولا تقبل العلاج والإصلاح؟

أي أن ابن أبي الحديد يقول أنه لا داعي للكذب والتلفيق واختراع الروايات للدفاع عن عثمان فيما قرره بشأن أبي ذر الغفاري، فالصحيح هو الاقرار بما ارتكبه عثمان بحق أبي ذر، ولكن لا بد من محاولة التماس عذر وتأويل لما فعله الخليفة على أساس حقه في تقدير المصلحة العامة للمسلمين، باعتبار ان

عثمان صحابي قديم من المهاجرين مما يجيز حسن الظن به، بخلاف معاوية ومجموعته الذين لا تسمح شناعة أعمالهم بالتماس أعذار لهم.

كما ان ابن شبة النميري في تاريخ المدينة قد أخرج عدة روايات بشأن الخروج الطوعي لأبي ذر الى الربذة. وهذه الروايات أقل ما يقال فيها بأنها هزيلة وركيكة ومبتسرة، ويظهر فيها أبو ذر وكأنه مضرب المثل في الطاعة والولاء لعثمان، الى حد القول انه لو طلب منه أن يحبو على الارض لحبا ! وبعض الرواة يذكر ان ابا ذر كان يقول لعثمان انه ليس من الخوارج ! وأخرى تنسب للرسول (ص) أمراً بشأن إخراج ابي ذر. وبعضها تتحدث عن حرص عثمان على راحة ابي ذر في منفاه الطوعي .... وما شابه ذلك من أخبار.

بل انه روى كيف ان محمد بن سيرين كان يغضب بشدة إذا سمع أحداً يقول ان عثمان أخرج أبا ذر الى الربذة، ويصرّ على انه خرج من تلقاء نفسه!

وكذلك ابن كثير في البداية والنهاية تجاهل كل ملابسات وفاة أبي ذر وخلفياتها واختزلها بالقول «خرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم نزل الربذة فأقام بها حتى مات».

## كيف تناول الطبري هذا الموضوع؟

قد أعرض عن كل الروايات التي تكشف عن حقيقة ما جرى، واختار فقط ما رواه سيف بن عمر، لأنه الكاتب الوحيد الذي حفظ للسلطان ماء وجهه، واستنقذه من عواقب تلك الأحداث كما صرح بذلك الطبري نفسه في مستهل حديثه عن هذه القصة، فقال:

«في هذه السنة، أعني الهجرة كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية، وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة. وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها أمورٌ كثيرة كرهتُ ذكر أكثرها.

فأما العاذرون معاوية فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السري يذكر أن شعيباً حدثه سيف ....»

ويسرد الطبري هذه القصة مردداً بين فقراتها (قال سيف) (قال سيف)

حتى أتى على آخرها. ثم قال: «وأما الآخرون فإنهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهتُ ذكرها».

إذن يقرر الطبري، صاحب الموسوعة التاريخية الكبرى، أن ينقل فقط رواية سيف، ولا شيء غيرها! إذن هو يقرر أن يروي ما قاله «العاذرون معاوية» فقط. وأما الآخرون فالطبري كره ذكر أخبارهم!

والآن ما هي رواية سيف بن عمر التي يتمسك بها الطبري فلا يروي سواها؟

«لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر، فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية، يقول المال مال الله؟! ألا إن كل شيء لله، فكأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين!

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟!

قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟

قال: فلا تقله.

قال: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين.

وأتى ابن السوداء أبا الدرداء. فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً.

فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به، فأتى به معاوية. فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر!

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس.»

ثم يذكر تسيير معاوية أبا ذر إلى المدينة على أحسن هيئة، فيكرمه الخليفة، رضي الله عنه، أحسن إكرام ويتلطف به، غير أن أبا ذر يصر على أن يهجر المدينة ليرتد أعرابياً فيذهب باختياره إلى المنفى في الربذة، بناءً على وصية النبي (ص) له بأن يخرج من المدينة إذا بلغ البناء فيها منطقة سلع! وأن عثمان أكرمه وأعطاه إبلاً ومملوكين لرعايته.

وواضحٌ من هذه القصة أنها فُصّلت لكي تدافع عن الحكام: عثمان ومعاوية.

ولكن وللأسف فإن ترويج هكذا رواية من قبل الطبري فيه إساءة عظيمة لواحد من أرفع الصحابة السابقين إلى الإسلام مكانة، وهو أبو ذر؛ ففي سبيل الدفاع عن الحكام رضي الطبري أن يجعل أبا ذر في موقف التابع الغبيّ لإرادة اليهودي الماكر (وهو ابن سبأ الذي يلقبه بابن السوداء)، ثم جعل منه رجلاً متمرداً على الخليفة بإيعاز من ذلك اليهودي، ثم جعل منه مرتداً أعرابياً بعد الهجرة!

إن الطبري باختياره هذا يصرح بالقول والفعل أنه قد وقف إلى جانب الأمير الغالب ملتمساً له العذر على كل حال، وإن لم يجد هذا العذر إلا عند الوضّاع سيف بن عمر. وهذا هو السبب الوحيد الذي يفسر إعراضه المعلن عن سائر أحاديث «العاذرين أبا ذر» - وهو الطرف المغلوب - واكتفاءه برواية «العاذرين معاوية» - وهو الأمير الغالب.[1]

ولم يوضح سيف بن عمر في روايته هذه ماذا فعل معاوية بابن السوداء بعد أن أحضره له عبادة بن الصامت؟ ولكن أخذاً بعين الاعتبار ما يرويه سيف عن نشاط ابن السوداء اللاحق في بلاد أخرى، فلا بد من الاستنتاج أن معاوية قد أطلقه، بكل بساطة!

وعدا عن كل هذا التهافت في رواية سيف بن عمر، فإن هناك اشكالاً من حيث الشكل أيضاً. فسيف بن عمر نفسه يذكر أن ابن سبأ، الذي يسميه ابن السوداء، كان موجوداً في البصرة بعد عام 32 للهجرة! فقد روى الطبري عنه في تاريخه أنه «لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين، نزل عبد الله بن سبأ ضيفاً على أتباعه في البصرة وعلى رأسهم حكيم بن جبلة العبدي، فاجتمع إليه نفر فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح فقبلوا منه واستعظموه.

وأرسل إليه ابن عامر فسأله: ما أنت؟

---

(1) وفي موضع آخر، أعلن الطبري أنه ترك الإعراض عن ذكر كثير من الأسباب التي كانت وراء الثورة التي أدت إلى قتل عثمان. فقال: «أعرضت عن ذكر كثير منها لعلل دعت إلى الإعراض عنها». ولم يوضح ماهية تلك العلل، إلا أنه من الواضح أن ذلك يندرج في نطاق سعيه للدفاع عن عثمان.

فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام، ورغب في جوارك

فقال: ما يبلغني ذلك. اخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقر بمصر...»

وبما أن ابن عامر تولى منصبه عام 29 للهجرة، فلا شك أن هذا الاجتماع المذكور بينه وبين ابن سبأ كان في سنة 33 أو 32 على أقل تقدير.

بينما نجد سيفاً نفسه يقول في رواية أخرى له «كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر...»

وهذا يعني أن ابن سبأ قد توجه إلى الشام بعد البصرة والكوفة. فمتى اجتمع بأبي ذر الغفاري بالشام؟ فأبو ذر توفي في عام 30 للهجرة[1]، وبالتالي كيف يمكن أن يكون موجوداً في دمشق، ليجتمع مع ابن سبأ بعد ثلاثة أعوام من وفاته؟!

## ثانياً: مشكلة عبد الله بن مسعود[2]

### خلفية ابن مسعود

وعبد الله بن مسعود هو أيضاً من الشخصيات الإسلامية البارزة، بامتياز. فقد كان من السابقين الأولين للإيمان بمحمد(ص) في الفترة المكية من

---

(1) تقول روايات البلاذري في أنساب الأشراف أنه توفي سنة 31

(2) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج1 ص277)، صحيح البخاري (باب مناقب عبد الله بن مسعود ج5 ص35)، سنن الترمذي باب مناقب عبد الله بن مسعود (ج5 ص 673 رقم 3806)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص256 و ص260)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص150) و (ج2 ص116)، مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج1 ص458)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج3 ص96)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص1047 و ص1048 و ص1051 و ص1050)، التاريخ الصغير للإمام البخاري (ج1 ص66)، طبقات خليفة بن خياط (ص42)، تاريخ الطبري (ج2 ص421 و ص130)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص183)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج33 ص136–137–143–180–191) و (ج33 ص340 و ص342)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص472–497)، فتح الباري لابن حجر (ج7 ص45) و كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 – ص391) و أنساب الأشراف للبلاذري (ج5 ص140)

دعوته. وابن مسعود كان من الضعفاء والفقراء في مكة، فهو ذو أصلٍ متواضع، من قبيلة هُذيل.

وبلغ من شدة حماسه للدين الذي آمَنَ به أنه كان أولَ مَن أجهرَ على الجَهر بقراءة القرآن على مسامع جبابرة قريش في مكة، فناله أذىً شديد جزاء ذلك كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام.

وقد شارك في معركة بدر، وكان له شرف الاجهاز على أبي جهل فقد حين وجده بين الحياة والموت بعد أن طعنه الفتيان الأنصاريان. ويروى أن أبا جهل، وهو في لحظاته الأخيرة، قد وصفه بـ «رويعي الغنم» مما يدل على الإحتقار الذي كان ابن مسعود يلقاه من كبراء قريش.

وفي الفترة المدنية كان ابن مسعود شديد القرب من رسول الله (ص)، كما ذكر البخاري في صحيحه (باب مناقب عبد الله بن مسعود)، حيث قال أنه من كثرة دخوله وخروجه هو وأمه من وإلى بيت النبي (ص) ظنّه أبو موسى الأشعري من أهل البيت: «*قدمتُ أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينا ما نرى إلاّ أنّ عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي(ص)، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي(ص)*».

وقد صار ابن مسعود من أبرز المختصين بالقرآن، قراءته وتلاوته وأسباب نزوله وعلومه.

جاء في سنن الترمذي «عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله(ص): *خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة*».

**الخلاف بين ابن مسعود والخليفة**

ومن استعراض الروايات المختلفة التي تتحدث عن خلاف ابن مسعود وعثمان، يمكن القول انه كان هناك سببان للمشكلة:

**السبب الأول: هو ممارسات الوليد بن عقبة بن أبي معيط في الكوفة، وعدم سكوت ابن مسعود عنه**

والظاهر أن الخلاف بين ابن مسعود والخليفة بدأ مع قدوم والي، الفاسق المستهتر بشؤون الدين، الوليد بن عقبة، إلى الكوفة. ولا شك ان الوليد بن

عقبة، بكل ما في نفسه من كبر وخيلاء، لم يكن لينسى ان ابن مسعود كان في ماضي الايام راعياً لغنم أبيه. فقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة وابن سعد في الطبقات الكبرى في قصة هجرة النبي (ص) الى المدينة عن ابن مسعود «كنتُ غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن ابي معيط أرعاها ...».

ولقد كان ابن مسعود على بيت مال المسلمين في الكوفة (وكان عمر قد ولاّه ذلك) حين بعث عثمانُ الوليدَ بن عقبة والياً عليها. ومن المرجح أن الوليد لم يكن ليقبل أن يحاسبه ابن مسعود على تصرفاته وقراراته، لأنه كان متعباً جداً من علاقته الخاصة بالخليفة.

وكان ابن مسعود يعتبر أموال المسلمين أمانة في عنقه، ولا يحتمل أي عبث بها. فهو على هذا الصعيد من مدرسة عمر بن الخطاب.

فكان الصدام بين الرجلين أمراً حتمياً: إن كان بحكم وظيفة ابن مسعود كأمين على بيت المال، أو كان بحكم وضعه كصحابي عريق له مسؤولية معنوية عن أخلاق وتعاليم الاسلام الصافي الذي جاء به محمد (ص).

ولقد حصل الصدام بالفعل في الاتجاهين :

ولقد تطرقنا الى ما فعله الوليد من شرب للخمر وتهتك في الصلاة وعبث مع السحرة وغيرها من سلوكيات كانت طبعاً تثير حفيظة ابن مسعود وتدفعه الى المواجهة. فقد روى الامام أحمد في مسنده «أن الوليد بن عقبة أخر الصلاة مرة. فقام عبد الله بن مسعود فثوب بالصلاة فصلى بالناس.

*فأرسل اليه الوليد: ما حملك على ما صنعت؟ أجاءك من أمير المؤمنين أمر فيما فعلت أم ابتدعت؟*

*قال: لم يأتني أمر من أمير المؤمنين ولم أبتدع. ولكن أبى الله عز وجل علينا ورسوله أن ننتظرك بصلاتنا وأنت في حاجتك»*[1]

وقد أخذ الوليدُ مالاً من بيت المال دون وجه معلوم، ودون إذن ابن مسعود.

(1) روى مثل هذه الرواية أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق

«روى ابن عبد ربه في العقد الفريد عن عبد الله بن سنان قال: خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد وكان على بيت مال الكوفة، وأمير الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقال: يا أهل الكوفة، فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب من أمير المؤمنين، ولم يكتب لي بها براءة.

قال: فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان في ذلك، فنزعه عن بيت المال»

وأما البلاذري في أنساب الأشراف فروى عن أبي مخنف أن الوليد قد أخذ قرضاً من بيت المال، أي بعلم ابن مسعود، ولكنه لم يرده «لما قدم الوليد الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذه فأقرضه عبد الله ما سأله. ثم إنه تقاضاه إياه. فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان. فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود: إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال.

فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك. وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال[1]»

وهكذا تخلص الوليد من ابن مسعود:

جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري «أن الوليد بن عقبة كتب إلى عثمان رضي الله عنه ينقصه على ابن مسعود وأن عثمان رضي الله عنه سيره من الكوفة إلى المدينة وحرمه عطاءه ثلاث سنين»

(1) وقد تعرضنا سابقاً إلى الروايات التي تحدثت عن خلاف الخليفة عثمان مع خازن بيت المال عبد الله بن الأرقم والذي استقال احتجاجاً على سياسة عثمان المالية. وتلك الروايات فيها عبارات مشابهة لتلك المنسوبة إلى ابن مسعود «إنما أنت خازن لنا ... وإلقاء المفاتيح». ولكن لا مانع من قبول الروايتين لأن ابن الأرقم كان خازن بيت المال في المدينة بينما ابن مسعود كان خازن بيت مال الكوفة. وليس غريباً تشابه رد الفعل من قبل الرجلين لأن ذلك متوقع من المسلم المخلص الأمين تجاه تجاوزات الحاكم.

السبب الثاني، وهو الأشهر: قرار عثمان بحرق كل المصاحف، بما فيها مصحف ابن مسعود، واعتماد نسخة زيد بن ثابت فقط.

وكان شيئاً ظالماً من كره ابن مسعود لعثمان وسياساته، ما سبق وقرره عثمان من إحراق مصحفه بالعراق، واعتماد المصحف الذي أوكل مهمة نسخه لزيد بن ثابت، الذي اعتبره ابن مسعود غير مؤهل آنذاك لهكذا مهمة.

وبعد وفاة الرسول(ص)، أصبح ابن مسعود قلعةً ملجأً إليه عامة المسلمين، من أهل العراق خاصةً، ليتعلموا القرآن. وكان ابن مسعود قد كتب المصحف بنفسه وبيده، كما سمعه من رسول الله(ص)، وكان فخوراً جداً بمصحفه الذي كان يعتني به كثيراً ويعلمه الناس في العراق مع شروحاته لأسباب نزول الآيات وسيرة النبي(ص).

روى اليعقوبي في تاريخه "وجمع عثمان القرآن وألفه، وصير الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخل، وقيل أحرقها، فلم يبق مصحف إلا فعل به ذلك..."(1)

فكان غضب ابن مسعود شديداً بسبب حرق مصحفه هو، واعتماد مصحف يكتبه زيد بن ثابت كنسخة نهائية لعموم المسلمين "قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: مالك لا تقرأ على قراءة فلان؟ فقال: لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة فقال لي: لقد أحسنت، وإن الذي يسألوني أن أقرأ على قراءته في صلب رجل كافر"(2)

وفي ترجمة ابن مسعود لدى ابن عساكر (تاريخ دمشق) ليس هناك كلام صريح عن غضب ابن مسعود لحرق مصحفه واعتراضه على عثمان. ولكن هناك إشارات غير مباشرة لذلك. فبعض الروايات تتحدث عن قوله بشأن زيد

---

(1) وحسب تاريخ اليعقوبي ينحصر سبب الخلاف بين ابن مسعود وعثمان في مسألة حرق المصاحف. فهو لم يتحدث عن مشاكل ابن مسعود مع الوليد. وربما يرجع ذلك الى ميل اليعقوبي للاختصار والتلخيص والتركيز على ما هو أشهر.

(2) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري

بن ثابت، دون الإشارة إلى عثمان. فقد أخرج روايات الأعمش عن أبي وائل وعلقمة بن قيس وشقيق وفيها ان ابن مسعود قال «لقد أخذت من في رسول الله (ص) بضعاً وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة يلعب مع الغلمان» أو «كيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله(ص) بضعاً وسبعين سورة وان زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان» أو رواية ابي عوانة عن اسماعيل بن سالم عن ابي سعد الأزدي «أقرأني رسول الله (ص) سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت»

فعبد الله بن مسعود لم يصدّق أن عثمان يختار زيد بن ثابت بالذات لهكذا مهمة حساسة فرسول الله(ص) كان أكبر من زيد بأربعين سنة على الأقل[1]، وبالتالي لم يكن زيد، بنظر ابن مسعود، قد عاصر رسول الله(ص) بما يكفي لكي يختاره عثمان من بين بقية الصحابة الأكبر، والأعلم بالقرآن منه. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن زيداً كان حدثاً صغيراً يوم أحد، حتى أن رسول الله(ص) لم يُجزه لكي يكون في الجيش. وبالتالي فإن زيداً كان عمره حوالي 34 عاماً فقط في بداية عهد عثمان، على افتراض أن عمره يوم أحد كان 13 عاماً.

## العقوبة

ذكر ابن الاثير في أسد الغابة أن عثمان أرسل الى ابن مسعود يأمره بالقدوم الى المدينة فقال له اهل الكوفة «أقم ونحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه»[2]. ثم اورد خبراً آخر عن عيادة الخليفة لابن مسعود أثناء مرضه وعرضه عليه عطاءه، وأن ابن مسعود رفض لأن النبي(ص) قال له ان من قرأ سورة الواقعة لن يصيبه الفقر. وعلق ابن الاثير على هذا الموقف عارضاً قال له عثمان ألا آمر لك بعطائك لأنه كان قد حجبه عنه سنتين[3]...»

---

(1) ذكر البخاري في التاريخ الصغير أن زيد بن ثابت شهد الخندق وكان ابن خمس عشرة.
(2) وهذا يدل على حبهم أن يناله سوء، رغم أن ابن الاثير لم يوضح سبب ذلك
(3) ومن قبيل الامانة العلمية ذكر ابن الاثير الرواية الأخرى المتضمنة للدفاع عن الخليفة، ولكنه ذكرها بصيغة تشي بتشككه بها «وقيل: بل كان عبد الله ترك العطاء استغناء عنه»

وقد أخرج الذهبي (في سير اعلام النبلاء) أن الخليفة أرسل يأمر ابن مسعود بالقدوم من الكوفة فحلف عليه الناس فلما بعث عثمان الى ابن مسعود يأمره بالمجيء الى المدينة، اجتمع اليه الناس فقالوا: أقم فلا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه. فقال: ان له علي طاعة، وانها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها. فرد الناس وخرج اليه!

ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى عن هشام بن عروة عن ابيه أن عثمان حرم ابن مسعود عطاءه لمدة سنتين وأن الزبير ذهب إلى عثمان وطالبه بعطاء ابن مسعود بعد موته وقال له « أعطني عطاء عبد الله . فأهل عبد الله أحق به من بيت المال.

فأعطاه عطاءه عشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً »[1]

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر هناك اعتراف من عثمان منع عن ابن مسعود عطاءه (دون الاشارة الى السبب). ففي رواية عن يحيى بن ابي زكريا الغساني عن هشام «أوصى عبد الله بن مسعود الى الزبير وكان عثمان بن عفان قد حبس عطاءه سنتين»[2]. وهذه كانت أكثر الروايات صراحة ان عثمان منعه عطاءه ولكن حتى سياق غيرها - المخففة - يوحي بذلك ايضا. فمثلا رواية شجاع عن ابي ظبية ان عثمان لما عاده في مرضه قال له «ألا آمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه اليوم. قال: تدعه لأهلك وعيالك. قال: قد علمتهم شيئا اذا قالوه لم يفتقروا، سمعت رسول الله (ص) يقول: من قرأ الواقعة كل ليلة لم يفتقر».

وهناك روايات تقول ان عقوبة ابن مسعود لم تقتصر على حرمانه من عطائه، بل انه تعرض الى عقوبة جسدية (الضرب). ومن ذلك النص الذي أورده ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح وفيه يلوم الزبيرُ بن العوام الخليفة عثمان على تصرفاته، وكان مما فيه «ما لك ولعبد الله بن مسعود هجرت قراءته

(1) لم يوضح ابن سعد هنا طبيعة المشكلات بين الخليفة وابن مسعود.
(2) وتقع هذه الرواية اخرجها ابن عساكر ايضاً من طريق الفضل بن دكين عن حفص بن غياث عن هشام بن عروة بن الزبير

وأمرت بعوسج جلبته، فهو في بيته لما به وقد آلمه ورسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عثمان: إن الذي بلغني من ابن مسعود أكثر مما بلغت منه، وذلك أنه قال: وددتُ أني وعثمان برمل عالج يحث علي وأحث عليه حتى يموت الأعجز منا»

ومن هؤلاء اليعقوبي الذي روى في تاريخه أنه كان ابن مسعود بالكوفة، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر[1]، وكتب إليه عثمان: أن أشخصه، إنه لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمة فساداً.

فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء! فكلمه ابن مسعود بكلام غليظ، فأمر به عثمان فجُرّ برجله حتى كُسر له ضلعان، فتكلمت عائشة وقالت قولاً كثيراً ......»

وقد ذكرنا سابقاً رواية البلاذري في أنساب الأشراف التي تذكر أن عثمان قد أمر بإخراجه بعنف من المسجد ثم الاعتداء عليه وضربه بقسوة مما استدعى تدخل علي بن أبي طالب لرعايته، وفي نفس تلك الرواية وصف عثمان الشنيع له «دويبة سوء»

وعلى الرغم من روايات ابن أعثم واليعقوبي والبلاذري هذه، إلا أنني استبعد أن يكون عبد الله بن مسعود قد تعرض للضرب والإهانة بهذه الطريقة (الدوس بطنه، كسر ضلعه... ). فالأغلب وجود مبالغة هنا. كذلك الأمر بالنسبة لكلمة عثمان «دابة سوء»، فلا يعقل أن يستقبله بشتيمة كهذه لدى دخوله المسجد. فما أرجحه هو قيام عثمان بلومه وعتابه بلهجة حازمة واتهامه بخلق الشقاق والخلاف فدافع عن نفسه فاستفز عثمانُ فقام بإهانته وطرده من المسجد وحرمه من عطائه. وربما تعرض ابن مسعود للدفع الخشن من قبل بعض رجال الخليفة مما أدى إلى سقوطه وإصابته.

### نهاية ابن مسعود

واستمر هذا العقاب القاسي إلى أن شارف ابن مسعود على الموت.

---

(1) ويلاحظ هنا خطأ الراوي في ذكر عبد الله بن عامر الذي كان والياً على البصرة لا الكوفة.

حينما رقّ الخليفة فذهب يعوده عارضاً عليه عطاءه الذي حرمه منه لسنوات طويلة، ولكنه تلقى صفعة مؤلمة من ابن مسعود صاحب النص الآتية:

«لما بلغ عثمان أن عبد الله مريض، حمل إليه عطاءه، خمسة عشر ألفاً، وكان عطاء البدريين خمسة آلاف. فدخل عليه عثمان رضي الله عنه فقال: كيف تجدك؟

قال: مردود إلى مولاي الحق.

قال: يرحمك الله. كأنها قلت: هذا عطاؤك خمسة عشر ألفاً فاقبضه.

قال: منعتنيه إذ كان ينفعني! فأنا آخذه منك يوم القيامة.

فانصرف ولم يقبل عطاءه»[1]

وقد بلغ من شدة كره ابن مسعود للخليفة وشعوره بالظلم أنه أوصى ألاّ يصلي عليه عثمان! فجاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري:

«أوصى عبد الله إلى الزبير وأمره ألاّ يصلّي عليه عثمان.

فلما مات عجّله.

وانتهى عثمان رضي الله عنه إلى القبر حين نفضوا أيديهم من التراب.

فقال: يا زبير! لم لم توذن أمير المؤمنين ولم تعلمه؟

قال الزبير: إنما كرامة الميت تعجيله.

فقال عثمان رضي الله عنه: فعلتَ هذا صنعاً، لم يكن بك تعجيله. لولا أن تكون سنة لنبشته حتى أصلي عليه. فقال الزبير: ما كنتَ تصل إلى ذلك. وتفرقا»[2].

وواضح من النص كيف أن الخليفة شعر بإهانة عظيمة بسبب وصية ابن مسعود إلى حد انه فكر بإخراجه من القبر ليصلي عليه لم يعاد دفنه!

ويذكر ابن الأثير في أسد الغابة ان عبد الله بن مسعود توفي سنة 32

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري
(2) وأيضاً يروي خليفة بن خياط في طبقاته أن الزبير بن العوام هو الذي صلى على ابن مسعود بعد وفاته.

للهجرة فوصلى عليه عثمان، وقيل صلى عليه عمار بن ياسر، وقيل صلى عليه الزبير ودفنه ليلاً، أوصى بذلك، وقيل لم يعلم عثمان رضي الله عنه بدفنه فعاتب الزبير على ذلك»

وروى اليعقوبي في تاريخه «واعتلّ ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرتُ الذي فعلته بي: إنك أمرتَ بي فوطئ جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي.

قال: فإني أقيدك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعلتُ بك!

قال: ما كنتُ بالذي أفتح القصاص على الخلفاء. قال: فهذا عطاؤك فخذه.

قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا غني عنه؟ لا حاجة لي به.

فانصرف. فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي. وصلى عليه عمار بن ياسر وكان عثمان غائباً فستر أمره فلما انصرف رأى عثمان القبر فقال: قبر من هذا؟ فقيل: قبر عبد الله بن مسعود قال: فكيف دفن قبل أن أعلم؟ فقالوا: ولي أمره عمار بن ياسر. وذكر أنه أوصى ألاّ يخبر به ...»

وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى «قال محمد بن عمر: وقد روي لنا أنه صلى على عبد الله بن مسعود عمار بن ياسر. وقال قائل: صلى عليه عثمان بن عفان. واستغفر كل واحد منهما لصاحبه قبل موت عبد الله.

قال: وهو أثبتُ عندنا ان عثمان بن عفان صلى عليه»

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عروة أن عثمان كان قد حرم ابنَ مسعود عطاءه لمدة سنتين، فلما مرض ابنُ مسعود جاءه عثمان عائداً وعرض عليه أن يأمر له بعطاء فرفض وقال: لا حاجة لي به.

وروى أيضاً أن ابن مسعود قد أوصى الى الزبير ان يصلي عليه، وان الزبير قد راجع عثمان بعد وفاته وطالبه بعطاء ابن مسعود «أعطني عطاء عبد الله، فعيال عبد الله أحق به من بيت المال. فأعطاه خمسة عشر ألفاً»

وأخيراً فإن أغلب الروايات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق تشير الى ان عبد الله بن مسعود قد أوصى للزبير وأنه الذي صلى عليه (وليس عثمان كما هو مفترض كونه الخليفة)، وان الزبير قد أخذ عطاءه من عثمان بعد وفاته

وهو خمسة عشر ألفا لعياله. وتوجد روايات قليلة تشير ان الذي صلى عليه كان عمار بن ياسر «أو عثمان بن عفان».

### انحياز بعض الرواة والمؤرخين ضد ابن مسعود

ومن هؤلاء الامام الذهبي، فهو في ترجمة ابن مسعود من سير أعلام النبلاء لم يورد أي شيء من علاقته بالوليد بن عقبة. ولكنه ذكر الروايات التي تفيد بغضبه من تولية زيد بن ثابت كتابة المصحف وبأنه كان يعارض ذلك لعدم أهلية زيد بنظره. ففي رواية قال عبد الله: *لقد قرأتُ من في رسول الله(ص) سبعين سورة، وزيد له ذؤابة يلعب مع الغلمان*» وفي رواية أخرى أنه قال عن زيد *والله لقد أسلمتُ وإنه لفي صلب أبيه كافر*».

وقد دافع الذهبي عن عثمان ولام ابن مسعود على موقفه الرافض لزيد بن ثابت فقال «*انما شق على ابن مسعود لكون عثمان ما قدمه على كتابة المصحف، وقدم في ذلك من يصلح أن يكون ولده. وانما عدل عنه عثمان لغيبته عنه بالكوفة، ولأن زيداً كان يكتب الوحي لرسول الله(ص)، فهو إمام في الرسم وابن مسعود فإمام في الأداء. ثم ان زيداً هو الذي ندبه الصديق لكتابة المصحف وجمع القرآن، فهلا عتب على أبي بكر؟ وقد ورد ان ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد. وفي مصحف ابن مسعود أشياء أظنها نسخت. وأما زيد فكان أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي(ص) عام توفي على جبريل*»

وهذا رأي له وجاهة من قبل الامام الذهبي. وهو لا يستند الى تزييف للحقائق التي لا ينكرها (بشأن الخلاف الذي حصل). ولذلك يجب احترام رأيه. وهذا يختلف عن سيف بن عمر الذي يسعى لترويج آرائه المؤيدة لعثمان عن طريق اختلاق الروايات وتلفيقها.

فهكذا جاءت روايات سيف بن عمر كما ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق: فقد ذكر احتكاكا بين ابن مسعود والوليد، ولكنه روى ذلك في سياق الدفاع عن الوليد وتبرئته! فبعد ان تحدث عن كيد الحاقدين على الوليد له، ودخولهم عليه وقصة «قطف العنب» الذي وجدوه مخفيا لديه اضاف قائلا:

الوليد يتكشف على الخمر، وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس. فقال ابن مسعود: من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره.

فأرسل إلى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك وقال: أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين؟ على أي شيء أستتر به؟ إنما يقال هذا للمريب.

فتلاحيا وافترقا على تغاضب. ولم يكن بينهما أكثر من ذلك»

كما حبّ سيف بن عمر لإنقاذ سمعة عثمان «كان ابن مسعود قد ترك عطاءه حين مات عمر[1]. وفعل ذلك رجال من أهل الكوفة أغنياء. واتخذ ضيعة براذان فملكت من تسعين ألف مثقال سوى رقيق وعروض وماشية بالسيلحين. فلما رأى الشر وجنوح الفتنة استأذن عثمان فلم يأذن له قرب موته فقدم على عثمان فلم يلبث أن مات. فوليه عثمان وبينهما أشهر» وواضح مدى التهافت في هذه الرواية التي جعلت من ابن مسعود رجلا غنيا إقطاعيا له ضياع وأموال وعبيد وماشية في نواح من العراق بحيث قرر أن يتخلى عن عطائه «حين مات عمر!» كما أن الفارق الزمني بين وفاة ابن مسعود وعثمان لم يكن بضعة أشهر بل سنوات. فابن مسعود مات حسب أغلب الروايات سنة 32 للهجرة بينما قتل عثمان سنة 35 ا وبالتالي يكون قول سيف «لما رأى الشر وجنوح الفتنة» مردودا عليه بالتأكيد.

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد أغفل الحديث عن أي خلافات بين ابن مسعود وعثمان في خلال استعراضه لوفاة ابن مسعود. ويبدو التعمد واضحاً في إخفاء المعلومات من طرف ابن كثير: فهو يتحدث عن عيادة عثمان لابن مسعود في مرضه وعرضه عليه عطاءه «وكان قد تركه سنتين» وامتناع ابن مسعود عن أخذه ورفضه حتى أن يعطيه لبناته من بعده «لأنه أوصاهن بقراءة سورة الواقعة التي لن يفتقر من يقرأها كل ليلة». ولم يشر ابن كثير إلى مشاكل ابن مسعود مع الوليد ولا إلى حرق مصحفه. ورغم ذلك يعترف أن ابن مسعود قد أوصى للزبير «فيقال إنه هو الذي صلى عليه ليلاً، ثم عاتب عثمان الزبير على ذلك، وقيل بل صلى عليه عثمان، وقيل عمار، فالله أعلم». لم يذكر ابن كثير الأسباب.

---

(1) والذهبي أيضاً (في سير أعلام النبلاء) روى عن سيف بن عمر ما يشير إلى أن ابن مسعود كان قد ترك عطاءه طواعية «أن ابن مسعود ترك عطاءه حين مات عمر» دون أن يذكر السبب الذي يجعله يأخذ عطاء عمر ويرفضه في زمن عثمان؟

## ثالثاً: ما حصل لعمار بن ياسر على أيدي الخليفة عثمان[*]

### خلفيات العلاقة بين عمار وعثمان

كان عمار بن ياسر من المشهورين في السبق للإسلام هو وأبوه وأمه. وكانوا من المستضعفين في مكة، من حلفاء بني مخزوم. وبعد دخولهم في الإسلام تعرضوا لتعذيب فظيع على أيدي جبابرة قريش، وبني مخزوم بالأخص، مما أدى إلى استشهاد أبويه اللذين قتلا وهما تحت التعذيب من أبي جهل وأضرابه. وأما عمار فقد عذبه القرشيون حتى اضطروه أن يشتم محمداً(ص) لكي ينقذ نفسه من الموت. وقد أقرّه النبي(ص) على ذلك وقال له إنه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان فلا بأس أن يقول للجبابرة ما يرضيهم. فالرسول(ص) كان يحبّه، وكان يؤلمه جداً ما يتعرّض له عمار من اعتداء وحشي بسبب إيمانه.

ونتيجة لتاريخه المجيد والمشرّف منذ بدء دعوة الإسلام في مكة، كان النبي(ص) يحتفظ لعمار بمودّة خاصّة، صادرة من أعماق نفسه الكريمة التي كانت لا ترى في عمار ذلك المولى المستضعف ذي الأصل المتواضع، بل نموذجاً للمسلم المثالي، ويظهر ذلك حتى في اللغة التي كان يستعملها النبي(ص) في وصف عمار، فمثلاً:

*فجاء عمار بن ياسر يستأذن على النبي(ص) فقال: ائذنوا له، مرحباً بالطيب المطيب*[1]

---

(1) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج2 ص122)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص246)، سنن الترمذي (ص 332 ج5 باب مناقب عمار بن ياسر حديث3888)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص172)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص385)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 50)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج5 ص57)، ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص545)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص162) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج3 ص48 و ج10 ص102)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1099-ص1098 و ص1099-1102)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص426)، تاريخ الطبري (ج3 ص384 و ص 424)، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج 2 - ص372- ص373- 395)، الإصابة لابن حجر العسقلاني (ج7 ص259)، تاريخ الإسلام للذهبي (ج 4 - ص 133)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص481)، والبداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص191)

(2) سنن الترمذي باب مناقب عمار بن ياسر

فكان عمار يرى في رسول الله (ص)، ودينه ودعوته، ملاذاً له من جبروت عظماء قريش، وطريقاً للخلاص من ظلمها. ورغم أن أخوة الاسلام قد جمعته مع الصحابي عثمان بن عفان، خاصة في مراحل الاسلام الاولى، إلا أن كل الدلائل تشير الى أن عماراً كان ينظر بريبة وتوجس الى عثمان، ذلك التاجر الثري، ذي المكانة الرفيعة في قريش، ويعتبره وجهاً آخر، مُقَنَّعاً، للقبيلة التي لا مكان فيها للضعفاء والفقراء من امثاله.

وهناك مؤشرات على ان العلاقة بين عمار وعثمان لم تكن على ما يرام، حتى أيام النبي (ص).

فمن المفيد التأمل في خبر ورد في السيرة النبوية لابن هشام، ويفيد بأنه أثناء انتداب الرسول (ص) لأصحابه لبناء مسجده بعد وصوله إلى المدينة، وانخراطه هو شخصياً في العمل المرهق لكي يشجعهم ويكون قدوة لهم، كان عمار يعمل بهمة ونشاط شديدين، حتى انه كان يحمل أثقالاً كبيرة من اللبن. وذكر ابن اسحق «وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومئذ:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأبُ فيه قائماً وقاعدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا»

وظاهر سياق الرواية يشير الى أن الامام علياً ارتجز هذه العبارات لأنه رأى البعض من الصحابة يأنف من العمل الشاق.. فأثار موقفهم ذلك حفيظة عمار بن ياسر، الذي أخذ يردد بصوت عال ما ارتجزه علي بن ابي طالب (وهو يقصد ان يسمعه).

ويضيف ابن هشام أنه «عندئذ «ظنّ رجلٌ من أصحاب رسول الله (ص) أنه إنما يعرّض به.

فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن ابن اسحاق. وقد سمّى ابن اسحاق الرجل.

فقال: قد سمعتُ ما تقولُ منذ اليوم يا ابن سميّة. والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك! وفي يده عصا.

فغضب رسول الله (ص) ثم قال: ما لهم ولعمار؟! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي. فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه»

والملاحظة المهمة على هذه الرواية أن ابن هشام قد تدخل فيها بشكل فظ، للتغطية على شخص الصحابي الذي اشتبك مع عمار بن ياسر. وأنا أقول ان عثمان بن عفان كان ذلك الرجل، فكل شيء يشير الى ذلك. ولا عجب أن يتدخل ابن هشام بهذا الشكل الصارخ في الرواية. ففي هذه الحادثة ما لا يتسق مع المقام الرفيع الذي يتمتع به الخليفة الثالث لدى ابن هشام ومن على رأيه. فابن هشام قرر أن يجد حلاً للمعضلة مع المحافظة على ذكر الحادثة لكي يرضي ضميره ويقنع نفسه بأنه لم يحذف سيرة النبي (ص) نفسها! فكان الحل عنده أن يروي معظم الرواية دون أن يذكر فيها اسم عثمان، لكي يبقى الرجل الذي أغضب عماراً وتدخل الرسول (ص) ضده مجهولاً للقارئ. وهكذا فإن ابن هشام قرر أن يبقى اسم عثمان طيّ الكتمان، واستبدله بـ «رجلٌ من أصحاب رسول الله»، رغم أنه اعترف بأن ابن اسحاق، صاحب السيرة الأصلي، قد سمّى ذلك الرجل صراحة.

فيبدو أن عثمان بن عفان، وهو التاجر المرموق، كان يشارك بقية المسلمين مجاراة للرسول (ص) لا أكثر، وليس عن رغبة ولا همة، لأن ذلك النوع من العمل لا يناسب مقامه. ويبدو أنه كان يتثاقل في نقل اللبن ويُظهِرُ اهتماماً زائداً بالمحافظة على نظافة ثيابه وأكمامه، فينفضها من الغبار باستمرار. والأرجح أنه شعر بالضيق والاستياء مما ارتجزه علي بن ابي طالب ولكنه كتم مشاعره لمكانة علي من النبي (ص). ولكنه لما سمع عماراً يكررها وعرف أنه المقصود، لم يتمالك نفسه، فغضب وهدد عماراً بالضرب، مما أدى إلى تدخل الرسول (ص) إلى جانب عمار ووقفه لعثمان عند حده.

وسوف يأتي الحديث فيما بعد عن الحديث النبوي المتواتر «تقتلك الفئة الباغية» والذي قاله النبي (ص) بحق عمار.

وأما لماذا نقول ان عثمان بن عفان هو عين الصحابي الذي أخفى ابن هشام اسمه؟ فلا دليل لدينا سوى جمع القرائن والترجيح.

فسيرة عمار مع الخليفة عثمان مليئة بالخلافات والصراع.

فبعد انتصار النبي(ص)، بقي عمار كارهاً لعظماء قريش ووجوهها، وإلى آخر يوم في حياته.

وكان عمار متمسكاً بشخص رسول الله(ص)، وآله من بعده. وتمثّل ذلك في ولائه العظيم لعليّ بن أبي طالب من بعده. كان عليّ ينظر عمار امتداداً حقيقياً للنبي(ص) وحكمه وضمانة. ومن الواضح أن عماراً كان يشمئزّ من الحكم القرشي ويرى في عليّ الضمانة الوحيدة دون عودة الوجوه القديمة إلى الصدارة بقناع جديد.

وعثمان بن عفان، بنظر عمار، هو رمز قريش في حلّتها الجديدة. واختيار قريش لعثمان خليفةً كان اعتداءً على حق عليّ وإبعاداً مقصوداً لآل الرسول(ص) من مقاليد الحكم التي يستحقّونها.

وفي عهد عثمان بن عفان، طفح الكيلُ بعمار بن ياسر. وأغلب الظن أنه كان كلما رأى الطلقاء من وجهاء بطون قريش يتذكر أمه وأباه وكل المستضعفين من أمثاله الذين كانوا يعذّبون على أيدي هؤلاء الجبابرة. فكم كان تألمه عظيماً وهو يرى أبناء طلقاء قريش، أعداء الرسول القدماء، وقد تسلموا ولاية أمور المسلمين. وحين كان يسمع أبناء أرستقراطية قريش[1] وهم يصفونه تارة بـ «العبد الأسود» وتارة بـ «ابن السوداء» وتارة بـ «ابن سميّة»، كان يشعر أن كل ما بناه الرسول(ص) في طريقه إلى الانهيار. فسميّة هذه التي يعيرونه بها هي أول شهيدة في الإسلام!

وقد تمسّك عمارٌ بموقف شديد العداء تجاه عثمان، وبقي عليه حتى عندما كان عثمان يمر بأحلك الظروف. فلأنّ عثمان يعرف أن عماراً ربما يكون مسموع الكلمة لدى الثوار الذين جاؤوا من مصر وحاصروه، طلب

(1) روى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين حادثة نزاع بين خالد بن الوليد وعمار وصف خلالها خالدٌ عماراً بأنه «ابن سمية» وأن رسول الله(ص) أجابه مع خالد: لا تسبّ عماراً، فإنه من يسبّ عماراً يسبّه الله ومن يبغض عماراً يبغضه الله ومن يسفه عماراً يسفهه الله

من سعد بن ابي وقاص أن يذهب لعمار ليطلب منه ألا يخرج مع علي بن ابي طالب وغيره من الصحابة الذين حاولوا التوسط ورد الثوار الى مصرهم، ولكن عماراً رفض وبكل تصميم! روى الطبري في تاريخه عن الواقدي فأرسل عثمان الى عمار بن ياسر يكلمه أن يركب مع علي، فأبى.

فارسل عثمان الى سعد بن ابي وقاص فكلمه أن يأتي عماراً فيكلمه أن يركب مع علي.

قال: فخرج سعد حتى دخل على عمار فقال: يا ابا اليقظان: ألا تخرج فيمن خرج؟ وهذا عليّ يخرج فاخرج معه واردد هؤلاء القوم عن إمامك، فإني لأحسب انك لم تركب مركباً هو خير لك منه.....

فكلمه سعد وجعل يفتله بكل وجه.

فكان آخر ذلك أن قال عمار: والله لا أردهم عنه أبداً.

وقد بلغت حدة العداء بين الخليفة وعمار الى درجة ان معاوية بن ابي سفيان قد اختص عماراً بتهديد صريح عام 34 للهجرة في معرض زيارته للمدينة واجتماعه مع عثمان وبقية الولاة. فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة حدثنا علي بن محمد عن أبي دينار – رجل من بني دينار ابن النجار – عن أبي معبد الأسلمي عن قيس بن طلحة قال: خرج معاوية رضي الله عنه من عند عثمان رضي الله عنه فمر به نفر من المهاجرين فقال: استوصوا بشيخنا خيرا، فوالله لئن قتل لا أعطيكم إلا السيف!

ثم أتى عمارا فقال: أبا اليقظان، إني تركت بالشام أكثر من عدد أهل الحجاز كلهم شجاع فارس، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت، لا يعرف عمارا ولا سابقته، ولا عليا ولا قرابته، فإياك أن تجلي الغمة فيقال هذا قاتل عمار!

فقال: أبالقتال تخوفني؟ والله يا بني أمية لا تسيرني ونقول لحستم!

واما من الروايات، فيمكن الاشارة الى ما ذكره أبو الغادية الجهني، وهو الشخص الذي قتل عمار بن ياسر في معركة صفين عام 36 للهجرة. فهو كان يفتخر لدى أصحابه من بني أمية بأنه شخصياً قد خلصهم من «ابن سمية»! روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن كلثوم بن جبر أن أبا الغادية هذا قال: إنا كنا

نعد عمار بن ياسر فينا حنانا. فبينا أنا في مسجد قباء إذ هو يقول ألا إن نعثلا هذا لعثمان، فالتفت، فلو أجد عليه أعوانا لوطئته حتى أقتله! قال فقلت اللهم إنك إن تشأ تمكني من عمار فلما كان يوم صفين...»[1]

وروى ابن سعد أيضا فأخبرنا أبو حفص وكلثوم بن جبر عن أبي غادية قال: سمعت عمار بن ياسر يقع في عثمان يشتمه بالمدينة. قال فتوعدته بالقتل قلت لئن أمكنني الله منك لأفعلن»[2]

وقال الذهبي في تاريخ الاسلام بشأن أبي الغادية «وقال ابن عبد البر: أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام. وقال الدارقطني وغيره: هو قاتل عمار بن ياسر يوم صفين. وقال حماد بن سلمة: ثنا كلثوم بن جبر، عن أبي الغادية قال: سمعت عمار بن ياسر يشتم عثمان، فتوعدته بالقتل، فلما كان يوم صفين حملت، فرتمى، فقتلته»

ورغم أن هناك احتمالاً أن يكون أبو الغادية حريصاً على نيل رضا الأسياد من بني أمية، من اجل الحظوة عندهم، عن طريق التأكيد على انه قتل عماراً الذي كان يشتم عثمان»، إلاّ أنه لا يوجد ما يمنع من أن عماراً كان بالفعل يقع في عثمان طعناً في المدينة.

وكان ما جرى لأبي ذر الغفاري على يد عثمان سبباً إضافياً لمشكلة كبيرة بين عثمان وعمار، كادت أن تتطور لولا تدخل علي بن ابي طالب، وبني مخزوم. روى اليعقوبي في تاريخه:

«...فلما بلغ عثمان وفاة ابي ذر قال: رحم الله ابا ذر!

قال عمار: نعم رحم الله ابا ذر من كل أنفسنا!

فغلظ ذلك على عثمان. وبلغ عثمان عن عمار كلام، فأراد أن يسيره أيضاً.

---

(1) وأخرج البلاذري في أنساب الأشراف هذه الرواية بسنده الى كلثوم بن جبر نفسه، وفيها ان أبا الغادية قال هذا الكلام بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز بواسط القصب..

(2) وقد روى ابن حجر العسقلاني في الاصابة هاتين الروايتين عن ابي الغادية نقلا عن يعقوب بن شيبة واحمد بن حنبل وابن سعد من طريق كلثوم بن جبر أيضا.

فاجتمعت بنو مخزوم إلى علي بن أبي طالب وسألوه إعانتهم فقال علي: لا ندع عثمان ورأيه، فجلس عمار في بيته.

وبلغ عثمانَ ما تكلمت به بنو مخزوم فأمسك عنه.

وقد روى ابن أعثم في كتاب الفتوح هذا الخبر كما يلي:

«وبلغ ذلك عثمان فقال: رحمه الله يا أبا ذر!

فقال عمار بن ياسر: نعم رحم الله أبا ذر من كل قلوبنا!

قال: فغضب عثمان ثم قال: يا كذا وكذا أتظن أني ندمت على تسييره إلى ربذة؟

قال عمار: لا والله ما أرى ذلك!

قال عثمان: ادفعوا في قفاه، وأنت فالحق بالمكان الذي كان فيه أبو ذر ولا تبرحه أبداً ما بقيت وأنا حي.

فقال عمار: والله إن جوار السباع لأحب إليّ من جوارك، ثم قام عمار ليخرج من عنده.

قال: وعزم عثمان على نفي عمار، وأقبلت بنو مخزوم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالوا: إنه يا أبا الحسن قد علمت بأنا أخوال أبيك أبي طالب، وهذا عثمان بن عفان قد أمر بتسيير عمار بن ياسر، وقد أحببنا أن نلقاه فنكلمه في ذلك ونسأله أن يكف عنه ولا يؤذينا فيه، فقد وثب عليه مرة ففعل به ما فعل وهذه ثانية، ونخاف أن يخرج معه إلى أمر يندم ونندم نحن عليه، فقال: أفعل ذلك فلا تعجلوا، فوالله! لو لم تأتوني في هذا لكان ذلك من الحق الذي لا يسعني تركه ولا عذر لي فيه.

قال: ثم أقبل علي رضي الله عنه حتى دخل على عثمان فسلم وجلس فقال: اتق الله أيها الرجل وكف عن عمار وغير عمار من الصحابة، فإنك قد سيرت رجلاً من صلحاء المسلمين وخيار المهاجرين الأولين حتى هلك في تسييرك إياه غريباً، ثم إنك الآن تريد أن تنفي نظيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم!

فقال عثمان: لأنت أحق بالمسير منه، فو الله ما أفسد علي عمارا وغيره سواك !

فقال علي رضي الله عنه: والله يا عثمان ! ما أنت بقادر على ذلك ولا إليه بواصل فرم ذلك إن شئت، وأما قولك: إني أفسدهم عليك، فوالله ما يفسدهم عليك إلا نفسك، لأنهم يرون ما ينكرونه فلا يسعهم إلا تغيير ما يرون.

قال: ثم وثب علي رضي الله عنه فخرج واستقبله الناس فقالوا له: ما صنعت يا أبا الحسن ؟

فقال: صنعت إنه قال لي كذا وكذا وقلت له كذا، فقالوا له: أحسنت والله وأصبت يا أبا الحسن ! فو الله لئن كان هذا شأن عثمان ورأيه فينا كلما غضب على رجل منا نفاه إلى بلد غير بلده فلا يموت أحد منا إلا غريبا في غير أهل ولا عشيرة، ومثل من يوصي الرجل عند موته وبمن يستعين فيما ينوبه، والله ! لئن نموت في رحالنا خير لنا من حياة الأبد بالمكان الذي مات فيه أبو ذر رحمة الله تعالى.

قال: ثم أقبل علي رضي الله عنه على عمار بن ياسر فقال له: اجلس في بيتك ولا تبرح منه، فإن الله تبارك وتعالى مانعك من عثمان وغير عثمانه وهؤلاء المسلمون معك، فقالت بنو مخزوم: والله يا أبا الحسن ! لئن نصرتنا وكنت معنا لا وصل إلينا عثمان بشيء نكرهه أبدا.

وبلغ ذلك عثمان فكف عن عمار وندم على ما كان منه»

حادثة ضرب عمار

رغم أن الأخبار بشأن الخلافات الحادة بين عمار وعثمان قد انتشرت حتى بلغت حد التواتر، إلاّ أن شيوخ التاريخ كانوا أكثر تحفظاً في ذكر واقعة الضرب الجسدي الذي تعرض له عمار بن ياسر كعقاب له من الخليفة. فيبدو أن بعضهم قد رأى في هذه الواقعة ما يشين الخليفة عثمان، وبعضهم ربما رأى فيها ما يسيء الى مقام الصحابة عموماً فقرر الاعراض عنها.

ومع ذلك فيمكن الوصول إلى تفاصيل ما حدث من خلال الكثير من المصادر.

ومن أكثر الروايات تفصيلاً في هذا الشأن ما جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة:

اجتمع ناس من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه.

وما كان من هبته خمس أفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بذي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله.

وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول (ص) ولا تجربة لهم بالأمور.

وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه.

وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم.

وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة.

وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي (ص)، ثم لا يغزون ولا يذبون.

وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وإنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين من قبله بالدرة والخيزران.

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب بيد عثمان. وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود. وكانوا عشرة.

فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب بيد عمار، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده. فمضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه، فأذن له في يوم شاتٍ.

فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية.

فدفع إليه الكتاب. فقرأه. فقال له: أنت كتبت هذا الكتاب ؟

قال: نعم.

قال: ومَن كان معك ؟

قال: كان معي نفر تفرقوا فرقاً منك.

قال: من هم ؟

قال: لا أخبرك بهم.

قال: فلِمَ اجترأتَ عليّ من بينهم ؟

فقال مروان: يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جرّأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكّلتَ به من ورائه.

قال عثمان: اضربوه.

فضربوه وضربه عثمانُ معهم حتى فتقوا بطنه، فغشي عليه، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار.

فأمرت به أم سلمة زوج النبي (ص) فأُدخل منزلها ».

والرواية هذه أخرجها ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح حسن سياق إسناد جمعي نقلاً عن شيوخ الاخباريين :

«قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي حدثني أبو الحسن علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشعبي وأبي مخنف عن أبي وائل، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال:

حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال: وحدثني إسحاق بن يوسف الفزاري قال: حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال: حدثني لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عيينة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال: وحدثني عمرو بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سرا وعلانية .

وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد؛

والنص هو: .

(اجتمع نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم إنهم كتبوا كتابا وذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان منذ يوم ولي الخلافة إلى ذلك اليوم، ثم إنهم خوفوه في الكتاب وأعلموه [ أنه - ] إن لم ينزع عما هو عليه خلعوه واستبدلوا به غيره. قال: فكتبوا هذا الكتاب ثم قالوا ننطلق به جميعا حتى نضعه في يده، فإنا إن ذهبنا نكلمه وليس معنا كتاب لم يحضرنا من الكلام ما نريد ثم أقبلوا على عمار بن ياسر وقالوا له: يا أبا اليقظان ! هل لك أن تكفينا هذا الامر وتنطلق بالكتاب إلى عثمان ؟ فقال عمار: أفعل .

ثم أخذ الكتاب وانطلق إلى عثمان، فإذا عثمان وقد لبس ثيابه وخفيه في رجليه، فلما خرج من باب منزله نظر إلى عمار واقفا والكتاب في يده فقال له: حاجة يا أبا اليقظان ؟

فقال عمار: مالي حاجة ولكنا اجتمعنا فكتبنا كتابا نذكر فيه أمورا من أمورك لا نرضاها لك، قال: ثم دفع إليه الكتاب.

فأخذه عثمان فنظر فيه حتى قرأ سطرا منه، ثم غضب ورمى به من يده؛

فقال له عمار: لا ترم بالكتاب وانظر فيه حسنا فإنه كتاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا والله ناصح لك؛

فقال له عثمان: كذبت يا بن سمية!

فقال عمار: أنا والله ناصح لك!

فقال عثمان: كذبت يا بن سمية!

فقال عمار: أنا والله ابن سمية وابن ياسر.

قال: فأمر عثمان غلمانه، فضربوه ضرباً شديداً حتى وقع لجنبه، ثم تقدم إليه عثمان فوطئ بطنه ومذاكيره حتى غشي عليه وأصابه الفتق، فسقط لما به لا يعقل من أمره شيئاً.

قال: واتصل الخبر ببني مخزوم، فأقبل هشام بن الوليد بن المغيرة في نفر من بني مخزوم فاحتملوا عماراً من موضعه ذلك وجعلوا يقولون: والله لئن مات الآن لنقتلن به شيخاً عظيماً من بني أمية، ثم انطلقوا بعمار إلى منزله مغشياً عليه، فلم يصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء حتى ذهب بعض الليل، ثم أفاق بعد ذلك من غشيته فقام فقضى ما فاته من صلواته كلها. قال: فكان هذا من إحداثه التي نقموا عليه!

كما أورد ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح نصاً يلوم فيه الزبير بن العوام الخليفة عثمان على تصرفاته وكان مما فيه قوله لك ولعمار بن ياسر أمرتَ بدوس بطنه حتى أصابه الفتق؟ فقال: لأنه أراد أن يغري الناس بقتلي!

وأخرج ابن عبد ربه في العقد الفريد القصة عن الأعمش كما يلي: كتب أصحاب عثمان عيبه وما ينقم الناس عليه في صحيفة. فقالوا: من يذهب بها إليه؟ قال عمار: أنا.

فذهب بها إليه فلما قرأها قال: أرغم الله أنفك!

قال: وبأنف أبي بكر وعمر.

قال: فقام إليه فوطئه حتى غشي عليه.

ثم ندم عثمان وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له: اختر إحدى ثلاث: إما أن تعفو، وإما أن تأخذ الأرش، وإما أن تقتص.

فقال: والله لا أقبل واحدة منها حتى ألقى الله.

وأما البلاذري في أنساب الأشراف فيجعل سبب الضرب اعتراض عمار على سوء تصرف عثمان بيت المال:

عن أبي مخنف قال: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر، فأخذ عثمانُ ما حلّى به بعض أهله. فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه. فخطب فقال: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام!

فقال له علي: إذاً تُمنعَ من ذلك ويُحال بينك وبينه.

وقال عمار بن ياسر: أشهدُ الله أن أنفي أول راغم من ذلك.

فقال عثمان: أعليَّ يا ابن المتكاء تجترئ؟! خذوه.

فأخذ، ودخل عثمانُ فدعا به فضربه حتى غُشي عليه. ثم أُخرجَ فحُمِلَ حتى أُتي به منزل أم سلمة زوج رسول الله (ص) فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب. فلما أفاق توضأ وصلى وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أوذينا فيه في الله.

وقام هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان عمار حليفاً لبني مخزوم، فقال: يا عثمان، أما عليّ فاتقيتَه وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربتَ أخانا حتى أشفيتَ به على التلف. أما والله لئن مات لأقتلنّ به رجلاً من بني أمية عظيم السرة! فقال عثمان: وإنك لها هنا يا ابن القسرية....»

وقد أتبع البلاذري هذه الرواية بأخرى تتحدث عن كتاب الاحتجاج الذي كتبه الصحابة وحمله عمارٌ إلى عثمان مما أغضبه ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق، ولكنه أخرج هذه الرواية بصيغة «قالوا» مما يشي بتشكيكه بها.

وأضاف البلاذري رواية ثالثة تجعل سبب الضرب هو قيام عمار بكتمان أمر وفاة ابن مسعود عن الخليفة وتوليه الصلاة عليه مما أدى إلى غضب الخليفة فضرب عماراً حتى أصابه الفتق، ولكنه أخرج هذه أيضاً بصيغة «قالوا».

وأخرج ابن شبة في تاريخ المدينة عدة روايات عن حادثة ضرب عثمان.

أحدها تقول انه ضربه عن قصد وعمد: فعن ابن سمعان قال: ان عثمان أمر بعمار بن ياسر فضرب في أمر نازعه فيه حتى أغشي عليه، فحمله زياد بن سمعان ونفر معه الى بيت أم سلمة زوج النبي (ص) وهو لا يعقل، فصلى الناس الجمعة ثم صلوا العصر ولم يفق عمار ولم يصل حتى دنت الشمس أن تغرب. ثم أفاق قبل أن تغرب الشمس بقليل فصلى الاولى والعصر جميعاً». وأيضاً عن المغيرة قال: اجتمع ناس فكتبوا عيوب عثمان - وفيهم ابن مسعود - فاجتمعوا بباب عثمان ليدخلوا عليه فيكلموه. فلما بلغوا الباب نكلوا إلا عمار بن ياسر فإنه دخل عليه فوعظه. فأمر به فضرب حتى فتق، فكان لا يستمسك بوله...»

وثانية تقول انه أمر بضربه بسبب ثورة غضب وندم على ذلك: فعن سالم بن ابي الجعد: دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من اصحاب رسول الله (ص) وفيهم عمار فقال: اني سائلكم: أنشدكم الله هل تعلمون ان رسول الله (ص) كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم!

فقال: لو ان مفاتيح الجنة في يدي لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم. والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم!

فقال عمار: على رغم أنفي؟

قال: على رغم أنفك!

قال: وأنف ابي بكر وعمر؟

فغضب عثمان رضي الله عنه، فوثب اليه فوطئه وطأً شديداً، فأجفله الناس عنه.

ثم بعث الى بني أمية فقال: يا أخابث خلق الله! أغضبتموني على هذا الرجل حتى أراني أهلكته وهلكت.

فبعث الى طلحة والزبير فقال: ما كان نوالي إذ قال لي ما قال إلا أن أقول له مثل ما قال، وما كان لي على قسره من سبيل. إذهبا الى هذا الرجل فخيراه بين ثلاث: بين ان يقتص او يأخذ أرشاً أو يعفو.

فقال: والله لا أقبل منها واحدة حتى ألقى رسول الله(ص) فأشكوه إليه...»

والرواية الثالثة تقول إن عثمان لم يأمر بضرب عمار أصلاً، بل تم ذلك من دون علمه: فعن جهيم الفهري قال «أنا شاهدٌ للأمر: سعد وعمار، فأرسلوا لعثمان إن ائتنا فإنا نريد أن نذاكرك أشياء أحدثتها وأشياء فعلتها.

فأرسل إليهم: أن انصرفوا اليوم فإني مشتغلٌ وميعادكم يوم كذا وكذا حتى أتشرف لكم.

فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف. فتناوله رسول عثمان فضربه.

فلما اجتمعوا للميعاد ومن معهم قال لهم عثمان: ما تنقمون؟

قالوا: ننقم عليك ضربك عماراً.

فقال: جاء سعد وعمار فأرسلتُ إليهما فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فتناوله رسولي من غير أمري. فوالله ما أمرت ولا رضيتُ. فهذي يدي لعمار فليصطبر. قال ابو محصن: يعني يقتص»

وأما ابن عبد البر في الاستيعاب فلم تذكر روايته صراحة أن عثمان قد أمر بضرب عمار، واكتفت بإثبات حادثة الاعتداء وتحميل بني مخزوم المسؤولية لعثمان فـ«للحلف والولاء اللذين بين بني مخزوم وبين عمار وأبيه ياسر كان اجتماع بني مخزوم إلى عثمان حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انفتق له فتق في بطنه، ورغموا وكسروا ضلعاً من أضلاعه. فاجتمعت بنو مخزوم وقالوا: والله لئن مات لا قتلنا به أحداً غير عثمان»

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلا عن المرتضى في معرض رده على من أنكر ضرب عمار «أما الدفع لضرب عمار فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً وكل من قرأ الأخبار وتصفح السير يعلم من هذا الأمر ما لا تثنيه عنه مكابرة ولا مدافعة، وهذا الفعل -أعني ضرب عمار- لم تختلف الرواة فيه، وإنما اختلفوا في سببه..» ثم تابع ابن أبي الحديد في ذكر الروايات المختلفة التي وردت في سبب ضربه والتي يمكن تلخيصها كما يلي:

- رواية أبي مخنف التي فيها أن عثمان أخذ جواهر وحلياً كانت في بيت المال وحلّى بها بعض أهل بيته فاعترض عليه قومٌ بشدة وخاصة علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر، فغضب عثمان كثيراً وقال لعمار [illegible] «أعلي يا بن ياسر تجترأ؟! خذوه فأُخذ. ادخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه، وبعدها أخذ وعولج في بيت أم سلمة. ولما هشام بن الوليد المخزومي غضب وقال لعثمان انه الحق عليا بينما اجترأ على بني مخزوم وحليفهم عمار وهدده بقتل رجل من بني أمية إن مات عمار. وأن عائشة أيضاً غضبت لعمار وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد»

- «وروى آخرون» أن السبب كان أن عثمان اكتشف أن عماراً قد تولى الصلاة على عبد الله بن مسعود ودفنه دون إبلاغه فغضب لذلك «فوطئها وطرح عثمان عماراً حتى أصابه الفتق»

- «وروى آخرون» أن المقداد وعمار وطلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله (ص) كتبوا كتاباً عددوا فيه أحداث عثمان وخوفوه وأن عماراً حمل الكتاب لعثمان فأثار غضبه لاجترائه عليه فأمر عثمان غلمانه، «فمدوا بيديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه -وهي في الخفين على مذاكيره- فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه»

وفي موضع آخر روى ابن أبي الحديد نقلاً عن الاستيعاب لابن عبد البر «نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انفتق له فتق في بطنه، ورمحوه، وكسروا ضلعاً من أضلاعه»

## الروايات المدافعة عن عثمان

بالإضافة الى الرواية التي ذكرها ابن شبة عن جهيم الفهري، والتي تفيد بأن رسول عثمان قد ضرب عماراً بدون إذنه

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء نقلاً عن ابي عوانة في مسنده أن عماراً قال لعثمان: *حملت قريشاً على رقاب الناس. عدوا عليّ فضربوني!*

فغضب عثمان ثم قال: مالي ولقريش؟ عدوا على رجل من أصحاب محمد (ص) فضربوه. سمعتُ النبي (ص) يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وقاتله في النار!

وقال ان ابا عوانة روى ذلك من طريق الاعمش عن زيد بن وهب، وايضا من طريق سالم بن ابي الجعد عن محمد بن الحنفية.

ولا يخفى طبعا ان هذه الرواية مصممة للدفاع عن عثمان. ولو سلمنا بما فيها جدلا، فلماذا لم ينصف عثمانُ عماراً من قريش الذين اعتدوا عليه؟ ومن هم قريش هؤلاء المشار اليهم؟

وكعادته في الدفاع عن عثمان وسياسته، قام سيف بن عُمَر بابتكار سبب لتفسير عداء عمار للخليفة. فقد روى الطبري في تاريخه بشأن عمار «كان بينه وبين عباس بن عتبة بن ابي لهب كلام.

فضربهما عثمان. فأورث ذلك بين آل عمار وآل عتبة شراً حتى اليوم»[.]

وهكذا يريد سيف ان يختزل كل مواقف عمار بحقد شخصي ناتج عن عقوبة بحقه فرضها الخليفة بسبب مشكلة تشاتم مع عباس بن عتبة!

وقد اعتمد ابن كثير، الأموي الهوى، على هذه الرواية في سياق انطباعه لعمار بن ياسر ومواقفه تجاه عثمان، فقال عن عمار في البداية والنهاية: «وكان متعصبا على عثمان بسبب تأديبه له فيما تقدم على أمر، وضربه اياه في ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عتبة بن ابي لهب، فأدبهما عثمان، فتآمر عمار عليه لذلك وجعل يحرض الناس عليه..»

ورغم أنني لم أجد هذه الرواية لدى مصدر آخر غير سيف بن عمر، إلاّ أنه ليس هناك سبب لرفضها. بل هي تلقي الضوء على طريقة الاثراء الفاحش الذي ميز العديد من كبار الصحابة، كما سيأتي.

وبما أن عددا كبيرا من أبناء قبيلة قريش، بمن فيهم صحابة كبار، وزعماء قبائل أخرى، يمانية وقيسية، كانوا يمتلكون أراضٍ كثيرة في الحجاز واليمن، بعضها موروثة وبعضها مكتسب عن طريق التجارة، وبعضها نصيبهم من الغنائم من أيام الرسول (ص) والخليفتين من بعده (مثلا في منطقة خيبر)، وبعضها من هبات وأعطيات عثمان بن عفان، فقد فتح الخليفة أمامهم آفاقاً هائلة للغنى والثراء الفاحش. فالأراضي في داخل الجزيرة العربية كانت في أغلبها فقيرة وغير منتجة، ولا تقارن أبدا بالأراضي الغنية والخصبة في بلاد الرافدين، حيث البساتين والغابات في ضفاف الفرات ودجلة.

وقام عدد كبير من القرشيين والزعماء القبائليين باستغلال قرار الخليفة إلى الحد الأقصى. فتملكوا مساحات شاسعة من أراضي «السواد» في الكوفة وغيرها من المناطق العراقية. وأصبح عدد من الصحابة من أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من كبار الأثرياء والرأسماليين الذين تنهال عليهم الأموال من تلك الممتلكات الجديدة في العراق. وهناك روايات كثيرة جدا تصف مدى الغنى الفاحش الذي صاروا يرفلون فيه، حتى وهم يقيمون في المدينة المنورة دون الحاجة إلى الإقامة في العراق. وطبعاً كان لبني أمية، من أمثال مروان بن الحكم، وللقرشيين بشكل عام نصيب الأسد من هذه الامتيازات.

*وتابع سيف روايته السابقة: «وكان طلحة بن عبيد الله قد استجمع له عامة سهمان خيبر إلى ما كان له سوى ذلك. فاشترى طلحة منه من نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر إلى العراق النشاستج بما كان له بخيبر وغيرها من تلك الأموال. واشترى منه بئر أريس شيئاً كان لعثمان بالعراق.*

*واشترى منه مروان بن الحكم بمال كان له، أعطاه إياه عثمان، نهر مروان، وهو يومئذ أجمة*

واشترى منه رجال من القبائل بالعراق بأموال كانت لهم في جزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت. فكان ممن اشترى منه الأشعث بمال كان له في حضرموت ما كان له بطيزناباذ»

ولا بد من ملاحظة كيفية اقتراء ابن عم الخليفة في قول الراوي عن مروان «بمال كان له، أعطاه إياه عثمان». وهذا يعني ببساطة أن الخليفة أعطى ابن عمه أموالاً، وليس معروفاً تبرير ذلك إلا صلة الرحم، فقام هذا بدوره باستبدالها بمصالح في العراق فأصبح له نهر يعرف باسمه هناك!

## ثروات الصحابة في عهد عثمان

ومن أبرز الأمثلة على هؤلاء المستفيدين كان طلحة بن عبيد الله، الصحابي الكبير الذي استغل حكم عثمان بن عفان كثيراً، فبلغت ثروته أرقاماً خيالية، فهو استفاد من حركة الفتوحات ليكتسب قصوراً وضياعاً وأراضي، خاصة في العراق.

وورد في الطبقات الكبرى لابن سعد:

عن الواقدي «كان طلحة بن عبيد الله يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبالأعراض له غلات. وكان لا يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله وزوج أيامهم وأخدم عائلهم وقضى دين غارمهم، ولقد كان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف. ولقد قضى عن صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم»

وعن الواقدي أيضاً «كانت قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والأموال وما ترك من الناض ثلاثين ألف ألف درهم، ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، والباقي عروض»

وعنه أيضاً «قتل طلحة بن عبيد الله رحمه الله وفي يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم، وقومت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم»

وعنه أيضاً «قال عمرو بن العاص: حدثت أن طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار، في كل بهار ثلاثة قناطير ذهب. وسمعت أن البهار جلد ثور»

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء :

عن ابن عيينة «كانت غلة طلحة كل يوم ألفاً وافياً».

وعن الحسن البصري «أن طلحة بن عبيد الله باع أرضاً له بسبع مئة ألف. فبات أرقاً من ذلك المال، حتى أصبح ففرقه»

وعن الواقدي «عن موسى بن طلحة أن معاوية سأله: كم ترك أبو محمد من العين؟

قال: ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم، ومن الذهب مئتي ألف دينار

فقال معاوية: عاش حميداً سخياً شريفاً، وقتل فقيداً يرحمه الله»

والوافي: درهم وأربعة دوانق

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر عن رواية ابن سعد عن الواقدي: عن موسى بن طلحة أن معاوية سأله «كم ترك أبو محمد يرحمه الله من العين؟ قال: ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف دينار. وكان ماله قد اغتيل كان يغل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السراة وغيرها. ولقد كان يدخل قوت أهله بالمدينة سنتهم من مزرعته بقناة كان يزرع على عشرين ناضحاً. وأول من زرع القمح بقناة هو....»

وذكر ابن عساكر أيضاً رواية الزبير بن بكار «أتى طلحة بن عبيد الله من النشاستج بالعراق خمس مائة ألف درهم، فقسمها حتى أتى على آخرها وهو في حنيف» وروى عن عمرو بن دينار «كان غلة طلحة بن عبيد الله كل يوم ألف وافٍ»

وكذلك كان الزبير بن العوام من كبار الأثرياء والرأسماليين وأصحاب المصالح في عهد عثمان.

وقد جاء في صحيح البخاري تفاصيل ثروة الزبير التي أورثها بعد مقتله وهي تحتوي على غابة كان الزبير قد اشتراها بسبعين ومائة ألف وباعها ابنه عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، بالإضافة إلى إحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين

بالبصرة ودارًا بالكوفة ودارًا بمصر وكانت. . كان للزبير أربع نسوة، ورُبع الثمن، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف».

وقد قدم ابن كثير في البداية والنهاية (ج7 ص278) حسبة تفصيلية أدق من حسبة البخاري لثروة الزبير عند مقتله. فقال عنه فوقد كان الزبير ذا مال جزيل وصدقات كثيرة جدًا. لما كان يوم الجمل أوصى إلى ابنه عبد الله فلما قتل وجدوا عليه من الدين ألفي ألف ومائتا ألف فوفوها عنه، وأخرجوا بعد ذلك ثلث ماله الذي أوصى به، ثم قسمت التركة بعد ذلك، فأصاب كل واحدة من الزوجات الأربع من ربع الثمن ألف ألف ومائتا ألف درهم. فعلى هذا يكون مجموع ما قسم بين الورثة ثمانية وثلاثين ألف ألف وأربعمائة ألف. والثلث الموصى به: تسعة عشر ألف ألف ومائتا ألف. فعلى هذا يكون جميع ما تركه من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين ألف ألف وثمانمائة ألف.

وإنما نبهنا على هذا لأنه وقع في صحيح البخاري ما فيه نظر ينبغي أن ينبه له. والله أعلم»

ويظهر أن ابن كثير قد لاحظ مدى ضخامة هذه الثروة وعظمها، فقرر أن يجللها لكي يزيل من ذهن القارئ أي شك بشأن مصدرها، فقال «وقد جمع ماله هذا بعد الصدقات الكثيرة، والمآثر الغزيرة مما أفاء الله عليه من الجهاد، ومن خمس الخمس ما يخص أمه منه، ومن التجارة المبرورة من الخلال المشكورة. وقد قيل إنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج. فربما تصدق في بعض الأيام بخراجهم كلهم رضي الله عنه وأرضاه».

ولم يشر ابن كثير إلى أنه كانت تنهال عليه عطايا بني أمية أيام عثمان بلا حساب. فمثلا ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر، أن الزبير قدم مرة الكوفة فأعطاه واليها الأموي سعيد بن العاص 700 ألف درهم فاستقلها، فقال له الوالي «لو كان في بيت المال أكثر منها لبعثت بها إليك». وأعطاه عثمان مرة 600 ألف من مال أصبهان.

— ويروي ابن سعد في الطبقات الكبرى بعض مظاهر ثراء عبد الرحمن بن عوف:

عن الواقدي: ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالبقيع ومائة فرس ترعى بالبقيع. وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً، وكان يدخل قوت أهله من ذلك سنة»

وعن حماد بن زيد قال: عبد الرحمن بن عوف توفي وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً»

وعن الواقدي قال: فأصاب تماضر بنت الأصبغ ربع الثمن فأخرجت بمائة ألف وهي إحدى الأربع»

وروى أحمد بن حنبل في مسنده أن عبد الرحمن قال لأم سلمة: قد خفتُ أن يهلكني كثرة مالي. أنا أكثر قريش مالاً»

وقال ابن الأثير في ترجمته في أسد الغابة:

«وكان عظيمَ التجارة، مجدوداً فيها، كثيرَ المال.

قيل إنه دخل على أم سلمة، فقال: يا أمه، خفتُ أن يُهلكني كثرة مالي»

وقال أيضاً:

«... فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام، فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة. فقالت عائشة: ما هذه الرجة؟ فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام. فقالت عائشة: سمعتُ النبي (ص) يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً. فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال: يا أمة! إني أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله عز وجل»

وقال عنه أيضاً:

«وخلّف مالاً عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه، وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع، وكان له أربع نسوة، أخرجت امرأة بثمانين ألفاً. يعني صولحت به»

وأما ابن كثير في البداية والنهاية، فبعد أن روى عن الزهري وأحمد بن حنبل قصة السبعمائة البعير المحملة التي تبرع بها في سبيل الله أضاف قوله: «ولما حضرته الوفاة أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار - وكانوا مائة - فأخذوها حتى عثمان وعلي، وقال علي: اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت رنقها. وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير حتى كانت عائشة تقول: سقاه الله من السلسبيل. وأعتق خلقاً من مماليكه، ثم ترك بعد ذلك كله مالاً جزيلاً، من ذلك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال. وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع. وكان نساؤه أربعاً فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً»

وقال عنه المسعودي في مروج الذهب «ابتنى داره ووسعها. وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً»[1]

## وثروة علي بن أبي طالب؟!

ننقل هنا بعضاً مما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية. وابن كثير كما هو معلوم أموي الهوى، وهو آخر من قد يتهم بالتشيع لعلي بن أبي طالب. فما يذكره بشأن فضائل علي يمكن اعتباره الحد الأدنى أو غيض من فيض:

- فهو قال إن علياً لم يبن البيوت ولا القصور «وقال أبو نعيم: سمعت سفيان الثوري يقول: ما بنى عليٌّ لبنة ولا قصبة على لبنة»

وهو ذكر أن علياً ما كان عنده من الثياب ما يقيه برد شتاء العراق «قال أبو عبيد: حدثنا عباد بن العوام عن مروان بن عنترة، عن أبيه قال: دخلت على عليّ بن أبي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت

(1) ومن المثير فعلاً مقارنة ما تركه طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف، مع ما تركه صحابيٌ كبير آخر من ذوي الأصول المتواضعة. فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن تركة سلمان الفارسي عند وفاته لم تزد على ثلاثين درهماً!

ترعد من البرد؟ فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً. وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي - أو قال من المدينة»

كما ذكر أنه كان يشتري القميص بثلاثة دراهم؛ فعن ابن عباس «اشترى علي قميصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة، وقطع كمه من موضع الرسغين، وقال: الحمد لله الذي هذا من رياشه»

بل إنه ذكر أن علياً كان ربما يضطر إلى بيع سيفه ليشتري بعض ما يرتديه؛ فعن مجمع بن سمعان التيمي قال «خرج علي بن أبي طالب بسيفه إلى السوق فقال: من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته»

وذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن الحسن بن علي ذكر أن أباه لم يترك إلا [illegible] درهم، اشترى بها خادماً.

ورغم ذلك فعلي كان له مال بينبع، فالمصادر سابقة بالإشارة إلى ذهاب علي المذكور إلى «ماله بينبع» وخاصة تلك التي تتحدث عن حصار عثمان ومقتله. ويبدو أن علياً كان يذهب إلى «ماله بينبع» كلما رغب في الابتعاد عن عثمان لغضبه عليه أو إبعاده عن سياسته، وينبع كما هو معلوم تقع إلى الشمال من جدة على البحر الأحمر.

ولكن، ماذا كان ذلك المال الذي له بينبع؟

من أكثر المصادر تفصيلاً في هذا الشأن كتاب تاريخ المدينة لعمر بن شبة:

«وكانت أموال علي رضي الله عنه عيوناً متفرقة بينبع، منها عين يقال لها «عين البحير» وعين يقال لها «عين أبي نيزر» وعين يقال لها «عين نولا»، وهي اليوم تدعى العدر وهي التي يقال إن علياً رضي الله عنه عمل فيها بيده. وفيها مسجد النبي (ص) متوجهه إلى ذي العشيرة يتلقى عير قريش...

وعمل علي رضي الله عنه أيضاً بينبع «البغيبغات»، وهي عيون منها عين يقال لها «خيف الأراك» ومنها عين يقال لها «خيف ليلى» ومنها يقال لها «خيف بسطاس» فيها خليج من النخل مع العين»

ويذكر ابن شبة ثلاث روايات بشأن كيفية تملك تلك الأرض في ينبع:

الأولى تقول إن تلك الأرض كان رسول الله (ص) قد أقطعها لابن كشد الجهني فاشتراها منه عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري بثلاثين ألف درهم، ولكنه كرهها بسبب (ريحها الشديدة فعرضها على علي بن أبي طالب فقيل لك لن تباعها؟ قال علي: قد أخذتها بالثمن. قال: هي لك. فخرج إليها علي رضي الله عنه. فكان أول شيء عمله فيها البغيبغة، وأنفقها»

وفي الرواية الثانية «أن عمر رضي الله عنه قطع لعلي رضي الله عنه ينبع، ثم اشترى علي رضي الله عنه إلى قطيعة عمر أشياء، فحفر فيها عيناً»

وفي الثالثة «أقطع النبي (ص) علياً رضي الله عنه بذي العشيرة من ينبع، ثم أقطعه عمر رضي الله عنه بعد ما استخلف إليها قطيعة، واشترى علي رضي الله عنه إليها قطعة، وحفر بها عيناً»

وتجمع روايات ابن شبة إن علياً لم يكن يستفيد هو شخصيا من تلك الأموال بل كان وضعها في سبيل الله، روايتان متشابهتان عن جعفر بن محمد (الامام الصادق)، نص أحدهما «بشر علي رضي الله عنه بالبغيبغة حين ظهرت فقال: تسر الوارث، ثم قال: هي صدقة على المساكين وابن السبيل وذي الحاجة الأقرب»

وتقول أخرى (عن محمد بن كعب القرظي) «ثم تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، القريب والبعيد، وفي السلم والحرب. ثم قال: صدقة لا توهب ولا تورث، حتى يرثها الله الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين»

ويمكن الشك في عبارة «صدقة لا توهب ولا تورث» الواردة في رواية محمد بن كعب القرظي. فربما المقصود منها تأييد الخلفاء (اللاحقة) في حرمان ورثة علي من حقهم فيها.

فالأرجح أن علياً قد وقف ذلك الماء ينبع على الفقراء مع احتفاظه بحق الملكية، أي أنه لم يتنازل عنها لبيت المال. ومما يدل على ذلك ما رواه ابن شبة نفسه «كانت البغيبغات مما عمل علي رضي الله عنه وتصدق به، فلم تزل في صدقاته حتى أعطاها حسين بن علي ابن عبد الله بن جعفر بن أبي

طالب، يأكل ثمرها ويستعين بها على دينه ومؤونته، على ألاّ يزوج ابنته يزيد بن معاوية بن ابي سفيان». ويدعم ذلك رواية لابن حجر العسقلاني تشير الى ان علياً أباح للحسن والحسين بيعها إن دعتهم الحاجة لذلك، ولكن الحسين رفض بيعها لمعاوية رغم عرضه المغري.

فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في الاصابة في ترجمة أبي نيزر، نقلاً من كتاب الكامل للمبرد أنه كان يقوم بضيعتي علي اللتين في البقيع، تسمى احدهما البغيبغة، والاخرى عين أبي نيزر، وأضاف ان علياً اوقفهما على فقراء المدينة وابن السبيل، إلاّ أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق» وأضاف «وأن آخر الخبر أن الحسين احتاج لا جل دين عليه، فبلغ ذلك معاوية فدفع له في عين أبي نيزر مائة ألف، فأبى ان يبيعها وأمضى وقفها»

ورواية المبرد هذه، التي ذكرها ابن حجر، تتكلم عن ممتلكات لعلي في البقيع، أي في المدينة المنورة. ولكن الصحيح والشائع ان «البغيبغة» و«عين أبي نيزر» هي في ينبع. وذلك مشهور وخاصة فيما يتعلق بالبغيبغة.

على أن الامام علي كان له بعض الممتلكات في مناطق أخرى، سوى ينبع. روى ابن شبة:

«وكان له أيضا صدقات بالمدينة: «الفقيرين» بالعالية، و«بئر الملك» بقناة، و«الادبية» بالاضم»

وفي وادي القرى «عين ناقة» و«عين موات»

وفي مكان وعر بين المدينة والشام يدعى «حرة الرجلاء» كان له «واد يدعى الاحمر، شطره في الصدقة وشطره بأيدي آل مناع من بني عدي، منحة من علي» و«واد يقال له البيضاء فيه مزارع وعفاء وهو في صدقته. وله ايضا بحرة الرجلاء أربع آبار يقال لها قنات كسات» و«قنوات المشرك» و«قعين» و«رعوانه ابنه الأبر في صدقته»

وقريباً من ذلك المكان، ناحية فدك، له مال يقال له «القصيبة» وواد بين لابتي حرة يدعى «رعية» فيه نخل وينبع من ماء يجري على سفا جزونرقه فذلك في صدقته»

والمتأمل في ممتلكات الامام علي هذه يرى أن معظمها يقع في المناطق التي كانت لليهود، مثل وادي القرى وقرب فدك. ولم يذكر ابن شبة كيفية تملك الامام علي لها. ولكن يبدو أنها كانت من نصيبه من الفتوحات أيام النبي (ص). كما يلاحظ انها في معظمها عيون ماء وآبار. والظاهر أن الامام علي كان يحرص على حفر الآبار ليحيي تلك الأرض ويجعلها ذات قيمة وفائدة ثم يتصدق بها. قال ابن شبة «لما أشرف علي رضي الله عنه على ينبع، فنظر الى جبالها قال: لقد وضعت على نقي من الماء عظيم!»

وبخلاف غيره من كبار الصحابة القرشيين، لم يرد أبداً ما يشير الى ممتلكات لعلي في العراق أو غيره من البلاد المفتتحة. وطبعاً لا يوجد أي حديث عن غابات وأنهار أو آلاف العبيد الذين يزرعون عرابيهم له أو يعملون لحسابه، ولا عن ذهب متكدس لديه، ولا عن مئات الجمال ولا قوافل محملة له. كل ما تذكره المصادر هو إشارات متفرقة الى ممتلكات بسيطة (عيون ماء وآبار استصلحها بنفسه) جلها من العهد النبوي.

ومن المؤكد ان الامام علياً كان معارضاً لسياسة الطبقة الأموية الحاكمة التي تسيطر على ثروات هائلة من موارد الأمصار، وكان الصرف يتم بلا حساب لمن شاء الخليفة وولاته. وكان نصيب كبار الصحابة من عطاياهم وافراً. فتلك التصرفات كانت تثير حفيظة علي بن ابي طالب وغضبه رغم محاولاتهم استرضاءه. ومن ذلك ما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق من رواية ابن سعد «قدم سعيد بن العاص المدينة وافداً على عثمان، فبعث الى وجوه المهاجرين والانصار بصلات وكسا. وبعث الى علي بن ابي طالب أيضاً فقبل ما بعث به اليه. وقال علي: ان بني أمية ليفوقوني تراث محمد تفويقاً! والله لئن بقيتُ لهم لأنفضنهم من ذلك نفض القصاب التراب الوذمة!»

ويمكن التحفظ على فقرة «فقبل علي ما بعث به اليه»، فهي تتناقض مع سياق الرواية نفسها: فكيف يقبل عطايا بني أمية وهو يتوعدهم؟!

## الجزء الثالث

# الأمصار تتمرد على الخليفة

حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة، وأخو هند آكلة كبد حمزة، كان قد خالف أباه وقومه، فكان من القلة القليلة من أبناء بطون قريش العريقة الذين آمنوا بمحمد (ص) وهاجروا إلى الحبشة، فولد ابنه محمد هناك[1]. ولما استشهد أبو حذيفة في معركة اليمامة، تولى عثمان بن عفان رعاية ابنه محمد، بحكم كونه تاجراً غنياً، ومراعاة للقرابة.

وليس معروفاً على وجه الدقة السبب الذي جعل محمد بن أبي حذيفة يكون من أشد الكارهين لعثمان وحكمه والمؤلبين عليه. فمن المنطقي والمتوقع أن يكون ابن أبي حذيفة مثل بقية أقرانه من بني أمية وعبد شمس الذين استفادوا من فترة حكم الخليفة المجرز فحازوا على أعلى المناصب والمراتب. ولكن ذلك لم يحصل. بل أن كل المصادر التاريخية تجمع على أن محمد بن أبي حذيفة، بالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، كانا أبرز النشطاء في مصر المعادين لعثمان والمؤسسة الأموية الحاكمة. وهناك أوجه شبه كثيرة بين المحمدين ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة: فهما شابان من نفس الجيل، واستقرا في مصر، وهما ابنان لاثنين من كبار الصحابة السابقين إلى الإسلام والأخيرة هما من صميم قبيلة قريش. ولعل ابن أبي حذيفة تأثر بشخصية وأفكار ابن أبي بكر الذي كان ربيباً لعلي بن أبي طالب، وأخاً لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم.

فماذا تقول المصادر عن ابن أبي حذيفة ؟

ذكر البلاذري في أنساب الأشراف جملة من أخبار ابن أبي حذيفة، نقلاً عن أبي مخنف وغيره. ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

- أن عثمان بن عفان كان كفل محمد بن أبي حذيفة وتولى تربيته بعد استشهاد أبيه يوم اليمامة. وقد قال فيما بعد لما بلغه تمرد محمد بن أبي حذيفة «اللهم إني ربيته رحمة له وصلة لقرابته، حتى لقد كنتُ أتكلّف الصنع لأخصه به دون نفسي وولدي»

(1) هناك إجماع على ذلك، مثلاً: الإصابة لابن حجر العسقلاني وكذلك المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري

- شربَ محمد بن أبي حذيفة الخمرَ فأقام عليه عثمانُ الحدّ.

- تنسّك محمد بن أبي حذيفة بعدها وأقبل على العبادة، ورغب في أن يغزو البحرَ فاستأذن عثمانَ أن يأتي مصرَ فأذِنَ له. وكان خروجه إليها متزامناً مع خروج عبد الله بن أبي السرح.

- لما وصل مصرَ «رأى الناسُ عبادته فلزموه وأعظموه ومالوا إليه».

- كان ابن أبي حذيفة مع ابن أبي السرح في غزوته البحرية عام 34 فصلّى عبد الله بن سعد بن أبي السرح يوما فكبّر محمدُ بن أبي حذيفة من خلفه تكبيراً أفزعه، فنهاه وقال: أنك حدثٌ أحمق ولولا ذلك لقاربت بين خطاك».

- «وكان ابن أبي حذيفة يعيب ويعيبُ عثمانَ بتوليته اياه، ويقول: استعمل عثمان رجلاً أباح رسول الله (ص) دمَهُ يوم الفتح، ونزل فيه: ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله»

- كان محمد بن أبي بكر أيضاً من الذين شخصوا مع ابن أبي السرح إلى مصر، فكان يعين ابن أبي حذيفة في الطعن على الوالي. فكتب ابن أبي السرح إلى عثمان شاكياً إياهما «انهما قد أفسدا عليّ المغرب وأفسداه».

- أجابه عثمان بكتاب آمراً إياه بالتسامح معهما «أما محمد بن أبي بكر فإنه يوهب لأبي بكر ولعائشة أم المؤمنين. وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي، وهو فرخ قريش» فكتب له ابن أبي السرح «إن هذا الفرخ قد استوى ريشُهُ ولم يبقَ إلاّ أن يطير».

- أرسل عثمان إلى ابن أبي حذيفة كسوة وثلاثين ألف درهم، ولكنه جمع ما وصله من عثمان «ووضعه في المسجد ثم قال: يا معشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه؟»

- «فازداد أهل مصر طعناً على عثمان رضي الله عنه وإعظاماً لابن أبي حذيفة، واجتمعوا إليه فبايعوه على رئاستهم»

- فلم يزل ابن أبي حذيفة يحرض أهل مصر ويؤلبهم على عثمان حتى سيرهم إلى المدينة، فاجتمعوا إليه مع أهل المصرين، وكانوا أشدهم في أمره، وشخص محمد بن أبي بكر معهم»

ولم يذكر البلاذري مصير محمد بن أبي حذيفة ولا كيف تخلص منه معاوية.

وقال ابن عبد البر في ترجمة محمد بن أبي حذيفة بعد ان ذكر انه ولد في الحبشة في زمن رسول الله (ص) «وكان محمد بن أبي حذيفة أشد الناس تأليباً على عثمان.... وكان عثمان قد كفل محمد بن أبي حذيفة بعد موت أبيه أبي حذيفة، ولم يزل في كفالته ونفقته سنين. فلما قاموا على عثمان كان محمد بن أبي حذيفة أشد من أعان عليه، وألب وحرض أهل مصر.»

ولم يوضح ابن عبد البر أسباب عداء محمد لعثمان.

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة مجموعة من أخبار ابن أبي حذيفة، ومنها رواية

«عن محمد بن سيرين قال: قدم محمد بن أبي حذيفة على عثمان رضي الله عنه فأجازه بمائة ألف. ثم طعن عليه بعد ذلك، وقال: ما جعل هؤلاء أحق بالمال مني»

وعلى كل حال، فإن سياق الاحداث وتواتر الروايات يشير إلى أن مشكلة ابن أبي حذيفة مع ابن أبي السرح في مصر لم تكن قابلة للحل، بل كانت مسألة مبدأ. فعبد الله بن أبي السرح كان ينظر محمد بن أبي حذيفة مرتدا لعيناً ولم يكن جائزاً لعثمان تعيينه في ذلك المنصب من الأساس.

ورواية ابن كثير في البداية والنهاية عن غزوة ذات الصواري تظهر ذلك «قال الواقدي: فحدثني معمر عن الزهري قال: كان في هذه الغزوة محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر. فأظهرا عيب عثمان وما غيّر وما خالف أبا بكر وعمر، ويقولان: دمُهُ حلال لأنه استعمل عبدالله بن سعد – وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله دمَهُ – وأخرج رسول الله (ص)

أقواماً واستعمالهم عثمان، ونزع أصحاب رسول الله (ص) واستعمل سعيد بن العاص وعبدالله بن عامر.

فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا.

فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقوا العدو فكانا أنكل المسلمين قتالاً. فقيل لهما في ذلك فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه؟!

فأرسل إليهما عبد الله بن سعد فنهاهما أشد النهي وقال: والله لولا لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما!

## محمد بن ابي حذيفة مع كعب الأحبار

ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق رواية مثيرة عن ابن سيرين، توضح كيف كان استياء محمد بن ابي حذيفة من الهيئة الحاكمة يمتدّ ليصلَ الى كل المقربين منها والمنظرين لها، ومن هؤلاء كعب الأحبار اليهودي المسلم الذي كان من خاصة عثمان الذين يستشيرهم ويقربهم. ومن المشروع التخمين أن محمد بن ابي حذيفة كان حاضراً في المدينة حين حصل ذلك الصراع الحاد بين أبي ذر الغفاري والخليفة عثمان، وربما شاهدَ كيف كان كعب الأحبار يقف الى جانب الخليفة ويُفتي له بأن المسلم بعد دفع زكاة ماله ليس عليه أي حق ملزم تجاه غيره، بخلاف ما ينادي به أبو ذر. فلا شك بأن محمداً كان يزدري كعباً وما يشيعه من أحاديث بين المسلمين مستنداً الى توراة اليهود. والرواية تظهر كيف كان محمدٌ يسخر بكعب وروايته مما استفزه وأثار أعصابه:

«إن محمد بن ابي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وكعباً، ركبا سفينة في البحر. فقال محمد: يا كعب ! أما تجدُ سفينتنا هذه في التوراة كيف تجري؟!

فقال: لا ! ولكن أجدُ فيها رجلاً أشقى الفتية من قريش، ينزو في الفتنة كما ينزو الحمار. لا تكون أنت هو!

فقال ابن سيرين: فزعموا أنه كان هو»[1]

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة رواية ابن سيرين والتي فيها حادثة استهزاء محمد بن ابي حذيفة الشديد بكعب الاحبار وهما في السفينة كما يلي «ركب كعب الأحبار ومحمد بن ابي حذيفة في سفينة قبل الشام -زمن عثمان- في غزوة غزاها المسلمون.

فقال محمد لكعب: كيف تجد نعت سفينتنا هذه في التوراة تجري غدا في البحر؟

فقال كعب: يا محمد لا تسخر بالتوراة، فإن التوراة كتاب الله.

قال: ثم قال له ذلك ثلاث مرات.

فقال: لا أجد سفينتنا هذه منعوتة في التوراة، ولكني أجد في بعض كتاب الله أن فتنة قد أظلت، ينزو فيها رجل من قريش له سن شاغية نزو الحمار في القيد. فاتق ألاّ تكون ذلك الرجل»

وفي رواية أخرى أن جواب كعب كان «أجد في كتاب الله أن رجلا من قريش اسمه اسمك أشر الثنايا يحجل في الفتنة كما يحجل الحمار في القيد فاحذر ألاّ تكون أنت». وفي رواية ثالثة أن كعبا قال له عن الفتنة «يثب فيها غلام من قريش أشغى الثنيتين فيؤخذ فيضرب عنقه. فانظر ألاّ تكون ذلك. فكان هو»؟

كما أخرج رواية السفينة عن الزهري أيضا، ولكن فيها اختلافه مع ابن السرح الغزا ابن ابي سرح غزات الصواري سنة ٣١، ومعه محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة، فكانا يعيبان عثمان. فحملهما ابن ابي سرح في سفينة مع القبط، ثم كلم ابيهما لحولهما. فلما رجع كتب الى عثمان بما كان منهما. فكتب اليه: أن أشخص إلى ابن ابي بكر. وقال عثمان: العجب لابن ابي حذيفة

---

(١) وهذه الرواية بالحرف وردت في المعجم الكبير للحافظ الطبراني بسند كامل حدثنا سليمان بن الحسن العطار ثنا أبو كامل الجحدري ثنا إسماعيل بن إبراهيم ثنا بن عون عن محمد بن سيرين»

أكفته وريثه، ثم هو يؤلب الناس عليّ. اللهم انه لم يشكر بلائي فأجزني منه!

وفي رواية أخرى ان عثمان قال ألا تعجبون لابن ابي حذيفة؟! ضممتُ الرجل لرحمه، فكنتُ أمسح بطنه من الليل، أنظر أجائع هو أم شبعان، ثم هو يسعى في خلعي وسفك دمي. اللهم فأجزه جزاء من كفر النعمة وضيعه

وربما يكون كلام ابن ابي حذيفة لكعب الاحبار، ومشكلته مع ابن ابي السرح، في ذات الغزوة: ذات الصواري. فلا تناقض بالضرورة بين روايتي الزهري وابن سيرين.

ممارسات ابن ابي السرح في مصر

الدلائل تشير إلى أنه بعد تعيينه واليا على مصر، اتجه ابن ابي السرح الى تطبيق سياسة قاسية، ومرتكزة الى جمع الضرائب المرتفعة من أهل البلد. والظاهر أن ذلك قد حظي برضى وإعجاب الخليفة. فيمكن القول ان ابن ابي السرح قد صبّ جهده وطاقته في انتزاع الأموال، بكل الوسائل، من أهل البلد دون ان يراعي ظروفهم وأحوالهم كما ينبغي.

ويبدو أن ابن أبي السرح كان همه أن يثبت لسيّده وولي نعمته، عثمان، انه اتخذ قراراً صائباً حين ولاّه، بدليل تدفّق الأموال التي يجبيها الوالي ويرسل جزءً كبيراً منها إلى العاصمة.

وبالفعل، فقد بدا عثمان يرى أن الأموال التي ترد من الاقليم المصري على يد واليه الجديد، تصل الى أضعاف تلك التي كان يرسلها عمرو بن العاص. والروايات تذكر أن ذلك أثار إعجاب الخليفة وارضاه إلى حد أنه اراد أن يبلّغ ابن العاص بالتغيرات التي تحصل من بعده، وكيف أن واليه الجديد أكثر نفعاً منه. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن عثمان قال له:

*يا عمرو: أرى تلك اللقاح قد درّت من بعدك!*

*فقال عمرو: إنما درّت لهلاك فصالها، وإنها قد هزلت*

وفي رواية أخرى أن عمراً أجابه: إنكم أعجفتم أولادها».

وفي رواية اليعقوبي أنه بعد أن عيّن عبد الله بن أبي السرح واليا على مصر :

«جبى عبد الله مصر اثني عشر ألف ألف دينار.

فقال عثمان لعمرو: درّت اللقحة!

قال: ذاك إن يتم يضر بالفصال».

وهذه الروايات يمكن قبولها بالتأكيد، وليس هذا الجواب البليغ بمستغرب من شخص كعمرو، وهو لا يخلو من الصواب. فرغم أنه من الممكن أن يكون عمرو بن العاص أثناء ولايته يقتطع جزءاً من أموال الخراج والغنائم لنفسه، إلا أنه أصاب كبد الحقيقة حين أخبر عثمان أن سياسة المبالغة في الضرائب والجباية التي يطبقها ابن أبي السرح تكاد تؤدي إلى هلاك أهل البلد من كثرة كدحهم لدفع ما يفرضه الوالي.

ورغم أن الضرائب والخراج كانت تفرض أساساً على القبط، أهل البلد الأصليين وليس على العرب الفاتحين، وبالتالي فهؤلاء كانوا المتضررين الأول من سياسة الوالي، إلا أن ابن أبي السرح قد تمادى في سوء سياسته وسلوكه حتى طال ذلك مجتمع العرب المستوطنين بمصر.

ويبدو أنه كانت تجاوزات ابن أبي السرح فاحشةً وهائلة إلى درجة أن شيخ المؤرخين الطبري تخلى عن التزامه بتوثيق ما وصله من أخبار، فأعلن أنه «كره ذكرها» حفاظاً على سمعة الخليفة عثمان كما يبدو. فالطبري قال في تاريخه «وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أموراً كثيرة، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني ذكره لبشاعته».

وذكر ابن حبان في كتاب الثقات ضمن أحداث سنة 35 للهجرة «خرج جماعة من أهل مصر إلى عثمان يشكون ابن أبي سرح ويتكلمون منه، فكتب إليه عثمان كتاباً وتقدم إليه. فأبى ابن أبي السرح أن يقبل من عثمان، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان متظلماً وقتل رجلاً من المتظلمة».

وفيما يلي نصٌّ جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلا عن الزهري عن سعيد بن المسيب[1]:

فجاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح، فكتب إليه عثمانُ رضي الله عنه كتاباً يتهدده فيه، فأبى أن يقبل ما نهاه عنه عثمان رضي الله عنه وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان من أهل مصر يتظلم منه فقتله.

فخرج من أهل مصر سبعمائة إلى المدينة، فنزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سَرح بهم.

فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان رضي الله عنه بكلام شديد، وأرسلت إليه عائشة فقالت: قد تقدم إليك أصحاب محمد، وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت إلا واحدة فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك. ودخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه -وكان متكلم القوم- فقال: إنما سألوك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا منه دماً فاعزله عنهم واقض بينهم، وإن وَجَب عليه حق فأنصفهم منه. ...»

وفي رواية الطبري في تاريخه عن الواقدي انه لما دخل المصريون على عثمان في داره أمام الصحابة تقدم رئيسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي فذكر ما صنع ابنُ سعد بمصر:

وذكر تحاملاً منه على المسلمين

وأهل الذمة

وذكر استئثاراً منه في غنائم المسلمين، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ.

ثم ذكروا أشياء مما أحدث بالمدينة وما خالف به صاحبيه

قال: فرحلنا من مصر ونحن لا نريد إلا دمك أو تنزع»

---

(1) وعن هذا النص بالحرف تقريبا رواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة بإسناده المصري (ذكروا). وكذلك يروي ابن حبان في كتاب «الثقات»

ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري رواية عن عروة بن الزبير:

«كتب أهل مصر إلى عثمان: من الملأ المسلمين إلى الخليفة المبتلى. أما بعد فالحمد لله الذي أنعم علينا وعليك. والحذر علينا فيما أتاك الفتنة.

وإنا نذكرك الله في مواقع السحاب فإن الله تعالى قال في كتابه (أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق): أن تحل ما شئت منه بقولك وتحرم ما شئت منه بقولك.

ونذكرك الله في الصدود: أن تعطيها في القريب وتقيمها في اليمين فإن مثل الله واحد.

ونذكرك الله في أقوام أخذ الله ميثاقهم على طاعة ليكونوا شهداء على خلقه. نصحوا لك فاغتششت نصيحتهم، وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم. وقال الله في كتابه (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون)

فنذكرك الله وننهاك عن المعصية، فإنك تدعي علينا الطاعة وكتاب الله ينطق: لا طاعة لمن عصى الله. فإن تعط الله الطاعة نؤازرك وندعمك وإن تأب فقد علمنا أنك تريد هلكتنا وهلكتك. فمن يمنعنا من الله إن عصيناه وأطعناك، وأنت العبد الميت المحاسب والله الخالق البارئ المصور الذي لا يموت»

وقد روى ابن شبة عن الزهري أن الخليفة بعث لأهل مصر بكتاب عام، لا يحتوي إلا على التأكيد على طاعة أولي الأمر والتشديد على الرغبة بالبيعة والتحذير من الفرقة والفتنة.

فلذا استمر عثمان في دعم واليه ابن أبي السرح.

******

مما تقدم يمكن تلخيص أسباب شكوى أهل مصر والجمع بين الروايات على النحو التالي:

(1) السياسة المالية وتوزيع الأموال والظلم الواقع على أهل البلد سواء العرب منهم أو أهل الذمة.

(2) اللامبالاة في تطبيق الحدود الشرعية.

(3) العقوبات الظالمة المطبقة بحق الكثيرين من الناس الصالحين، وخاصة النفي.

(4) التهاون في الواجبات الدينية، وخاصة الصلاة.

## تفنيد رواية لسيف بن عمر

ولا بد لسيف بن عمر أن يدلي بدلوه محاولاً كعادته الدفاع عن الخليفة وواليه. فهناك رواية غريبة يرويها الطبري في تاريخه، نقلاً عن سيف، تقول أن عثمان بن عفان أرسل عمار بن ياسر إلى مصر لكي يتحقق مما يجري هناك وما يرويه الناس عن سوء الحكم وفساد الإدارة فيها. وتذكر الرواية أن عماراً تأخر في العودة إلى المدينة كثيراً إلى أن وصل كتابٌ من الوالي عبد الله بن سعد بن أبي السرح، يُخبر فيه أن عماراً استماله قومٌ من مصر منهم عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران وكنانة بن بشر!

ويمكن طرح العديد من علامات التعجب هنا:

- فكيف يمكن تصوّر أن عثمان بن عفان يختار عمار بن ياسر بالذات لمهمة كهذه؟! فعمار بن ياسر كان معروفاً عنه طعنه الدائم في سياسة عثمان وحكمه. وقد مرّ كيف كان عمار من أشد المعارضين للخليفة من البداية، والمعادين للسيطرة الأموية على مقاليد الحكم في الدولة وكيف تعرض إلى عقاب قاسٍ جداً من الخليفة عثمان وصل إلى حد الضرب المبرّح.

فهل لم يجد عثمان شخصاً آخر، غير عمار، ليرسله في المهمة المزعومة للتحقق من انتهاكات وتجاوزات واليه هو؟! وهل يعقل أن يختار عثمان شخصاً معادياً له إلى درجة كبيرة، ليشهد على نظافة حكمه وحُسن سياسة واليه، المشكوك في إسلامه، ابن أبي السرح؟

- وتضع هذه الرواية عبدَ الله بن سعد بن أبي السرح، المرتدَّ القديم والحاكم الذي اشتهر فساده وظلمه، في موقع الحريص على مصلحة المسلمين، والناصح الأمين لخليفة الإسلام الساعي إلى مواجهة المؤامرة

اليهودية الشريرة التي يقترحها ابن سبأ؟! وفي المقابل تضيع الرواية عمار بن ياسر، الصحابي العريق الذي طالما تعذّب على رمضاء مكة في سبيل الإسلام ورسوله، في مواقع المتسائل وراء اليهودي الخبيث، والداخل في خطائر الخيانة والتآمر مع الأشرار على الخليفة البريء ووالية المسكين؟!

– ويبدو واضحاً مدى التصنّع الظاهر في حشر اسم ابن سبأ بين مجموعة أسماء لأشخاص حقيقيين، كانت لهم مساهمات بقتل عثمان لاحقاً.

## تحامل الرواة على ابن ابي حذيفة

هكذا ورد تفسير عداء المتمردين لعثمان حسب روايات سيف بن عمر في تاريخ الطبري:

قال ان محمد بن ابي حذيفة كان يتيما في حجر عثمان فسأل عثمانُ العملَ حين ولي، فقال: *يا بني، لو كنتَ رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك. ولكن لستَ هناك*» فعند ذلك استأذنه محمد في الخروج من المدينة فأذن له وجهزه، فذهب الى مصر وهناك انقلب على عثمان لأنه منعهُ الولاية.

وأما محمد بن ابي بكر فقال عنه انه «*الغضب والطمع*» دفعاه الى عداء عثمان وفسر ذلك «*كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغرّه أقوام فطمع. وكانت له دالة فلزمه حق، فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن، فاجتمع هذا الى هذا فصار مذمماً بعد أن كان محمداً*»

ويلاحظ هنا مدى الكره الذي يكنه سيف لابن ابي بكر الى حد اللجوء الى استعمال نفس اللقب القديم المشين الذي كانت تطلقه قريش على رسول الله(ص): مذمم!

وأما ابن حجر العسقلاني في الاصابة فلم يذكر أسباباً لعداء ابن ابي حذيفة لعثمان ولا تفاصيل حول علاقاته مع ابن ابي السرح بمصر.

ولكنه تحدّث عن قيام ابن ابي حذيفة بتزوير كتب ورسائل على لسان امهات المؤمنين في المدينة موجهة الى أهل مصر تشكو من الخليفة ! فقد روى ان ابا عمر الكندي أخرج من طريق الليث عن عبد الكريم بن الحارث

الحضرمي فإن ابن أبي حذيفة كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي (ص) في الطعن على عثمان. كان يأخذ الرواحل فيحصرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم فيجعلهم على ظهور بيت في الحر، ليستقبلوا بوجوههم الشمس، ليلوحهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة، ثم يرسلوا رسلاً يخبروا بقدومهم. ليأمر بتلقيهم. فإذا أتوا الناس قالوا لهم: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب ! فيتلقاهم ابن أبي حذيفة ومعه الناس فيقول لهم الرسل: عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم الكتب من أمهات المؤمنين: إنا نشكو إليكم يا أهل الإسلام كذا وكذا من الطعن على عثمان ! فيضج أهل المسجد بالبكاء والدعاء»

وهكذا تصور هذه الرواية ابن أبي حذيفة ككذاب محترف. فهو ليس فقط يخترع أخباراً ملفقة وينسبها زوراً إلى أزواج النبي(ص)، بل إنه يعد مسرحاً كاملاً من أجل أن تنطلي أباطيله على أهل مصر: فهو يحضر دواباً فيحميها لكي تهزل فيبدو عليها إجهاد السفر الطويل، وهو يرتب مع رجال لكي يلفحوا وجوههم بالشمس فيظهروا بهيئة المسافر، ويتفق معهم على القدوم من طريق المدينة، وأن يرسلوا من يخبر بقرب قدومهم لأجل تشويق الناس، وأخيراً يقرأ كتبهم المزورة على رؤوس الأشهاد في المسجد !!

## خلعُ ابن أبي السرح

هناك نوع من الغموض في الروايات التاريخية التي تتحدث عن كيفية سيطرة محمد بن أبي حذيفة وأصحابه على مصر، ومتى حدث ذلك بالتحديد.

فقد روى البلاذري في أنساب الأشراف «فلما حوصر عثمان وثب محمد بن أبي حذيفة على عبد الله بن سعد، فطرده من مصر، وصلى بالناس وتولى أمر مصر»

وقد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق أخبار صراعات محمد بن أبي حذيفة في مصر، فقال عنه نقلاً عن طبقات ابن سعد «وهو الذي وثب بعثمان بن عفان وأعان عليه وحرض أهل مصر حتى ساروا إليه»

ويروى عن ابي سعيد بن يونس ان محمد بن ابي حذيفة كان أول من انتزى بمصر. انتزى على عقبة بن مالك، وكان خليفة عبد الله بن سعد بن ابي سرح على مصر حين خرج وافداً الى عثمان. فأخرج عقبة من الفسطاط، فخلع عثمان بن عفان وتأمر على مصر... وكان يسمى ميشوم قريش؟

ومن هذه الرواية يظهر أن محمداً نجح في استغلال غياب ابن ابي سرح عن مصره ليتغلب على نائبه. كما روى عن شاهد عيان المزيد من التفاصيل حول الصراع بين محمد وعقبة انتهت مع عقبة بن عامر جالساً قريباً من المنبر يوم الجمعة، فخرج محمد بن ابي حذيفة فاستوى على المنبر فخطب الناس، ثم قرأ عليهم سورة من القرآن -وكان من أقرأ الناس- فقال عقبة بن عامر: صدق الله ورسوله: إني سمعت رسول الله (ص) ليقرأن رجال لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية !

زاد ابن عثمان: فسمعها ابن ابي حذيفة فقال: والله لئن كنت صادقاً -وإنك ما علمت لكذوب- إنك متهم؟

وهذه الرواية توضح مدى اتقان محمد للقرآن وتأثيره على الناس بما يفوق نائب ابن ابي سرح.

ويروي ابن حجر في الاصابة عن ابي عمر الكندي أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد خرج من مصر متوجهاً إلى عثمان لما قام الناس عليه، فطلب أمراء الأمصار، وذلك في رجب سنة 35هـ واستناب عقبة بن عامر... فوثب محمد بن أبي حذيفة على عقبة بن عامر فأخرجه من مصر، وذلك في شوال من عام كله، ودعا إلى خلع عثمان وأسعر البلاد وحرض الناس على عثمان.

كما روى عن عبد العزيز بن عبد الملك السليحي عن ابيه بعض التفاصيل حول الصراع بين محمد وعقبة انتهت مع عقبة بن عامر قريباً من المنبر، لخرج ابن ابي حذيفة فخطب الناس، ثم قرأ عليهم سورة -وكان قارئاً- فقال عقبة: صدق رسول الله (ص): ليقرأن القرآن ناس لا يجاوز تراقيهم.

فسمعه ابن ابي حذيفة فقال: إن كنت صادقاً إنك متهم؟

وهذه تشبه رواية ابن عساكر السابقة التي توضح مدى اتقان محمد للقرآن وتأثيره على الناس

وتابع ابن حجر من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب «بايع أهلُ مصر محمدَ بن أبي حذيفة بالإمارة إلاّ عصابة منهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان».

وذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن الذي استخلفه ابن أبي السرح هو هشام بن عمرو إلى أن أزاله عنها ابن أبي حذيفة.

ويروي ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة لابن ابي السرح «وغزا الصواري في البحر من أرض الروم سنة 34، ثم قدم على عثمان. واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري، فانتزى عليه محمد بن ابي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فخلع السائب وتأمّر على مصر، ورجع عبد الله بن سعد من وفادته فمنعه ابن ابي حذيفة من دخول الفسطاط ...»

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة موقف ابن ابي حذيفة مع عقبة بن عامر (دون الاشارة الى انه كان الذي استخلفه ابن ابي السرح على مصر). فروى عن حرملة بن عبد العزيز عن ابيه «كان محمد بن ابي حذيفة يخطب، وكان أقرأ الناس للقرآن. فقال عقبة بن عامر: صدق الله ورسوله! سمعتُ رسول الله (ص) يقول: يقرأ القرآن قوم لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. قال: لئن كنت سمعت هذا من رسول الله (ص) لزعم ذلك ... لكذوب، انك ما علمتُ لكذوب»

كما روي عن سلمة بن مخرمة «لما انتزى ابن ابي حذيفة بمصر، فخلع عثمان، دعا الناس الى أعطياتهم، فأبيتُ أن آخذ منه. قال: ثم ركبتُ الى المدينة فسرتُ الى عثمان فقلتُ: يا أمير المؤمنين ان ابن ابي حذيفة إمام حلا له كما علمتَ. وانه انتزى علينا بمصر فدعانا الى أعطياتنا فأبيتُ أن آخذ منه. فقال: حجزتَ إنما هو حقك. حجزتَ إنما هو حقك»

والأرجح هو أن ثورة محمد بن أبي حذيفة ومَن معه وخلعهم لابن أبي

السرح قد حصلت في أثناء فترة الشهور القلائل التي كان فيها عثمان مُحاصَراً إلى أن قتل. ربما كانت الأخبار الواردة من المدينة في تلك الأثناء مضطربة ومشوشة بحيث أثارت اضطراب ابن أبي السرح وأفقدته توازنه. من المحتمل أن ابن أبي السرح قد وصلته أخبار قتل عثمان وبيعة عليّ ففزع وعرف أنه ليس فقط سيفقد منصبه، وإنما قد يصبح مطلوبا للعقاب من قبل الخليفة الجديد على ما اقترفه من تجاوزات أثناء ولايته الطويلة. لا شك أن ابن أبي السرح كان يعرف علياً حق المعرفة، ويعرف صرامته في الحق، وربما قدر أن عليا سيكون كله آذاناً صاغية لكل من له شكوى أو مظلمة ضده.

مصير ابن أبي حذيفة

قال الطبري في تاريخه:

«اختلف أهل السير في وقت مقتله فقال الواقدي قتل في سنة ست وثلاثين قال وكان سبب قتله أن معاوية وعمرا سارا إليه وهو بمصر قد ضبطها فنزلا بعين شمس فعالجا الدخول فلم يقدرا عليه فخدعا محمد بن أبي حذيفة على أن يخرج في ألف رجل إلى العريش فخرج وخلف الحكم بن الصلت على مصر فلما خرج محمد بن أبي حذيفة إلى العريش تحصن وجاء عمرو فنصب المنجنيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فأخذوا فقتلوا قال وذلك قبل أن يبعث علي إلى مصر قيس بن سعد.

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه ذكر أن محمد بن أبي حذيفة إنما أخذ بعد أن قتل محمد بن أبي بكر ودخل عمرو بن العاص مصر وغلب عليها وزعم أن عمرا لما دخل هو وأصحابه مصر أصابوا محمد بن أبي حذيفة فبعثوا به إلى معاوية وهو بفلسطين فحبسه في سجن له فمكث فيه غير كثير ثم إنه هرب من السجن وكان ابن خال معاوية فأرى معاوية الناس أنه قد كره انفلاته فقال لأهل الشام من يطلبه قال وقد كان معاوية يحب فيما يرون أن ينجو فقال رجل من خثعم يقال له عبيد الله بن عمرو بن ظلام وكان رجلا شجاعا وكان عثمانيا أنا أطلبه فخرج في خيله حتى لحقه بأرض البلقاء بحوران وقد دخل في غار هناك فجاءت حمر تدخله وقد أصابها المطر فلما رأت الحمر الرجل

في الغار فإذا خرجت انفردت فقال حصادون كانوا قريبا من الغار والله إن لنرى هذه الحمر من الغار لشأنا فذهبوا لينظروا فإذا هم به فخرجوا به وفيهم عبد الله بن عمرو بن ظلام الخثعمي فسألهم عنه ووصفه لهم فقالوا له ها هو ذا في الغار قال فجاء حتى استخرجه وكره أن يرجعه إلى معاوية فيخلي سبيله فضرب عنقه(1)

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن محمد بن أبي حذيفة قتل بفلسطين سنة 36، وكان ممن أخرجه معاوية في الرهن من مصر.

وروى ابن حجر في الإصابة أنه بعدما قتل عثمان:

فلما علم بذلك من امتنع من مبايعة بن أبي حذيفة اجتمعوا وتبايعوا على الطلب بدمه. فسار بهم معاوية بن حديج إلى الصعيد. فأرسل إليهم بن أبي حذيفة جيشا آخر فاقتتلوا فقتل قائد الجيش.

ثم كان من مسير معاوية بن أبي سفيان إلى مصر لما أراد المسير إلى صفين لرأى ألا يترك أهل مصر مع ابن أبي حذيفة خلفه فسار إليهم في عسكر كثيف. فخرج إليهم ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعوه من دخول الفسطاط. فأرسل إليهم إنا لا نريد قتال أحد وإنما نطلب قتلة عثمان.

فدار الكلام بينهم في الموادعة. واستخلف بن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وخرج مع جماعة منهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح فلما بلغوا به غدر بهم عسكر معاوية وسجنوهم إلى أن قتلوا بعد ذلك.

وذكر أبو أحمد الحاكم أن محمدا بن أبي حذيفة لما ضبط مصر وأراد معاوية الخروج إلى صفين بدأ بمصر أولا فقاتله محمد بن أبي حذيفة بالعريش إلى أن تصالحا وطلب منه معاوية ناسا يكونون تحت يده رهنا ليأمن جانبهم

---

(1) وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نفس الرواية الثانية للطبري، التي تحدثت عن لجوء ابن أبي حذيفة إلى الغار وضرب عنقه على يد ابن ظلام، نقلاً عن المدائني. وحسب هذه الرواية يكون محمد بن أبي حذيفة قد بقي لما بعد محمد بن أبي بكر.

إذا خرج إلى صفين فأخرج محمد رهنا عليهم ثلاثون نفسا فأحيط بهم وهو فيهم فسجنوا

وقال أبو أحمد الحاكم خدع معاوية محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى العريش في ثلاثين نفسا فحاصره ونصب عليه المنجنيق حتى نزل على صلح فحبس ثم قتل

وأخرج ابن عائذ من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب قال فرقهم معاوية بصفين فسجن ابن أبي حذيفة ومن معه في سجن دمشق وسجن ابن عديس والباقين في سجن بعلبك....

واختلف في وفاته فقال ابن قتيبة قتله رشدين مولى معاوية وقال ابن الكلبي قتله مالك بن هبيرة السكوني؟

فمحمد بن ابي حذيفة ذهب ضحية غدر معاوية حسب أغلب الروايات.

### علاقة ابن ابي حذيفة بالامام علي

كان محمد بن ابي حذيفة شيعيا، ولا جدال في ذلك. والمصادر الشيعية تذكره بكل خير وتقول بأن الامام عليا قد أثبته على ولاية مصر لما تولى. فمثلا قال عنه الحر العاملي في وسائل الشيعة المشكور. قاله العلامة. وقال الشيخ: كان عاملا علي عليه السلام على مصر. وروى الكشي مدحه. وورد في رجال الطوسي أنه كان عامل الامام علي على مصر

ورغم أن المشهور لدى المؤرخين هو ان الذي عينه الامام علي على ولاية مصر لما تولى كان قيس بن سعد بن عبادة الانصاري، إلا أنه توجد روايات تقول بأنه كان قد أقر ابن أبي حذيفة فترة قليلة قبل ذلك. فمثلا قال ابن كثير في البداية والنهاية ان محمد بن ابي حذيفة كان قد تغلب على مصر، وأخرج منها عبد الله بن سعد بن ابي سرح، نائب عثمان بعد عمرو بن العاص. فأقره عليها علي مدة يسيرة ثم عزله بقيس بن سعد

وقال ابن حجر العسقلاني في الاصابة :... وذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن عليا لما ولي الخلافة أقر محمد بن أبي حذيفة على إمرة مصر ثم

ولاها محمد بن أبي بكر.« وهنا يبدو فان حجر قد أخطأ بذكر محمد بن ابي بكر مباشرة بعد ابن ابي حذيفة، فهو قد نسي قيس بن سعد.

وأخذنا بعين الاعتبار أنه في الفترة المضطربة التي تولى فيها الامام علي الخلافة كان ابن ابي حذيفة متغلبا على مصر بالفعل، لا يمكن الجزم بأنه قد عيّن بالفعل من قبل الامام علي. فلا يوجد ذكر لحادثة توليه ثم عزله عند معظم المؤرخين. كما لا يوجد سبب محدد يدفع الامام عليا لتعيينه لتلك الفترة القصيرة جدا ثم استبداله. ولكن ربما هو قام بدور القائم بتصريف الاعمال في مصر الى حين وصول الوالي الرسمي للامام علي وهو قيس بن سعد.

وبخلاف محمد ابن أبي بكر الذي تربى في بيت عليّ بن أبي طالب وكان أخا لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم، لا توجد أدلة كثيرة على علاقة مباشرة وتواصل بين الامام علي ومحمد بن ابي حذيفة. بل على العكس من ذلك: فابن ابي حذيفة تربى في بيت عثمان بن عفان.

ولكن ينبغي القول بأن ابن ابي حذيفة لم يكن أول حالة لشخصية أموية النسب تتشيع لعلي بن ابي طالب وتتخلى عن انتمائها العائلي في سبيل ذلك. فقبله كان خالد بن سعيد بن العاص.

وفي حالة محمد بن ابي حذيفة فانا أرجح أن صداقته لمحمد بن ابي بكر، وقربه منه، جعله يتأثر بافكاره فيقلب انتماءه وولاءه من قريبه ومربيه عثمان الى علي.

وقد وجدتُ نصا يتحدث عن رسالة من محمد بن ابي حذيفة الى الامام علي. فقد روى الطبري في تاريخه عن الواقدي:

«كان محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة بمصر يحرّضان على عثمان، فقدم محمد بن ابي بكر وأقام محمد بن ابي حذيفة بمصر،

فلما خرج المصريون خرج عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وأظهروا انهم يريدون العمرة. وخرجوا في رجب.

وبعث عبد الله بن سعد رسولاً سار إحدى عشرة ليلة يخبر عثمان أن ابن عديس وأصحابه قد وجهوا نحوه، وأن محمد بن أبي حذيفة شيعهم إلى عجرود ثم رجع.

وأظهر محمد أن قال: خرج القوم عُمّاراً، وقال في السر: خرج القوم إلى إمامهم فإن نزع وإلاّ قتلوه.

وسار القوم المنازل لم يعدوها حتى نزلوا ذا خشب.

وقال عثمان قبل قدومهم حين جاءه رسول عبد الله بن سعد: هؤلاء قوم من أهل مصر يظهرون بزعمهم العمرة، والله ما أراهم يريدونها ولكن الناس قد دخل بهم وأسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمري. أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة مما يرون من الدماء المسفوكة والإحن والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة.

قال: فلما نزل القوم ذا خشب جاء الخبر أن القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع، وأتى رسولهم إلى علي ليلاً، وإلى طلحة وإلى عمار بن ياسر. وكتب محمد بن أبي حذيفة معهم إلى عليّ كتاباً فجاءوا بالكتاب إلى عليّ فلم يظهر على ما فيه. فلما رأى عثمان ما رأى جاء علياً فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم إنه ليس لي مترك وإن قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عني...»

ورغم أن هدف هذه الرواية الظاهر هو إثبات مسؤولية ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر عن إرسال المتمردين على عثمان من مصر إلى المدينة، إلاّ أن فيها ما يشير إلى تواصل مباشر بين ابن أبي حذيفة والإمام علي، رغم أنها لم تظهر محتوى الكتاب.

## مصير ابن أبي السرح

هناك غموض وتضارب فيما يختص بعبد الله بن سعد بن أبي السرح ومصيره عقب مقتل عثمان.

روى البلاذري في أنساب الأشراف أنه بعد أن سيطر ابن أبي حذيفة على مصر أثناء حصار عثمان قام بطرد ابن أبي السرح من مصر

فصار عبد الله بن سعد إلى فلسطين ثم لحق بمعاوية، ثم إنه صار بعد ذلك إلى افريقية فقتل بها. ويقال: مات بفلسطين وكان قد أقام بها. وكان موته في آخر خلافة علي»

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ابن ابي السرح انه بعد ان منع ابن ابي حذيفة ابنَ ابي السرح من العودة الى مصر»، فمضى الى عسقلان، فأقام بها حتى قتل عثمان رضي الله عنه. وقيل: بل أقام بالرملة حتى مات فارّاً من الفتنة»

وقال ابن خلدون في تاريخه:

«وخرج عبد الله بن سعد من مصر وافدا لعثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر واستولى بها ورجع عبد الله من طريقه فمنعه الدخول فسار إلى عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها هربا من الفتنة حتى مات ولم يبايع عليا ولا معاوية»

روى ابن حجر في الاصابة «بايع أهل مصر محمد بن أبي حذيفة بالإمارة إلا عصابة منهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان».

وحسب هذه الرواية فإن ابن أبي السرح يكون قد قرر الذهاب إلى معاوية بعد خلعه من مصر. وهذه الرواية مشككة لأنه لم ترد أية روايات تفيد بوجود مقاومة للدخول والي عليّ المعيّن، قيس بن سعد، إلى مصر بعد فترة قصيرة. إذ لو كان ابن أبي السرح مسيطراً على مصر لما سمح لقيس بن سعد بدخولها بيُسر.

وليس لابن ابي السرح ذِكرٌ مؤكد في أحداث الصراع العلني الذي دار بين معاوية وعليّ. رغم أنه يوجد له ذكر لدى الدينوري في الاخبار الطوال ضمن الأشخاص الذين استشارهم معاوية حول التخلية بين جيش العراق وماء الفرات لما وصلوا صفين.

ولكن الأرجح أنه مات بفلسطين في بداية تلك الأحداث، خاصة أنه ولا شك كان طاعناً في السن، في السبعينات من عمره حتماً. فهو كان قد ارتد في بداية بعثة الرسول (ص)، أي أنه كان رجلاً ناضجاً قبل حوالي 33 عاما من سنة 35 للهجرة، وبذلك يكون ولا شك في أواخر عمره عند مقتل عثمان.

ويقول ابن حجر في الإصابة أن ابن أبي السرح مات في عسقلان (وقيل الرملة) سنة 36 للهجرة. رغم أنه ذكر رواية أخرى تفيد أنه عاش إلى سنة 57، وحتى 59 للهجرة. وذكر ابن الأثير في أسد الغابة أنه مات بعسقلان سنة 36 أو 37 رغم أن هناك من روى أنه عاش إلى آخر أيام معاوية.

## الفصل الثاني: التمرد في العراق[1]

كما في كل مكان وزمان لا يمكن أن يُعزى التمرد على السلطة والخليفة الى سبب واحد بعينه أو الى حادثة محددة، فالثورة تكون نتاج عوامل كثيرة تتراكم حتى تصل الى نقطة الانفجار، وهذا ما حصل في العراق.

فبالاضافة الى ما ذكرناه بشأن نوعية الولاة الذين عينهم عثمان، والمآخذ الكثيرة على خلفياتهم وسلوكهم الشخصي، تدل كل المؤشرات على أن السياسة الاقتصادية لعثمان وولاته كانت محل نقمة وسبباً لغضب عامة المسلمين. خاصة وأنه كان هناك توجه واضح للاستئثار بالأراضي والمزارع العراقية من قبل الطبقة الأموية الحاكمة وأتباعها كما تقدم. ومن المؤكد أنه لم يكن هناك رضى من الناس عما يرونه من نهب للخيرات تمارسها بطانة الولاة الأمويين.

ومن الطبيعي أن تكون تلك التطورات مثار سخط وغضب لدى قطاع عريض من العرب المقيمين في الكوفة خاصة، منذ فترة طويلة، من أيام الفتح الأول. فأبناء القبائل العربية هناك كانوا يعتبرون أنفسهم، هم دون غيرهم، مَن قاموا بعبء القتال ضد جيوش الفرس حتى حققوا النصر والفتح، بعد أن قدموا التضحيات الجسام في سبيل ذلك. كانوا يرون أنهم بسيوفهم وحوافر

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج21 ص12)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص32)، تاريخ الطبري (ج3 ص361-368 و ص369)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1141 و ص1142)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص151-152 و ص[illegible]-[illegible] و ص[illegible])، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص[illegible]-[illegible] و ص[illegible]-[illegible] و ص[illegible])، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج7 ص[illegible])، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص134 و ص185)

عليهم، وجاء إخوانهم وأبناؤهم هزموا جيوش فارس في القادسية ونهاوند وهم الآن يرون القرشيين يسيرون باتجاه خطير جعلهم يمسّون بمصالحهم، وهو الهيمنة على ثروات العراق والاستئثار بها، دونهم. فالأموال تجبى من أراضي العراق وترسل إلى كبار الأثرياء القرشيين في المدينة المنورة.

وربما كان عدد من سكان العراق العرب لا يمانعون أن يستفيد من الثروات الناتجة عن الفتوحات أشخاص ذوو ماضٍ إسلامي مجيد ممن صحبوا رسول الله(ص) وخاضوا الجهاد معه. ولكن لا شك أن قيام أبناء قبيلة قريش، والبطن الأموي خاصة، ممن ليست لهم سابقة ولا فضل في الإسلام، أو ممن أمضوا جلّ حياتهم في عداء رسول الله(ص)، بانتزاع الملكيات الضخمة في العراق دون وجه حق ولا أهلية، كان يسبب للمقاتلين المستقرين في العراق ألماً وأسىً عظيماً. فهم يرون حقوقهم تضيع أمام أعينهم، وكان لا بد لذلك أن يؤدي إلى حركة رفض وتمرد، خاصة وأن الخليفة لا يفعل شيئاً ليوقف تلك السرقة، بل كان هو مسببها والمروّج لها.

## الكوفة تضطرب

### تقييم سعيد بن العاص لأحوال الكوفة

بعد فترة قصيرة من وصوله إلى الكوفة، بعد تعيينه والياً، كتب سعيد بن العاص تقريراً إلى عثمان حول تقييمه لأوضاع أهلها وأحوالها

وفيما يلي رواية سيف بن عمر بشأن قدوم سعيد والياً كما ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق وفيها يظهر تقييمه لأوضاع الكوفة:

*فصعد سعيد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه*

*فقال: والله لقد بُعثتُ إليكم وإني لكاره، ولكن لم أجد بداً إذا أُمرتُ أن أأتمر*

*ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها. ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعييني الله، وإني لرائد نفسي اليوم.*

ونزل، وسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها

فكتب الى عثمان بالذي انتهى اليه: ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة. والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت

حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها.»

وإذا تجاوزنا شكليات نصوص سيف بن عمر التي هي دائماً موجهة للدفاع عن عثمان وإداراته (كلامه عن الوالي المجتهد الذي يريد أن يجمع الفتنة ...) يمكننا بوضوح أن نتعرف الى رؤية الوالي الأمويّ الجديد لحال الكوفة: علا فيها شأن الأوباش، الذين عبّر عنهم بالروادف ردفت والأعراب لحقت، وهي بالتالي بحاجة إلى سياسة تعيد الأمور إلى نصابها فلا بد له من وضع حدّ لأولئك العامة الذين صاروا «يتطاولون» على الأسياد.

تابع رواية سيف:

«فكتب اليه عثمان: أما بعد، ففضّل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلاّ أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكلّ منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق. فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل»

وهذا الكلام ليس ببعيد عن عثمان، وخاصة فكرة المحافظ على المقامات.

يتابع سيف: فأرسل سعيد الى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال: أنتم وجوه من وراءكم، والوجه ينبئ عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة، وأدخل معه من يحتمل ذلك من اللواحق والروادف،

وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره»

ويستفاد من هذه الفقرة أن سعيداً بدأ يرسي قواعد سياسة جديدة في الكوفة قوامها إعادة الاعتبار الى الزعماء والأشراف والوجهاء وتقريبهم الى السلطة، وذلك على حساب الفئات الهامشية من القادمين الجدد وأهل القمة وغيرهم ممن قربهم اليه الوليد بن عقبة.

ولكن ينبغي الاشارة الى أن الاختلاف في السياسة بين الواليين الأمويين الوليد وسعيد ناتج من المسلك الشخصي لكليهما أكثر من كونه تعبيراً عن فكر أو توجه سياسي. فالوليد كان فاسقاً ومنهتكاً ولذلك قرّب اليه فئات من الموالي والخلعاء بعيداً عن مراعاة الأشراف والوجهاء. فليس الأمر أن الوليد كان صاحب سياسة متعاطفة مع الطبقات الأدنى أو أكثر عدالة كما قد يتوهم البعض. فلو وجد الوليد ضالته في الأشراف والقراء، ولو سايره هؤلاء في نزواته وسمره، لما تردد في جعلهم خلصائه وخاصته.

ويتابع سيف «فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع الى اولئك الضرب ضربهم وكثرت القالة والاذاعة.

وكتب سعيد الى عثمان بذلك. فنادى منادي عثمان: الصلاة جامعة. فاجتمعوا فأخبرهم بالذي كتب اليه سعيد وبالذي كتب به اليه فيهم وبالذي جامعهم به من القالة والاذاعة.

قالوا: أصبت فلا تسعفهم من ذلك ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الامور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها

فقال عثمان: يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبت اليكم الفتن.

ونزل فأوى الى منزله وتمثل مثله ومثل هذا الضرب الذين أسرعوا في الخلاف

أبني عبيد الله أهل أشياعكم ... هتكم مقالتكم وشعر الشاعر

فاذا أتتكم مثله فتلبسوا ... ان الرماح بصيرة بالحاسر»

وأما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد اختصر الكلام من مشاكل سعيد الذي تعيينه في الكوفة، فقال:

«... ثم صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونسبهم الى الشقاق والخلاف. فقال إنما هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش.

فشكوه الى عثمان، فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله»

وأضاف ابن سعد عن سياسة الوالي الجديد «ثم انصرف سعيد بن العاص إلى الكوفة فأضر بأهلها إضراراً شديداً»

ورغم أن رواية ابن سعد هذه لا تفصّل أسباب الخلاف بين الوالي وأهل الكوفة، إلا أنها تفيد في إظهار الدعم الذي تلقاه سعيد من الخليفة الثالث ورفض الاستجابة لمطالب الكوفيين. ويظهر من جواب عثمان «كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله» نوع من الملل الممزوج بالغضب: فعثمان يجد نفسه مطالباً بعزل سعيد بعد فترة وجيزة من عزله الوليد بن عقبة وهو لا يستسيغ ذلك.

## إنما هذا السواد بستانٌ لقريش

يمكن القول إن العبارة الشهيرة لسعيد بن العاص «إنما هذا السواد بستان قريش» هي تلخيص دقيق لمجمل السياسة العثمانية في العراق. وعلى الرغم من أن هذه الكلمة قد صدرت كزلة لسان من الوالي، إلا إنها أثارت استياءً شديداً لدى الكوفيين، وكان لها وقع بالغ الحساسية في أوساطهم. ولا شك أنها لامست وتراً حساساً لديهم خاصة رغم بروز واقعة التطبيق العملي لتلك السياسة «القرشية».

وقد أخرج الطبري في تاريخه روايتين حول المشكلة التي حدثت في الكوفة وأدت إلى نفي مجموعة من شخصياتها حسب أحداث سنة 33 للهجرة. الأولى هي لسيف بن عمر والثانية للواقدي.

وسوف يأتي الحديث عن رواية سيف.

وأما رواية الواقدي فهي أصح. تقول «قدم سعيد بن العاص الكوفة، فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده، وإنه سمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة منهم: مالك بن كعب الأرحبي، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الأشتر في رجال.

فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان لقريش!

فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟! والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا.

ويتكلم معه القوم.

فقال عبد الرحمن الأسدي -وكان على شرطة سعيد- أتردون على الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم.

فقال الأشتر: من ههنا، لا يفوتنكم الرجل. فوثبوا عليه فوطئوه وطأً شديداً حتى غشي عليه. ثم جُرّ برجله فألقي، فنضح بماء فأفاق.

فقال له سعيد: أبك حياة؟

فقال: قتلني من انتخبت زعمت للإسلام.

فقال: والله لا يسمر منهم عندي أحدٌ أبداً.

فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيداً. واجتمع الناس إليهم حتى كثر من يختلف إليهم.

فكتب سعيد الى عثمان يخبره بذلك، ويقول إن رهطاً من أهل الكوفة سماهم له عشرة يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا. وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا.

فكتب عثمان الى سعيد أن سيّرهم الى معاوية -ومعاوية يومئذ على الشام- فسيّرهم وهم تسعة نفر الى معاوية: فيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد النخعي وصعصعة بن صوحان».

وفيما يلي رواية أبي مخنف حسب ابن شبة النميري في تاريخ المدينة:

«كتب سعيد بن العاص الى عثمان رضي الله عنه: إن قبلي قوماً يدعون القراء، وهم سفهاء، وثبوا على صاحب شرطتي فضربوه ظالمين له، وشتموني، واستخفوا بحقي. منهم: عمرو بن زرارة وكميل بن زياد ومالك بن الحارث، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أبي أوفى، ويزيد بن مكنف، وزيد وصعصعة ابنا صوحان[1]، وجندب بن زهير.

---

(1) وقد وصف الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ج8 ص442) أحد أهم المعارضين، وهو زيد بن صوحان بأوصاف تنم عن شخصية تقية ورعة. فعدا عن ذكر له عند فتح في الجهاد قال: «كان زيد بن صوحان يقوم الليل ويصوم النهار» وقال إن عبادته الشديدة تلك دعت الصحابي الكبير سلمان الفارسي الى التدخل لكي يقنعه بأن يرفق بنفسه ويؤدي حق زوجته عليه!

فكتب عثمان رضي الله عنه إلى الذين سماهم: أن يلحقوا الشام ويغزوا مغازيها.

وكتب إلى سعيد: إني قد كفيتك مؤونتهم فأقرئهم كتابي هذا فإنهم لا يخالفون إن شاء الله. وعليك بتقوى الله وحسن السيرة.

فأقرأهم سعيدٌ الكتاب، فشخصوا إلى دمشق...»

وكما هو ظاهر تخلو رواية أبي مخنف من ذكر السبب الذي جعل القراء يهاجمون صاحب شرطة سعيد.

ونجد عند البلاذري في أنساب الأشراف، من طريق أبي مخنف، رواية أفصل وأوفى مما سبق:

«لما عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه الوليدَ بن عقبة عن الكوفة ولاّها سعيدَ بن العاص وأمره بمداراة أهلها. فكان يجالسُ قرّاءها ووجوه أهلها ويسامرهم، فيجتمع عنده منهم:

مالك بن الحارث الأشتر النخعي

وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان

وحرقوص بن زهير السعدي

وجندب بن زهير الأزدي

وشريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي

وكعب بن عبدة النهدي وكان يقال لعبدة ابن سعد ابن الخشكة، وكان كعب ناسكاً وهو الذي قتله بسر بن أرطاة بجليث -

وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، ويكنى أبا طريف

وكدام بن حضرمي بن عامر، أحد بني مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة

ومالك بن حبيب بن خراش، من بني ثعلبة بن يربوع

وقيس بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم

وزياد بن خصفة بن ثقف، من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة

ويزيد بن قيس الأرحبي

وغيرهم

وقد حرصتُ على إثبات الأسماء هنا، وسوف أخصص فصلاً للحديث بشأنها.

يتابع الخبر مختلف ظنونهم لحنته وقد صلوا العصر إذ تذاكروا السواد والجبل، ففضلوا السواد وقالوا: هو ما ينبت الجبل، وله هذا النخل

وكان حسان بن محدوج بن بشر بن حوط بن سعنة الذهلي الذي ابتدأ الكلام في ذلك.

فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي صاحب شرطه: لوددتُ أنه للأمير، وأن لكم أفضل منه.

فقال له الأشتر: تمنَّ للأمير أفضل منه، ولا تمنَّ له أموالنا!

فقال عبد الرحمن: ما يضرك من تمنيّ حتى تزوي ما بين عينيك؟ فوالله لو شاء كان له!

فقال الأشتر: والله لو رام ذلك ما قدر عليه.

فغضب سعيد وقال: إنما السواد بستانٌ لقريش.

فقال الأشتر: أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله لو رامه أحدٌ لقرع قرعاً يتصأصأ منه!

ووثب بابن خنيس فأخذته الأيدي.

فكتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان وقال: إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء -وهم السفهاء- شيئاً!

فكتب إليه أن سيّرهم إلى الشام، وكتب إلى الأشتر: إني لا أراك تضمر شيئاً لو أظهرته لحلّ دمك! وما أظنك منتهياً حتى تصيبك قارعة لا بُقيا بعدها، فإذا أتاك كتابي هذا فسر إلى الشام لإفسادك من قِبلك، وأنك لا تألوهم خبالاً.

فسيّر سعيدٌ الأشتر ومن كان وثب مع الأشتر وهم:

زيد وصعصعة ابنا صوحان

وعائذ بن حملة الطهوي، من بني تميم

وكميل بن زياد النخعي

وجندب بن زهير الأزدي

والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، من بني حوث بن سبع بن صعب، إخوة السبيع بن سبع بن صعب

ويزيد بن المكفف النخعي

وثابت بن قيس بن المنقع بن الحارث النخعي

وأصعر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي، من بني المعقل.»

وبخلاف رواية ابن شبة والطبري تذكر رواية البلاذري هذه السبب الذي جعل سعيد بن العاص يتفوه بذلك الكلام المتميز المتعالي عن هيمنة قريش وسيادتها. وتسلسل الكلام في الرواية منطقي ومقبول.

ولكن أتم الروايات وأحسنها نجدها لدى ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح. فقد روى بإسناده الجمعي[1]: فبينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده وجوه أهل الكوفة إذ تكلم حسان بن محدوج الذهلي فقال: والله إن سهلنا لخير من جبلنا.

فقال عدي بن حاتم: أجل، السهل أكثر براً وخصباً وخيراً.

فقال الأشتر: وغير هذا أيضاً، السهل أنهاره مطردة ونخله باسقات، وما من فاكهة ينبتها الجبل إلا والسهل ينبتها، والجبل حزون وصخر يحفي الحافر،

(1) تفصيل الإسناد الجمعي لدى ابن أعثم سبق ذكرها في هذا الكتاب.

وصفرة يعمي البصر ويحبس عن السفر، وبلادنا هذه لا ترى فيها ثلجة ولا قرًا شديدًا.

قال: فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي صاحب شرطة سعيد بن العاص: هو لعمري كما تذكرون، ولوددت أنه كله للأمير ولكم أفضل منه!

فقال له الأشتر: يا هذا! يجب عليك أن تتمنى للأمير أفضل منه ولا تتمنى له أموالنا، فما أقدرك أن تتقرب إليه بغير هذا.

فقال عبد الرحمن بن خنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر؟ فوالله! إن شاء الأمير لكان هذا كله له!

فقال له الأشتر: كذبت والله يا بن خنيس! والله لو رام ذلك لما قدر عليه، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعًا يذل ويخشع.

قال: فغضب سعيد بن العاص من ذلك، ثم قال: لا تغضب يا أشتر! فإنما السواد كله لقريش فما نشاء منه أخذنا وما نشاء تركنا! ولو أن رجلاً قدم فيه رجلاً لم يرجع إليه، أو قدم فيه يدًا لقطعتها.

فقال له الأشتر: أنت تقول هذا أم غيرك؟

فقال سعيد بن العاص: لا بل أنا أقوله!

فقال الأشتر: أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستانًا لك ولقومك؟! والله! ما يصيبك من العراق إلا كما يصيب رجلاً من المسلمين.

قال: ثم التفت الأشتر إلى عبد الرحمن بن خنيس فقال: وأنت يا عدو الله ممن يزين له رأيه في ظلمنا والتعدي علينا لكونه ولاك الشرطة. قال: ثم مد الأشتر يده فأخذ حمائل سيف ابن خنيس فجذبه إليه وقال: دونكم يا أهل الكوفة! هذا الفاسق فاقتلوه حتى لا يكون للمجرمين ظهير.

قال: فأخذته الأيدي حتى وقع لجنبه ثم جروا برجله، فوثب سعيد بن العاص مسرعًا حتى دخل إلى منزله، وقام الأشتر فخرج من المسجد وخرجوا معه أصحابه وهم يقولون: وفقك الله فيما صنعت وقلت! فوالله لئن رجعنا

لهؤلاء قليلا لم يرضوا أن دورنا ومواريثنا التي ورثناها عن آبائنا في بلادنا لهم من دوننا.

قال: فكتب سعيد بن العاص من ساعته بذلك إلى عثمان كتابا في أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من سعيد بن العاص، أما بعد! فإني أخبر أمير المؤمنين أني لا أملك من الكوفة شيئا مع الأشتر النخعي ومعه قوم يزعمون أنهم القراء وهم السفهاء، فهم يردون علي أمري ويعيبون علي صالح أعمالي، وأن الأشتر كان بينه وبين صاحب شرطتي كلام ومراجعة في شيء لا أصل له، فأغرى به الأشتر سفهاء أصحابه وأشرار أهل المصر حتى وثبوا عليه وأنا جالس، فضربوه حتى وقع لجنبه وهو لما به، فاكتب إلي أمير المؤمنين برأيه أعمل به إن شاء الله».

كتب إليه عثمان كتابا في أوله: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد! فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنك لا تملك من الكوفة شيئا من الأشتر، ولعمري إنك تملك منها العريض الطويل، وقد كتبتُ إلى الأشتر كتابا وضمنته كتابك فادفعه إليه وانظر أصحابه هؤلاء الذين ذكرتهم فألحقهم به - والسلام -.

قال: ثم كتب عثمان إلى الأشتر: أما بعد! فقد بلغني يا أشتر أنك تلقح وتريد أن تنتج! وأيم الله إني لأظن أنك تسير أمرا لو أتيته لأهرقت به دمك، وما أراك منتهيا عن الفتنة أو يصيبك الله بقارعة ليس معها بقيا. فانظر إذا أتاك كتابي هذا فقرأته ورأيت أن لي عليك طاعة فسر إلى الشام فكن بها مقيما حتى يأتيك أمري. واعلم أني إنما أسيرك إليها لا لشيء إلا لإفسادك على الناس وذلك بأنك لا تألوهم خبالا وضلالا.

قال: فلما ورد كتاب عثمان على الأشتر وقرأه عزم على الخروج من الكوفة، وأرسل إليه سعيد بن العاص أن اخرج وأخرج من كان معك على رأيك. فأرسل إليه الأشتر: إنه ليس بالكوفة أحد إلا وهو يرى رأيي فيما أظن؛ لأنهم لا يحبون أن تجعل بلادهم بستانا لك ولقومك، وأنا خارج فيمن اتبعني فانظر فيما يكون من بعد هذا.

قال: ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صعصعة بن صوحان

العبدي وأخوه وعائذ بن حملة الطهوي، وجندب بن زهير الأزدي والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، وأصفر بن قيس الحارثي ويزيد بن المكفف، وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد ومن أشبههم من إضرابهم»

كانت هذه أقدم المصادر التي تتحدث عن مشكلات سعيد بن العاص في الكوفة (الشعبي والواقدي وأبو مخنف). وهي رغم اختلافها في التفاصيل تظهر بوضوح أن استبدال الوليد بن عقبة بسعيد بن العاص كوالٍ للكوفة لم يجد نفعاً، ولم يهدئ الأوضاع. فالمشكلة الحقيقية هي في جوهر السياسة القرشية لولاة بني أمية وما تثيره من شعور بالضيم لدى أبناء القبائل العربية. والأسماء التي تذكر كمحركين للتمرد تشهد بذلك. فلا يوجد بينهم من ينتمي لقريش أو للقبائل القريبة منها (كثقيف مثلاً) والمحسوبة عليها. بل هم ينتمون الى عرب الأطراف كالأزد وتميم وعبد القيس بالاضافة الى يمانيين.

نقد رواية سيف بن عمر

تبدو رواية سيف لدى الطبري مصممة لتدافع عن الوالي سعيد بن العاص وتلوم المعارضين في الكوفة. ولكنها رغم ذلك تفيد أنه بمرور الوقت أصبح الجو متوتراً في الكوفة إلى درجة أن مجرد كلام تفوّه به أحد الفتيان من أتباع الوالي سعيد بن العاص كان سبباً في مشكلة كبرى كادت تنتهي قتالاً أهلياً!

فحسب الرواية يكون سبب المشكلة أن عبد الرحمن بن خنيس[1]، وهو حَدَث، قد قال لسعيد بن العاص، وهو في مجلس عام:

«والله لوددتُ أن هذا الملطاط لك». يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة».

وتمضي الرواية لتقول أن هذه العبارة التي قالها الغلام أثارت هيجاناً عاصفاً من قبل عدد كبير من الكوفيين الذين قالوا أيتمنى له من سوادنا!! ثم انهالوا عليه ضرباً هو وأبوه، حتى كادوا يقتلوهما. ويذكر سيف أسماء

(1) تجمع روايات الإخباريين الأخرين على أن عبد الرحمن بن خنيس كان صاحب شرطة سعيد بن العاص، وليس حدثاً كما يذكر سيف.

الغاضبين وهم: الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابئ. ولما حاول سعيد بن العاص تهدئة الأمور مؤكداً للناس أنها مجرد كلمات تفوه بها غلامٌ جاهل، رفضوا ذلك وقالوا له «أنت والله أمرته بها»! وتقول الرواية ان الفتى وأباه بقيا على قيد الحياة مما مكّن سعيد من تجنب الاقتتال القبلي الذي كان سينشب بين أهل الغلام من بني أسد والقين طريود.

وتضيف الرواية ان المهاجمين بعد ذلك «قعدوا في بيوتهم وأقبلوا على الإذاعة» مما أدى الى غضب في صفوف أهل الكوفة «فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم الى عثمان في إخراجهم» فأجابهم الخليفة «إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية» وتضيف «فأخرجوهم. فذلوا وانقادوا، حتى أتوه وهم بضعة عشر، فكتبوا بذلك الى عثمان. وكتب عثمان الى معاوية: ان أهل الكوفة قد أخرجوا اليك نفراً خلقوا للفتنة، فرعهم وقم عليهم فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم وإن أعيوك فارددهم عليهم»

وهكذا فإن سيف بن عمر يحاول ان يظهر الأمور وكأن ما حدث مجرد مشكلة داخلية بحتة بين عائلات من أهل الكوفة ولا علاقة لها بالوالي سعيد بن العاص ولا بسياسته ولا بالخليفة عثمان من قريب ولا بعيد. ويظهر الوالي فيها كرجل مصلح يحاول التوفيق بين المتنازعين، لا أكثر. ويغيّب سيف تماماً القول المشهور عن سعيد بن العاص «إنما هذا السواد بستان قريش» والذي كان في الحقيقة السبب المباشر للمشاكل، وليس كلمات ذلك الغلام. والرواية كما لا يخفى تحمل مسؤولية النفي تقع على عاتق أهل الكوفة أنفسهم الذين طالبوا الخليفة بذلك، فاستجاب. ومن اللافت عجز سيف عن ذكر اسم أي شخص من اولئك الذين يسميهم «أشراف اهل الكوفة وصلحاؤهم»، باستثناء ربما طليحة الأسدي الذي يرد ذكره في الرواية على رأس الناس المطالبين بالانتقام للغلام وأبيه. ولكن هل طليحة الأسدي من أشراف أهل الكوفة وصلحائهم؟ لا بد من تذكر ان هذا الرجل ليس فقط كان من المرتدين عن الاسلام بعد وفاة النبي(ص) ولكنه أيضاً كان من الذين ادّعوا النبوة! هذا عدا عن الاشكال المتمثل في ان طليحة بن خويلد كان قد توفي عام 21 للهجرة

كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، فلا يمكن أن يكون حضور ذلك الموقف في الكوفة سنة 33).

### المنفيون في الشام: الجدال مع معاوية

وهناك اختلاف في تفاصيل الكلام المتبادل الذي جرى في الشام بين معاوية والمنفيين العراقيين بين روايتي سيف والواقدي (لدى الطبري)، رغم اتفاقهما على الإطار العام للحوار.

قال سيف[1]:

انه لما قرّعهم معاوية واحتج بقبيلة قريش متعالياً عليهم قالوا له مجابهين «إنكم لتفتخرون بقريش، وإن قريشاً لو لم تكن عندكم لذلة كما كنتم...»، ردّ عليه أحدهم «أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا».

فأجابه معاوية «... إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلاّ بالله عز وجل، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً وأمحضهم أنساباً وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية -والناس يأكل بعضهم بعضاً- إلاّ بالله الذي لا يستذل من أعز ولا يوضع من رفع، فبوأهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم.

هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً، إلاّ قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة، إلاّ ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحدٌ من الناس بكيد إلاّ جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن يتنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الآخرة. فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً. ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلاّ عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على

(1) ويعتبر الكلام المفصّل والحوار الطويل بين معاوية ومنفيي الكوفة شك الباحث المعاصر هشام جعيط في كتاب الفتنة في صحة رواية سيف بن عمر على اعتبار أن نزعة ذلك الكلام الصادر من معاوية لا تنسجم مع تلك المرحلة بل إنها أقرب إلى عقلية معاوية والأمويين لما بعد أيام حكمهم.

كفرهم بالله، أتراه لا يعرفهم وهم على دينه؟»

ثم وجه معاوية كلامه الى صعصعة بن صوحان بالذات فشتمه وقومه بعبارات قاسية «فإن قريتك شر قرى عربية: أنتنها نبتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً! لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الا سُبَّ بها وكانت عليه هجنة. ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمه أصهاراً. نزاع الأمم وأنتم جيران الخط وفعلة فارس...»

وهنا يشير معاوية الى قبيلة عبد القيس التي كانت تقطن المناطق الشرقية للجزيرة العربية، وهي بالتالي مجاورة لايران.

ثم أكمل سيف على لسان معاوية «ان رسول الله (ص) كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره. ثم استخلف ابو بكر رضي الله تعالى عنه فولاني. ثم استخلف عمر فولاني. ثم استخلف عثمان فولاني. فلم أل لأحد منهم ولم يولني إلا وهو راض عني. وإنما طلب رسول الله (ص) للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها...»

وهنا يشطط سيف بن عمر ويتطرف في دفاعه عن معاوية ! فمتى ولاه رسول الله ؟ ومتى أدخله في أمره؟! بل ومتى ولاه ابو بكر؟ إنما ولى أخاه يزيداً. ثم يقول سيف ان معاوية بعد ان حذرهم وهددهم أطلقهم وأعطاهم حرية التنقل الى أين شاؤوه بعد أن كتب الى عثمان ان هؤلاء «الكرام ليست لهم عقول ولا أديان! أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل! لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم...»

ثم يقول ان هؤلاء اختاروا ان يذهبوا الى منطقة الجزيرة لأنهم خشوا إن رجعوا الى الكوفة أن يُشمت بهم. وهنا استدعاهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان حاكم حمص القوي، فاستقبلهم بقوله «يا آلة الشيطان! لا مرحباً بكم ولا أهلاً... يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم! لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية. أنا ابن خالد بن الوليد! أنا ابن من

قد صحبت الماجمات، أنا ابن فاقئ الردة... والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى...»
ومارس عليهم إذلالاً جسدياً وإرهاباً معنوياً!... «فأقامهم أشهراً، كلما ركب أمشاهم فإذا مر به قال: يا ابن الحطيئة! أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر...» حتى أجبرهم أخيراً على إعلان التوبة أمامه. فأرسل الأشتر الى عثمان فأعلن التوبة والندم أمامه «فقال عثمان للأشتر: احلل حيث شئت. فقال: مع عبد الرحمن بن خالد، وذكر من فضله»!

وهكذا انتهت حتى التنكيل القاسي بالمعارضين وإذلالهم على يد ابن خالد بجعله سيف بن عمر أمراً أختاره هؤلاء طواعية وبإرادتهم! وأن الأشتر بعد كل ذلك يمتدح ابن خالد ويرغب في العيش في كنفه!!

وأما الواقدي فقد ذكر في روايته مجموعة من المبارزات الكلامية بين معاوية والمعترضين، مما لم يرق لسيف فلم يروه. ومن ذلك ان معاوية افتخر امامهم بأبيه «وقد عرفت قريش ان أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... خلا نبي لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً. قال صعصعة: كذبت....»

ومن ذلك أيضاً طعن المعارضين بأهلية معاوية نفسه لمنصبه الذي يتولاه «لست بأهل ذلك ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله... فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك! قال: من هو؟ قال: من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام...»

ولا نشك في ان يكون العراقيون - في تلك الظروف - قد طالبوا معاوية باعتزال عمله.

ثم يضيف الواقدي انه في نهاية هذا التبادل الحاد للعبارات بينهم وبين معاوية «وثبوا عليه فأخذوا برأسه ولحيته». وهذا مما يمكن الشك به، لأن معاوية كان دائماً محاطاً بالحرس، إلا أن يكونوا قد عاملوه.

ثم يقول ان معاوية كتب الى عثمان «... فإنك بعثت إليّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين ... فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة. ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم

وتهويرهم.. فكتب اليه عثمان يأمره أن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم اليه. فلم يكونوا إلاّ أطلق ألسنة منهم حين رجعوا. وكتب سعيد الى عثمان يضج منهم، فكتب عثمان الى سعيد أن سيّرهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد»

وأما رواية أبي مخنف فنجدها لدى ابن شبة والبلاذري. وهي في إجمالها تخلو من تفاصيل ذلك الجدال المطوّل بين المنفيين ومعاوية والذي تجده لدى سيف بن عمر، وبدرجة أقل لدى الواقدي.

وفي رواية ابي مخنف لدى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة:

«... فشخصوا الى دمشق، فأكرمهم معاوية. وقال لهم: إنكم قدمتم بلداً لا يعرف أهله إلاّ الطاعة. فلا تجادلوهم فتدخلوا الشك قلوبهم.

فقال عمرو بن زرارة والأشتر: إن الله قد أخذ على العلماء موثقاً أن يبينوا علمهم للناس. فإن سألنا سائل عن شيء نعلمه لم نكتمه.

فقال معاوية: قد خفتُ أن تكونوا مرصدين للفتنة! فاتقوا الله ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا فيه.

لعيبهما معاوية رضي الله عنه. فقال له زيد بن صوحان: ما هذا؟ إن الذين أشخصونا اليك من بلادنا لم يعجزوا عن حبسنا لو أرادوا ذلك. فإن كنا ظالمين فنستغفر الله ونتوب اليه، وإن كنا مظلومين فنسأل الله العافية.

فقال معاوية رضي الله عنه: إني لأحسبك امرأً صالحاً، فإن شئتَ أذنتُ لك أن تأتي مصرك وكتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه إذني لك.

فقال: أحبّ أن تأذن لي وتكتب الى سعيد.

فلما أراد الشخوص كلمه في الأشتر وعمرو بن زرارة فأخرجهما، فأقاموا لا يرون أمراً يكرهونه.

وبلغ معاوية أن قوماً يأتونهم فأشخصهم الى حمص، فكانوا بها حتى اجتمع أهل الكوفة على إخراج سعيد، فكتبوا اليهم فقدموا»

ولدى البلاذري في أنساب الأشراف يشير أبو مخنف أن تسييرهم إلى حمص، حيث عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، قد تم بناء على أمر عثمان لما اشتكى له معاوية من أن المنفيين قد يفسدون أهل الشام، ولا تذكر الرواية أنهم ظلوا في حمص إلى حين عزم أهل الكوفة على إخراج سعيد.

ولا بد من ذكر الرواية المفصلة لذلك الحوار التي أوردها ابن أعثم في كتاب الفتوح بإسناده الجمعي:

«... حتى صاروا إلى كنيسة يقال لها كنيسة مريم، فأرسل إليهم معاوية فدعاهم فجاؤوا حتى دخلوا ثم سلموا وجلسوا فقال لهم معاوية: يا هؤلاء ! اتقوا الله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات). قال: ثم سكت معاوية.

قال له كميل بن زياد: يا معاوية ! (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فنحن أولئك الذين هداهم الله.

فقال له معاوية: كلا يا كميل ! إنما أولئك الذين أطاعوا الله ورسوله وولاة الأمر فلم يهتكوا محارمهم ولا أفسدوا مساعيهم.

فقال كميل: يا معاوية ! لولا أن عثمان بن عفان وفق عنك بمثل هذا الكلام وهذه النصيحة لما اتخذناك لنا سجنا. فقال له الأشتر: يا كميل ! ابتدأته بالمنطق ورأيت أحدثنا سنا، قال: فسكت كميل وتكلم الأشتر فقال: أما بعد ! فإن الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمة برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فجمع به كلمتها وأظهرها على الناس، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث، ثم قبضه الله عز وجل إلى رضوانه ومحل جنانه - صلى الله عليه وسلم كثيرا، ثم ولي من بعده قوم صالحون عملوا بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجزاهم بأحسن ما أسلفوا من الصالحات، ثم حدثت بعد ذلك أحداث فرأى المؤمنون من أهل طاعة الله أن ينكروا الظلم وأن يقولوا بالحق فإن أعاننا ولاتنا أعانهم الله من هذه الأعمال التي لا يحبها أهل الطاعة، فنحن معهم ولا نخالف عليهم، وإن أبوا ذلك فإن الله تبارك وتعالى قد قال في كتابه وقوله الحق: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه

لنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) فلسنا يا معاوية ! بكاتمي برهان الله عز وجل ولا تاركي أمر الله لمن يجهله حتى يعلم مثل الذي علمنا، وإلا فقد غششنا أنفسنا وكنا كمن نبذ الكتاب وراء ظهره.

فقال له معاوية: يا أشتر ! إني أراك معك بخلافنا مرتضيا بالمعلوم لنا، والله لأشدن وثاقك ولأطيلن حبسك. فقال له عمرو بن زرارة[1]: يا معاوية ! لئن حبسته لتعلمن أن له عشيرة عندها لا ينام لمدها لتعيد على من خالفها وتبزها.

فقال معاوية: وأنت يا عمرو تحب أن يضرب عنقك ولا تترك سواه اذهبوا بهم إلى السجن.

قال: فذهبوا بهم إلى السجن. فقال زيد بن المكفكف[2] فقال: يا معاوية ! إن القوم بعثوا بنا إليك لم يكن بهم عجز في حبسنا في بلادنا لو أرادوا ذلك، فلا تؤذينا وأحسن مجاورتنا ما جاورتنا فما أقل ما نجاورك حتى نفارقك إن شاء الله تعالى.

قال: ثم وثب صعصعة بن صوحان فقال: يا معاوية ! إن مالك بن الحارث الأشتر وعمرو بن زرارة رجلان لهما فضل في دينهم وحالة حسنة في عشيرتهم وقد حبستهم، فأكثر بأمرهم فذلك أجمل في الرأي.

فقال معاوية: علي بهم، فأتي بهم من الحبس، فقال معاوية: كيف ترون عفوي عنكم يا أهل العراق بعد جهلكم واستحقاقكم الحبس؟ رحم الله أبا سفيان لقد كان حليماً، ولو ولد الناس كلهم لكانوا حلماء !

فقال صعصعة بن صوحان: والله يا معاوية ! لقد ولدهم من هو خير من أبي سفيان، فسفهاؤهم وجهالهم أكثر من حلمائهم !

فقال معاوية: قاتلك الله يا صعصعة ! لقد أعطيت لسانا حديدا، اخرجوا واتقوا الله وأحسنوا الثناء على أئمتكم فإنهم جنة لكم.

---

(1) لم يذكر ابن أعثم اسمه ضمن قائمة المنفيين إلى الشام في بداية روايته
(2) يرد اسمه أحيانا يزيد بن المكفف

فقال صعصعة: يا معاوية ! إننا لا نرى لمخلوق طاعة في معصية الخالق.

فقال معاوية: اخرج عني، أخرجك الله إلى النار ! فلعمري أنك عدت.

فخرج القوم من عند معاوية وصاروا إلى منازلهم، فلم يزالوا مقيمين وقد وكل بهم قوم يحفظونهم ألاّ يبرحوا»

## سياسة النفي

تحدث ابن كثير في البداية والنهاية بأسلوب مخفف، مصمم للدفاع عن الخليفة، عن سياسة النفي التي طبقها عثمان. وأنا أورد نص كلام ابن كثير كله لأنه لا يجهر بالتحامل على عثمان، من أجل إثبات حصول النفي، بغض النظر عن تبريرات ابن كثير وآرائه. فقال عن أحداث سنة 33 للهجرة:

«وفيها سيّر أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة الى الشام. وكان سبب ذلك انهم تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر[1] فكتب الى عثمان في أمرهم. فكتب اليه عثمان أن يجليهم عن بلده الى الشام. وكتب عثمان الى معاوية أمير الشام أنه قد أخرج اليك قراء من اهل الكوفة فأنزلهم وأكرمهم وتألفهم.

فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم واجتمع بهم ووعظهم ونصحهم فيما يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد.

فأجاب متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة، فاحتملهم معاوية لحلمه، وأخذ في مدح قريش -وكانوا قد نالوا منهم- وأخذ في المدح لرسول الله (ص) والثناء عليه، والصلاة والتسليم. وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه. وقال فيما قال: وأظن أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلاّ حازماً.

فقال له صعصعة بن صوحان: كذبت ! قد ولد الناس كلهم لمن هو خير من أبي سفيان، من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر والأحمق والكيّس.

(1) هذا وهم. والمقصود سعيد بن العاص

ثم بذل لهم النصح مرة أخرى، فإذا هم يتمادون في غيهم ويستمرون على جهالتهم وضلالتهم. فعند ذلك أخرجهم من بلده ونفاهم عن الشام، لئلا يشوشوا عقول الطغام؛ وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم على القدح في قريش كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه، من نصرة الدين وقمع المفسدين. وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب. وكانوا يشتمون عثمان وسعيد بن العاص. وكانوا عشرة، وقيل تسعة وهو الأشبه، منهم كميل بن زياد، والأشتر النخعي -واسمه مالك بن يزيد- وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي.

فلما خرجوا من دمشق أووا إلى الجزيرة، فاجتمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد -وكان نائباً على الجزيرة ثم ولي حمص بعد ذلك- فهددهم وتوعدهم. فاعتذروا إليه وأنابوا إلى الإقلاع عما كانوا عليه، فدعا لهم وسيّر مالكاً الأشتر النخعي إلى عثمان بن عفان ليعتذر إليه عن أصحابه بين يديه.

فقبل ذلك منهم وكف عنهم وخيرهم أن يقيموا حيث أحبوا. فاختاروا أن يكونوا في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فقدموا عليه حمص، فأمرهم بالمقام في الساحل، وأجرى عليهم الرزق.

ويقال: بل لما مقتهم معاوية كتب فيهم إلى عثمان، فجاءه كتاب عثمان أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة. فردهم إليه. فلما رجعوا كانوا أزلق ألسنة، وأكثر شراً. فضج منهم سعيد بن العاص إلى عثمان، فأمره أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، وأن يلزموا الدروب.

وفي هذه السنة سيّر عثمان بعض أهل البصرة منها إلى الشام وإلى مصر، بأسباب مسوغة لما فعله رضي الله عنه.

فكان هؤلاء ممن يؤلب عليه ويمالئ الأعداء في الحط والكلام فيه. وهم الظالمون في ذلك، وهو البار الراشد رضي الله عنه.»

ويبدو أن النفي كان من أساليب العقاب المفضلة عند الخليفة عثمان، ولم يكن مقصوراً على حالات بعينها. وأحياناً كان النفي يحصل لأسباب غير سياسية. وقد روى الطبري في تاريخه عن سيف بن عمر حادثة نفي حمران

بن أبان من المدينة إلى البصرة لأنه تزوج امرأة في عدتها. وكذلك حادثة نفي عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام بسبب ما أشيع عنه من رفضه أكل اللحم والزواج وحضور صلاة الجمعة.

كما تقدم الحديث عن حادثة نفي أبي ذر الغفاري إلى الربذة وحادثة نفي عبد الرحمن بن حنبل إلى خيبر.

## أهل الكوفة يخاطبون الخليفة مباشرة

وقد أثار أسلوب سعيد بن العاص، وقراراته، ومجمل نهج عثمان، وخاصة سياسة النفي بحق المعارضين لسياسته، غضب عدد كبير من أهل الكوفة مما دفعهم إلى المغامرة بإرسال كتاب احتجاج للخليفة، رغم خوفهم من ردة فعله، طالبوه فيه بالإصلاح. وليس هناك ما يحول دون تصديق الخبر. فحتى تلك اللحظة لم يكن نظام الحكم قد تحول إلى ملكيّ بعد، وكان الناس لا يزالون يعتبرون أن من حقهم التواصل المباشر مع الخليفة وتقديم النصح له بشأن مصلحة المسلمين، وكان لذلك سوابق في عهد عمر. ويمكن اعتبار ذلك محاولة لوقف السياسات الخاطئة للخليفة بطريقة شرعية، عن طريق مخاطبته مباشرة وتجاوز ولاته الذين كانوا هم من أسباب الشكوى.

روى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة عن يونس بن أبي إسحاق الهمداني: «كتب ناسٌ من وجوه أهل الكوفة ونساكهم، منهم: معقل بن قيس الرياحي، ومالك بن حبيب، وعبد الله بن الطفيل العامري، وزياد بن حفصة التميمي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن صرد، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبدة النهدي، إلى عثمان - ولم يسمّ أحدٌ نفسه في الكتاب إلا كعب -: أن سعيد بن العاص كثّر عندك على قوم من أهل الفضل والدين، فحملك من أمرهم على ما لا يحل. وإنا نذكرك الله في أمة محمد: فإنك قد بسطت يدك فيها وحملت بني أبيك على رقابها. وقد خفنا أن يكون فساد هذه الأمة على يديك. فإن لك ناصراً ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نقم عليك الناقم ونصرك الظالم تباين الفريقان واختلفت الكلمة. فاتق الله فإنك أميرنا ما أطعت الله واستقمت.

وبعثوا بالكتاب مع أبي ربيعة العنزي. فقال له عثمان رضي الله عنه: من كتب هذا الكتاب؟

قال: صلحاء أهل المصر.

قال: سمّهم لي.

قال: ما أسمّي لك إلاّ من سمّى نفسه.

فكتب عثمان رضي الله عنه إلى سعيد: انظر ابن أبي ربيعة فاضربه عشرين سوطاً وحوّل ديوانه إلى الري. فضربه سعيد عشرين سوطاً وسيّره إلى جبل دنباوند..... [1]

والأسماء الأشراف الذين كانوا وراء الكتاب إلى عثمان، حسب هذا النص، تختلف عن تلك المجموعة التي تصادمت مع سعيد بن العاص ونُفيت إلى الشام. وهذا يعطي النص مصداقيّة، ويدل على مدى اتساع دائرة المعارضة للوالي الأموي. فالرواة لا يجدون أدنى صعوبة في ذكر الكثير من الأسماء.

وقد أورد ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح الخبر الذي ذكره ابن شبة بتفصيل أكثر. وفيه أن وجهاء أهل الكوفة قد أرسلوا كتابين للخليفة: واحد بصيغة الجمع دون ذكر أسماء المرسلين «من الملأ المسلمين من أهل الكوفة» والثاني من كعب بن عبدة النهدي الذي أصر على التوقيع باسمه الصريح. وقد حمل الكتابين رجل من قبيلة عنزة بعد نقاش جرى بينهم يشير إلى خوفهم من سطوة الخليفة «والله ما يبلغ هذا الكتاب إلا رجل لا يبالي أضُرب أم حُبس أم قتل أم نفي أم حُرم، فأيكم عزم على أن يصيب خصلة من هذه الخصال فليأخذه. فقال القوم: ما ههنا أحد يحب أن يبتلي بخصلة من هذه الخصال. فقال العنزي: هاتوا كتابكم، فوالله إني لا عافية إلي لي وإن ابتليت فما أنا بآيس أن يرزقني ربي صبراً وأجراً. قال: فدفعوا إليه كتابهم»

وإننا هنا نورد نص كتاب كعب بن عبدة النهدي لأنه بالنص جركيز

(1) ويمكن مقارنة هذه الرسالة بتلك التي أرسلها أهل مصر للخليفة (رواية عروة بن الزبير) وملاحظة التشابه في المضمون إلى حد كبير.

أسباب النقمة على عثمان: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من كعب بن عبيدة، أما بعد فإني نذير لك من الفتنة، متخوف عليك فراق هذه الأمة، وذلك أنك:

قد نزعت خيارهم

وولّيت أشرارهم

وقسمت فيئهم في عدوهم

واستأثرت بفضلهم

ومزقت كتابهم

وحميت قطر السماء ونبت الأرض،

وحملت بني أبيك على رقاب الناس حتى قد أوغرت صدورهم وأخفرت علاوتهم،

ولعمري لئن فعلت ذلك فإنك لتعلم أنك إن فعلت ذلك وتكرمت فإنما تفعله من فيئنا وبلادنا، والله حسيبك يحكم بيننا وبينك، وإن أنت أبيت ورضيت قتلنا وأذانا ولم تفعل فإننا نستعين الله ونستجيره من ظلمك لنا بكرة وعشيا- والسلام».

ويشير ابن أعثم إلى مصير كعب بن عبيدة بعد أن ثار عليه غضب الخليفة فأمر بإحضاره من الكوفة، فأدخلوه عليه فلما سلم عليه جعل عثمان ينظر إليه ثم قال: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) أأنت تعلمني الحق وقد قرأتُ القرآن وأنت في صلب أب مشرك؟!

فقال كعب: على رسلك يا ابن عفان فإن كتاب الله لو كان للأول دون الآخر لم يبق للآخر شيء، ولكن القرآن للأول والآخر.

فقال عثمان: والله ما أراك تدري أين ربك!

قال: بلى يا عثمان! هو لي ولك بالمرصاد.

فقال مروان: يا أمير المؤمنين! حلمك على مثل هذا وأصحابه أطمع فيك الناس.

فقال كعب: يا عثمان! إنه علينا وأصحابه أغضبوك وأغضبونا بك!

قال عثمان: جرّدوه! فجرّدوه، وضربه عشرين سوطاً، ثم أمر به فرُدَّ إلى الكوفة»[1]

ويجب ملاحظة رد الفعل من جانب عثمان: فخلافاً لما عرف عنه من هوادة ولين، هو هنا يتصف بالنزق والعصبية. وهذا يشير إلى حالة التوتر التي سيطرت عليه في مرحلة الاضطراب تلك في المرفق، إلى الحد الذي جعله لا يحتمل سماع المزيد من الشكاوى خاصة إذا جاءته عن طريق شخص يعتبره نكرة!

وتتفق رواية أبي مخنف لدى البلاذري مع ما رواه ابن شبة وابن أعثم في أن الرجل من قبيلة عنزة قد حمل كتابي الشكوى إلى عثمان: أحدهما من وجوه أهل الكوفة الذين لم يرغبوا تسمية أنفسهم للخليفة، والآخر من كعب بن عبدة النهدي. وسأورد هنا الجزء الأخير من الرواية لأنه يظهر مدى اتزان ورصانة شخص الشاب كعب بن عبدة في مقابل توتر عثمان وحدّته:

فتقول الرواية أن عثمان بعدما قرأ الرسالة أمر سعيداً بإشخاص كعب إلى المدينة، ففعل ذلك وأرسله مع أعرابيّ فلما قدم به على عثمان قال عثمان: لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه!

وكان شاباً حديث السن نحيفاً.

ثم أقبل عليه فقال: أأنت تعلمني الحق وقد قرأتُ كتاب الله وأنت في صلب رجل مشرك؟!

فقال له كعب: إن إمارة المؤمنين إنما كانت لك بما أوجبته الشورى حين عاهدتَ الله على نفسك لتسيرنّ بسيرة نبيه لا تقصر عنها، وإن يشاورونا فيك ثانية نقلناها عنك! يا عثمان. إن كتاب الله لمن بلغه وقرأه، وقد شركناك في قراءته ومتى لم يعمل القارئ بما فيه كان حجة عليه.

---

(1) وقد أشار ابن أعثم إلى أن عثمان لاحقاً شعر بتأنيب الضمير تجاه ما صنعه بكعب بن عبدة فأمر سعيد بن العاص برده، واعتذر منه وعرض عليه أن يقتص منه فرفض.

فقال عثمان: والله ما أظنك تدري أين ربك!

قال: هو بالمرصاد.

فقال مروان: حلمك أغرى مثل هذا بك وجرّأه عليك.

فأمر عثمان بكعب فجُرّد وضُرب عشرين سوطاً وسيّره إلى دباوند، ويقال إلى جبل الدخان... »

إن ما قاله الشاب كعب منطقي ومُقنع: فهو يرفض أن يعيّره الخليفة بصغر سنّه ويقول له: كتاب الله بيننا وبينك. وهذا الجواب الصادم كان السبب وراء ثورة دم عثمان ومعاقبته للكوفي الضعيف (التي ندم عليها فيما بعد كما تضيف الرواية).

## الكوفة تنتفض: خلعُ سعيد بن العاص[1]

للأسف يعتمد الطبري في ذكره لأحداث الجرعة[2] على روايات سيف بن عمر، وهي ضعيفة جدا وتتكلم عن اتباع ابن السوداء ومعارضة القطاع لهم في الكوفة وتحدث عن الفتنة وتنقلات عجيبة للأشتر وغير ذلك مما يجعلها غير جديرة بالبحث الجدي.

ولذلك سنعتمد على ما رواه غير الطبري.

فابن سعد قدم روايته في الطبقات الكبرى بشأن تفاصيل التمرد في الكوفة والذي أدى إلى خلع الوالي سعيد بن العاص في أواخر عهد عثمان سنة 34 للهجرة.

فقال:

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص31)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج21 ص[illegible])، تاريخ خليفة بن خياط (ص124)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج3 ص[illegible])، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص157-159).

(2) الجرعة مكان مشرف قرب القادسية يمر به القادمون إلى الكوفة. وقد اشتهرت به أحداث خلع سعيد لأن المتمردين انتظروه هناك ليردوه إلى المدينة.

«ورَحَلَ من الكوفة إلى عثمان مالك الأشتر ويزيد بن مكفف وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان والحارث بن عبد الله الأعور وجندب بن زهير وأبو زينب الأزديان وأصغر بن قيس الحارثي يسألونه عزل سعيد بن العاص عنهم»

وهنا لدينا اشكالية: فهذه الأسماء التي يذكرها ابن سعد (مجموعة الأشتر) هي ذاتها التي سيّر عثمان طائفة منهم ونفيهم وإذلالهم قبل حوالي سنة، وعلى يد معاوية وعبد الرحمن بن خالد، بسبب صراعهم الأول مع سعيد بن العاص. فلا يعقل أنهم الآن قد عادوا ثانية الى عثمان وبهذه السرعة وبنفس القابلية بل ان بعضهم (جندب وأبو زينب) كانوا ممن انخرطوا في الصراع القديم مع الوليد بن عقبة.

فالأصح عندي انه لم يذهب أي وفد جديد من الكوفة الى عثمان سنة ٣٤.

يتابع ابن سعد «ورحل سعيد وافداً على عثمان فوافقهم عنده

فأبى عثمان أن يعزله وأمره أن يرجع إلى عمله»

والصحيح أن عثمان قد رد سعيداً الى عمله بعد انتهاء مؤتمر القمة بين عثمان وولاة الأمصار، وان ذلك كان سبب سفر سعيد الى المدينة (وليس ليواجه الشكاة عند عثمان).

تتابع الرواية «فخرج الأشتر من ليلته في نفر من أصحابه، فسار عشر ليال إلى الكوفة، فاستولى عليها وصعد المنبر فقال:

هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش! والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيؤكم وفيء آبائكم.

فمن كان يرى لله عليه حقاً فلينهض إلى الجرعة. فخرج الناس فعسكروا في الجرعة، وهي بين الكوفة والحيرة»

الدور التحريضي الكبير والقيادي لمالك الاشتر أمر مؤكد. ويبدو أن الأخبار قد وصلته ومجموعته بأن الخليفة جدد ثقته بالوالي سعيد فقرروا بأنه

تقدم بمزيد من التشدد تجاههم فكان لا بد لهم أن يتصرفوا قبل أن ينالهم تنكيلٌ جديد.

تتابع الرواية فأقبل سعيد بن العاص حتى نزل العذيب.

فبعث الأشتر يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي، وكانا محربين، فعقد لكل واحد منهما خمسمائة فارس،

وقال لهما: سيرا إلى سعيد بن العاص، فأزعجاه وألحقاه بصاحبه، فإن أبى فاضربا عنقه وائتياني برأسه»

ينبغي تجاهل كلمات «اضرب العنق» و«الإتيان بالرأس»! ولكن الفكرة هي منع الوالي بالقوة من دخول الكوفة.

تتابع فأتياه فقالا له: ارحل إلى صاحبك.

فقال: إبلي أنضاء أعلفها أياماً، ونقدم المصر فنشتري حوائجنا ونتزود ثم أرتحل.

فقالا: لا والله! ولا ساعة! لترتحلنّ أو لنضربنّ عنقك.

فلما رأى الجد منهما ارتحل لاحقاً بعثمان.

وأتيا الأشتر فأخبراه. وانصرف الأشتر من معسكره إلى الكوفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

والله يا أهل الكوفة ما غضبتُ إلاّ لله ولكم. وقد ألحقنا هذا الرجل بصاحبه. وقد وليتُ أبا موسى الأشعري صلاتكم وثغركم وحذيفة بن اليمان على فيئكم»

لا ينبغي التوقف كثيراً عند قيام الأشتر بتعيين أبي موسى وحذيفة – كما هو ظاهر النص، فالواقع أن الأشتر لم يزد على إعلان الرغبة العامة بين أهل الكوفة في العودة إلى سياسة ما قبل عثمان؛ في التخلص من أقرباء عثمان جملة وتفصيلاً. وأبو موسى هو من رموز عهد عمر.

يتابع ابن سعد ثم نزل وقال: يا أبا موسى اصعد .

فقال أبو موسى: ما كنتُ لأفعل. ولكن هلمّوا فبايعوا لأمير المؤمنين عثمان، وجدّدوا له البيعة في أعناقكم. فأجابه الناس إلى ذلك، فقبل ولايتهم، وجدّد البيعة لعثمان في رقابهم!

وهذا التصرف متوقع تماماً من رجل كأبي موسى. فهو يريد الإصلاح وليس الانشقاق. ولذلك كان حريصاً على إعلان الطاعة للخليفة عثمان وقام بتجديد البيعة العامة له واستجاب الناس لذلك. وهذا يدل على أن التمرد الذي حصل في الكوفة لم يكن انشقاقاً عن جسد الأمة، ولا رفضاً لمؤسسة الخلافة. كان ما جرى هو تصويبٌ لأوضاع تدهورت وساءت والسياسة انحرفت وفشلت، بعد أن طفح الكيل بعموم الكوفيين بسبب رفض الخليفة أو عجزه، عن اتخاذ أي إجراء تجاه واليه المرفوض.

تتابع الرواية فتكتب إلى عثمان بما صنع، فأعجب ذلك عثمان وسرّه.

فقال عتبة بن الوغل شاعر أهل الكوفة:

تصدّق علينا يا ابن عفان واحتسب ... وأمّر علينا الأشعري لياليا

فقال عثمان: نعم وشهوراً وسنين إن بقيتُ!

وهذا ليس صحيحاً. فعثمان لم يسرّ بما حصل. وحتى لو قبل بأبي موسى، فهو قبل بأمر واقع فرضته عليه الأحداث.

وتختم رواية ابن سعد فتكمل الذي صنع أهل الكوفة بسعيد بن العاص أول ومن دخل على عثمان حين أجري عليه.

ولم يزل أبو موسى والياً لعثمان على الكوفة حتى قتل عثمان

ولم يزل سعيد بن العاص حين رجع من الكوفة بالمدينة حتى وثب الناس بعثمان فحصروه فلم يزل سعيد في الدار معه يلزمه فيمن يلزمه لم يفارقه ويقاتل دونه»(1)

ابن سعد مصيبٌ تماماً في وصفه لما جرى بأنه «أول وهن دخل على

(1) وقد نقل ابن عساكر في تاريخ دمشق هذا النص بالحرف عن ابن سعد.

عثمان»، لأن قيام الكوفة بفرض إرادتها على الخليفة قد يصير مثلاً يُحتذى في أماكن أخرى. ولا يغير من حقيقة الأمر تظاهُر عثمان بقبول والي الكوفة الجديد وبعثه.

وأظن أن عثمان قد بدأ يفكر في طريقة لإعادة فرض واليه المخلوع، من أجل استعادة هيبته في الكوفة. ومن المرجح أن يكون الخليفة قد بدأ مداولات مع مستشاريه حول ما ينبغي عمله لمعاقبة هؤلاء الذين أصروا على تحديهم له، وبالأخص مالك الأشتر ومجموعته. فلا بد من أسلوب آخر معهم.

ولكن التطورات المتسارعة لم تمهل عثمان ليفعل أي شيء، إذ سرعان ما تعرض إلى ما هو أخطر بكثير: تمرد ضخم اجتاح عاصمته وصار يهدده في منصبه وحياته.

وبالعودة إلى الروايات، فالبلاذري في أنساب الأشراف قدم رواية طويلة وغنية بالتفاصيل، بإسناد جمعي (قالوا) سأتناولها بتمامها لأنها تبدو لي الأفضل. فيقول إنه عندما استدعى عثمان عماله لاجتماع القمة:

*«وكان علباء بن الهيثم السدوسي قد شخص مع سعيد بن العاص ليشرفه ويثني عليه لأنه سأله ذلك. وأحب علباء أيضاً أن يلقى علياً ويعلم حال عثمان وما يكون منه. فلما رأى أن عثمان قد عزم على رد عماله تعجّل إلى الكوفة على ناقة له، فلما قدمها قال: يا أهل الكوفة هذا أميركم الذي يزعم أن السواد بستان له قد أتاكم»*

وهكذا يكون الرجل الكوفي، علباء، قد انقلب على أميره سعيد، وبدلاً من أن يمتدحه لدى الخليفة وييسر له أموره، يعود مسرعاً إلى الكوفة حاملاً لها الأخبار السيئة ومحرضاً أهلها على الوالي.

تتابع الرواية *«وأقسم أهل الكوفة قبة معاوية عن الشام، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بحمص مع عامر بن خطاب الأرحبي يدعونهم إلى القدوم ويخبرونهم عليه ويعلمونهم أنه لا طاعة لعثمان مع إقامته على ما ينكر منه»*

وهذا يدل على أمرين: أن الأشتر ومجموعته الذين تم نفيهم إلى الشام

قد بقوا هناك حتى تلك اللحظة (سنة كاملة) ولم يعودوا إلى الكوفة قبل ذلك كما تذكر بعض الروايات. والثاني أن دوائر المعارضة في الكوفة واسعة جداً ولا تقتصر على الأشتر ومجموعته.

تتابع الرواية فسار إليهم هاني بن خطاب متقلداً للسير راكباً الفلاة، فلما قرأوا كتاب أصحابهم لقيل الأشتر والقوم المسيرون حتى قدموا الكوفة، فأعطاه القراء والوجوه جميعاً مواثيقهم وعهودهم ألاّ يدعوا سعيد بن العاص يدخل الكوفة والياً أبداً.

ثم يذكر البلاذري الأسماء فيكون الذين كتبوا مع هاني بن خطاب :

مالك بن كعب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي

ويزيد بن قيس بن ثمامة الأرحبي

وشريح بن أوفى العبسي

وعبد الله بن شجرة السلمي

وجمرة بن سنان الأسدي

وحرقوص بن زهير السعدي

وزياد بن خصفة التيمي

وعبد الله بن الطفيل البكري ثم الشيباني

وزياد بن النضر الحارثي

وعمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني

وعلقمة بن قيس النخعي

في رجال أشباههم.

تتابع الرواية فقام مالك بن الحارث الأشتر يوماً فقال: إن عثمان قد غيّر وبدّل. وحضّ الناس على منع سعيد من دخول الكوفة. فقال له قبيصة بن جابر بن وهب الأسدي، من ولد عميرة بن جذار: يا أشتر، دام شترك وعفا

اترك، أطلت الغيبة وجئت بالخيبة ! أألهمتنا بالفرقة والفتنة ونكث البيعة وخلع الخليفة؟

فقال الأشتر: يا قبيصة بن جابر وما أنت وهذا؟ فوالله ما أسلم قومك إلاّ كرهاً ولا هاجروا إلاّ فقراً. ثم وثب الناس على قبيصة فضربوه وجرحوه فوق حاجبه. وجعل الأشتر يقول: لا خير لي في من لا يلذّ من حرصه يهتمّ.

وهذا النص يُحسب للبلاذري ولمصادره. فهو لم يخف وجود نوع من المعارضة الداخلية في الكوفة للأشتر ومجموعته، كما هي حال قبيصة. هذا على الرغم من الصورة الشائعة عن الكوفة كمعقل للمعارضين للولاة الأمويين.

يتابع البلاذري: ثم صلى بالناس الجمعة وقال لزياد بن النضر: صلِّ بالناس سائر صلواتهم والزم القصر.

وأمر كميل بن زياد فأخرج ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري من القصر، وكان سعيد بن العاص خلّفه على الكوفة حين شخص إلى عثمان.

وعسكر الأشتر بين الكوفة والحيرة وبعث علقمة بن حتلة في خمسمائة إلى أسفل كسكر مسلحة بينه وبين البصرة.

وبعث جمرة بن جنان الأسدي في خمسمائة إلى عين التمر ليكون مسلحة بينه وبين الشام.

وبعث هانئ بن أبي حية بن علقمة الهمداني ثم الوادعي إلى حُلوان في ألف فارس ليحفظ الطريق في الجبل، فلقي الأكراد بناحية الدينور وقد أفسدوا فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وبعث الأشتر أيضاً يزيد بن حجية التيمي إلى المدائن وأرض جوخى

وولى عروة بن زيد الخيل الطائي ما دون المدائن

وتقدم إلى عماله ألاّ يجبوا درهماً وأن يسكنوا الناس وأن يضبطوا النواحي.

وهذه الصورة التي يقدمها البلاذري لمالك الأشتر غير حقيقية. فلا يمكن تصديق ان الأشتر يستطيع تنظيم قوات على شكل جيوش وفيالق ويوزعها جغرافياً بما يجعل للكوفة حدود وتحصينات دفاعية «مسالح» من كل الجهات بما فيها البصرة والشام!! فالأشتر القادم من النفي والعزلة لا يمكن ان يصدر الأوامر الى «مسالحه» كما تشير الرواية!! هناك مبالغة شديدة في هذه الصورة.

تتابع الرواية «وبعث مالك بن كعب الأرحبي في خمسمائة فارس ومعه عبد الله بن كنانة أحد بني عمرو بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد الى العذيب ليلقى سعيد بن العاص ويرده.

فلقي مالك بن كعب الأرحبي سعيداً فرده وقال: لا والله لا تشرب من ماء الفرات قطرة!! فرجع الى المدينة.

فقال له عثمان: ما وراءك؟ قال: الشر!

فقال عثمان: هذا كله عمل هؤلاء يقصد علياً والزبير وطلحة»

ويلاحظ هنا سهولة استسلام سعيد بن العاص. فهو لم يحاول الإصرار على دخول الكوفة، بل اكتفى بالرجوع الى عثمان. وهذا مدهش، لأن سعيداً كان في منصبه منذ 4 سنوات على الأقل فلماذا لم يحاول أن يستنفر رجاله داخل الكوفة؟ واين جهازه الأمني؟ التفسير الوحيد هو أن سعيداً قد فقد السيطرة كلياً وكان مدركاً لحقيقة وضعه المنهار في الكوفة.

ومن المستبعد أن يكون عثمان قد اتهم كبار الصحابة بالوقوف وراء مشاكل الكوفة.

يتابع البلاذري «وانتهب الأشتر دار الوليد بن عقبة وكان فيها مال سعيد ومتاعه حتى قلعت ابوابها»

وربما المقصود دار الامارة لأن العلاقة بين الوليد وسعيد لم تكن حسنة ولا يمكن ان يكون مال سعيد في دار الوليد.

«ودخل الأشتر الكوفة فقال لأبي موسى: تولّ الصلاة بأهل الكوفة، وليتولّ حذيفة السواد والخراج.»

فالصحيح أن الأشتر «اقترح» على أبي موسى تولي مسؤولية الامارة ولم (يأمره).

تابع «وكتب عثمان الى الأشتر وأصحابه مع عبد الرحمن بن ابي بكر والمسور بن مخرمة يدعوهم الى الطاعة ويعلمهم أنهم أول من سنّ الفرقة ويأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق والكتاب اليه بالذي يحبون.

فكتب اليه الأشتر: من مالك بن الحارث الى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيه، النابذ لحكم القرآن وراء ظهره. اما بعد: فقد قرأنا كتابك، فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا. وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنك الذي أرداك فأراك الجور عدلاً والباطل حقاً. وأما محبتنا فأن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا وتسييرك صلحاءنا وإخراجك إيانا من ديارنا وتوليتك الأحداث علينا، وان تولي مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضيناهما. واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه الهوى من أهل بيتك ان شاء الله. والسلام»

ولا بد طرح العبارات القاسية المنسوبة الى الأشتر جانباً وخاصة «الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن» ليس لأن الأشتر لا يؤمن بها ولكن لأن مستوى مخاطبة الخليفة لم يكن قد انحدر الى تلك الدرجة بعد، ولكن يجب ملاحظة الشكوى المرة من تعيينات آل عثمان والتي عبر عنها الأشتر بقوله «وليدك وسعيدك»!

تابع البلاذري «وخرج بكتابهم يزيد بن قيس الأرحبي ومسروق بن الأجدع الهمداني وعبد الله بن أبي سبرة الجعفي وأسلم أبي سبرة يزيد، وعلقمة بن قيس أبو شبل النخعي وخارجة بن الصلت البرجمي من بني تميم في آخرين. فلما قرأ عثمان الكتاب قال: اللهم اني تائب! وكتب الى أبي موسى وحذيفة: انتما لأهل الكوفة رضىً، ولنا ثقة، فوليا أمرهم وقوما به بالحق، غفر الله لنا ولكما. فولي أبو موسى وحذيفة الأمر، وسكّن أبو موسى الناس»

وقد أخرج خليفة بن خياط في تاريخه حادثة خلع سعيد ضمن أحداث عام 33 وباختصاره المعهود فذكر فيها: *أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص، وولوا أبا موسى الأشعري، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولي أبا موسى فولاه. وفيها يوم الجرعة، وكان عثمان ردّ سعيد بن العاص إلى الكوفة فخرج أهل الكوفة فمنعوه*»

وأما المسعودي في مروج الذهب فتبدو روايته لأحداث خلع سعيد بن العاص وقد حوت جملة من الأخبار المخترعة ووضعها في سياق ولحمة فهي تبتدئ بخبر سواد قريش المشهور:

*فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة، فاستبد بالأموال، وقال في بعض الأيام أو كتب به عثمان: إنما هذا السواد قطين لقريش! فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟*»

ولكن الرواية هنا – بخلاف رواية الواقدي – لا تتحدث عن ضرب صاحب شرطة سعيد الذي تم الاعتداء عليه من قبل الأشتر ومجموعته الغاضبة، ولا تذكر مراسلات سعيد وشكاواه للخليفة مما أدى إلى قرار نفي هؤلاء إلى الشام، بل تكمل الحديث عن الأشتر:

*ثم خرج إلى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد (بن العاص)، وسألوا عزله عنهم*»

ثم تنتقل الرواية لذكر قدوم عمال عثمان عليه ونقاشه معهم مما أسفر عن قراره بتثبيت سعيد بن العاص على عمله مع توصية بتكثيف الحملات العسكرية لإشغال أهل الكوفة، وكل ذلك تم والأشتر ومجموعته لا يزالون في المدينة ينتظرون قرار الخليفة. ثم تنفرد الرواية بالإشارة إلى أن طلحة والزبير قاما بتحريض الأشتر على التمرد وخلع سعيد بن العاص!

فقاما باقراضه مائة ألف درهم حتى يتمكن من شراء الحاجيات واللوازم الموجهة المسيرة إلى الكوفة قبل أن يصلها سعيد بن العاص[1]. ثم تقول:

*فخرج إلى الكوفة فسبق سعيداً وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ثم قال: أما بعد: فإن عاملكم الذي أنكرتم تعدّيه وسوء سيرته قد رُدّ عليكم، وأمر بتجهيزكم في البعوث، فبايعوني على أن لا يدخلها. فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة، وخرج[2] راكباً متخفياً يريد المدينة أو مكة، فلقي سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر فانصرف إلى المدينة. وكتب الأشتر إلى عثمان: إنا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك (ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه، فابعث إلى عملك) من أحببت. فكتب إليهم: انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه[3]. فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعري، فولوه.*

وختاماً نقول إنه لا شك أن نجاح المتمردين في السيطرة على الكوفة، وخلع واليها الأموي، يشير إلى مدى التدهور الذي وصلت إليه الأمور فيها. فلا يمكن تصور أن مجموعة محدودة النفوذ، أو بدون قاعدة اجتماعية صلبة، تنجح في خلع والٍ راسخ في منصبه منذ سنوات طويلة، ومدعوم مباشرة من الخليفة. والنصوص تبرز الشخصية القيادية لمالك الأشتر والدور المهم الذي لعبه في تطورات الأحداث: فهو الذي يأخذ المبادرة في منع والي عثمان من العودة للكوفة وهو الذي يختار والياً بديلاً.

وهو مالك الأشتر سوف يستمر في التعاظم في قادم الأيام: فهو سيكون من قيادات الثوار التي حاصرت عثمان قبيل مقتله، وهو سيكون من أهم قيادات الخليفة علي بن أبي طالب السياسية والعسكرية والمقربين له.

---

(1) وهذا لا يمكن تصديقه. بل هو يدخل في إطار الروايات التي تحاول أن تحمل كبار الصحابة مسؤولية التحريض على قتل عثمان. وسيأتي الحديث لاحقاً عن الروايات المصممة لبيان تهافت موقف طلحة والزبير وعائشة في حرب الجمل عن طريق القول إنهم كانوا وراء التحريض على الثورة على عثمان بينما هم الآن يطالبون بدمه.

(2) لم أعرف على من يعود ضمير الغائب هنا. فلا يمكن أن يكون المقصود بالراكب المتخفي هو الأشتر.

(3) توحي الرواية أن تولية أبي موسى خلفاً لسعيد كانت بمبادرة من عثمان، ولكن الأرجح أن عثمان قد استجاب لمطلب المتمردين من أهل الكوفة.

وسوف نتطرق بالتفصيل إلى شخصية مالك الأشتر.

دراسة في الأسماء: الثائرون في الكوفة[1]

سوف نستقصي أسماء الشخصيات التي وردت في المصادر وكان لها دور في القلاقل في الكوفة خلال ولاية سعيد بن العاص.

الذين قاموا بضرب صاحب شرطة سعيد بن العاص:

ذكر الواقدي (لدى الطبري) أسماء كل من:

«مالك بن كعب الأرحبي، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الأشتر في رجال»

وأما أبو مخنف فروايته لدى البلاذري تذكر الأسماء التالية:

«مالك بن الحارث الأشتر النخعي

وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان

وحرقوص بن زهير السعدي

وجندب بن زهير الأزدي

وشريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي

وكعب بن عبدة النهدي – وكان يقال لعبدة بن سعد ذو الحبكة

وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، ويكنى أبا طريف

وكدام بن حضرمي بن عامر، أحد بني مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص361-363 وص374)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج5 ص152-153)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1141-1142)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص388-390)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص161)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج6 ص33) وكتاب اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير.

ومالك بن حبيب بن خراش، من بني ثعلبة بن يربوع

وقيس بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم

وزياد بن خصفة بن ثقف، من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة

ويزيد بن قيس الأرحبي

وغيرهم"

وأما روايته لدى ابن شبة فالأسماء فيها مختلفة. فهي تغفل ذكر سبعة ممن ذكرهم الطبري (كعب بن عبدة، عدي بن حاتم، كدام بن حضرمي، مالك بن حبيب، قيس بن عطارد، زياد بن خصفة ويزيد بن قيس) بينما تضيف أسماء آخرين: عمرو بن زرارة، وكميل بن زياد، ويزيد بن مكنف.

وأما ابن أعثم في إسناده الجمعي فيتحدث بإسهاب عن دور مالك الأشتر "وأصحابه" في المشكلة التي حصلت بحضور سعيد. ويرد ذكر عدي بن حاتم الطائي كأحد الموجودين في ذلك الموقف.

ولا بأس في ذكر الأسماء التي أخرجها سيف بن عمر (لدى الطبري)، وهم "الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابئ"

المنفيون إلى الشام:

في رواية أبي مخنف لدى البلاذري نقرأ: "فسيّرَ سعيدٌ الأشترَ ومن كان وثب مع الأشتر وهم:

زيد وصعصعة ابنا صوحان

وعائذ بن حملة الطهوي، من بني تميم

وكميل بن زياد النخعي

وجندب بن زهير الأزدي

والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، من بني حوف بن سبع بن صعب، إخوة السبيع بن سبع بن صعب

ويزيد بن المكفف النخعي

وثابت بن قيس بن المنقع بن الحارث النخعي

وأصفر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي، من بني المعطل.»

وذكر الواقدي في روايته التي أخرجها الطبري أن المسيّرين كانوا «تسعة نفر... فيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد النخعي وصعصعة بن صوحان»

وفي رواية ابن أعثم بإسناده المبهم، يرد ذكر الأسماء التالية:

«ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صعصعة بن صوحان العبدي وأخوه وعائذ بن حملة الظهري، وجندب بن زهير الأزدي والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، وأصفر بن قيس الحارثي ويزيد بن المكفف، وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد ومن أشبههم من إخوانهم»

وأما العلامة ابن كثير فقد قال عن المنفيين «وكانوا عشرة، وقيل تسعة وهو الأشبه، منهم كميل بن زياد، والأشتر النخعي – واسمه مالك بن يزيد – وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي.»

<u>رسالة الإصلاح الغاضبة إلى عثمان:</u>

تذكر رواية يونس بن أبي إسحق المصطلقي لدى ابن شبة «كتب نفرٌ من وجوه أهل الكوفة ونساكهم، منهم: معقل بن قيس الرياحي، ومالك بن حبيب، وعبد الله بن الطفيل العامري، وزياد بن حفص التميمي، ويزيد بن قيس الارحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن صرد، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبدة النهدي»

ويذكر أبو مخنف كما ينقل البلاذري الأسماء التالية :

«معقل بن قيس الرياحي

عبد الله بن الطفيل العامري

مالك بن حبيب التميمي

يزيد بن قيس الأرحبي

حُجر بن عدي الكندي

عمرو بن الحمق الخزاعي

سليمان بن صرد الخزاعي

المسيب بن نجبة الفزاري

زياد بن حصين الطائي

كعب بن عبدة النهدي

زياد بن النضر بن بشر بن مالك بن الديان الحارثي

مسلمة بن عبيد القاري (من القارة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة)»

ويذكر ابن أعثم بإسناده الجمعي أسماء كل من :

يزيد بن قيس الأرحبي

مالك بن حبيب اليربوعي

حُجر بن عدي الكندي

عمرو بن الحمق الخزاعي

زياد بن حنظلة التميمي

وعبد الله بن الطفيل البكائي

زياد بن النضر الحارثي

كرام بن الحضرمي المالكي

معقل بن قيس الرياحي

زيد بن حصن السنبسي

سليمان بن صرد الخزاعي

المسيب بن نجبة الفزاري

ورجال كثير من قرى أهل الكوفة ورؤسائهم

بالإضافة طبعاً الى كتاب كعب بن عبدة النهدي

أحداث عليع سعيد بن العاص:

ترد الأسماء التالية لدى ابن سعد في طبقاته «مالك الأشتر ويزيد بن مكفف وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان والحارث بن عبد الله الأعور وجندب بن زهير وأبو زينب الأزديان وأصفر بن قيس الحارثي» وأيضاً «يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي» بالاضافة الى الشاعر عبثة بن الوغل.

والبلاذري، بإسناده الجمعي (كذا)، يذكر أسماء وجهاء أهل الكوفة الذين كثيرا يستعرض إخوانهم المنفيين من الشام:

مالك بن كعب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي

ويزيد بن قيس بن ثمامة الأرحبي

وشريح بن أوفى العبسي

وعبد الله بن شجرة السلمي

وجمرة بن سنان الأسدي

وحرقوص بن زهير السعدي

وزياد بن خصفة التيمي

وعبد الله بن الطفيل البكري ثم التيمي

وزياد بن النضر الحارثي

وعمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني

وعلقمة بن قيس النخعي

وأضاف ان هناك آخرين «في رجال أشباههم». وكان حامل الرسالة هانئ بن خطاب الأرحبي.

ثم بدأ يتحدث عن النشاطات العسكرية لمالك الأشتر واستعداده لرد الوالي. ويذكر في هذا السياق الأسماء التالية:

زياد بن النضر، كميل بن زياد، جسرة بن جنان الأسدي، عائذ بن حملة، هانئ بن أبي حية بن علقمة الهمداني، يزيد بن حجية التيمي، عروة بن زيد الخيل الطائي، مالك بن كعب الأرحبي، وعبد الله بن كنانة (أحد بني عائذ الله بن سعد العشيرة)

كما يذكر أسماء مسروق بن الأجدع الهمداني وعبد الله بن أبي سبرة الجعفي، وخارجة بن الصلت البرجمي (من بني تميم) من ضمن مساعدي مالك الأشتر.

يمكن إحصاء أسماء 45 شخصاً ممن ورد لهم ذكر في أحداث التمرد في الكوفة بمراحله المختلفة ابتداء من قدوم سعيد بن العاص والياً وانتهاء بتخلصه منها. وتتكرر أسماء البعض بشكل لافت بينما يرد ذكر غيرهم عرضاً. ويتفق الإخباريون والمؤرخون على كامل الأسماء والألقاب لكثير من هؤلاء ويختلفون بشأن عدد منهم، وهذا أمر مفهوم ولا يضير.

ولا بد من دراسة الانتماء القبلي لهؤلاء الناشطين الذين تحدوا سلطة الخليفة وواليه لأن ذلك قد يكون مدخلاً لفهم تطور الأحداث.

ومن هؤلاء الأشخاص ال 45 الذين يرد ذكرهم:

يوجد 24 ينتمون الى قبائل يمانية

و19 ينحدرون من قبائل عدنانية

واثنان من خزاعة، وهي قبيلة يمانية من حيث الأصل ولكنها سكنت الحجاز.

يمكن الخروج بالاستنتاجات التالية:

1 - اتساع القاعدة المعارضة لسياسة الخليفة عثمان وحكمه. وربما يثير الدهشة قدرة الإخباريين والمؤرخين على ذكر 45 شخصاً، بأسمائهم ونسبهم في سياق تلك الأحداث. وهذا عدد كبير. فغالباً ما يعالج المؤرخون أحداثاً كبيرة دون أن يوردوا مثل هذا العدد من الأسماء، بل لا تصلهم سوى أسماء القادة والزعماء والشخصيات المؤثرة. ولذا يمكن القول بقدر كبير من الثقة بأن المعارضة في الكوفة كانت واسعة ولها طابع شعبي.

2 - التنوع القبلي الواضح لمعارضي السلطة يعني ببساطة عدم صحة الاعتقاد بأن الجماعة قبلياً بحيث كان مسؤولاً عن الأحداث. وهنا يدحض الفكرة الموجودة لدى بعض الباحثين بأن المتمردين ينتمون أساساً إلى القبائل اليمانية بينما تؤيد القبائل العدنانية (المضرية) بمجملها سلطة قريش. وهذه الفكرة الخاطئة ربما تكون أتت من تطور الأحداث فيما بعد خلال حكم معاوية وبني أمية الذي اعتمد على رجال القبائل العربية الشمالية. ولكن في هذه الفترة المبكرة، خلال حكم عثمان، لم يكن هذا الفرز قد حصل بدليل وجود 19 اسماً من أصل 45 ممن انخرطوا في معارضة فعّالة للحكم القرشي وهم ينتمون الى قبائل عربية نزارية.

3 - وحتى ضمن ذلك التقسيم العريض (يمانية / عدنانية) يُلاحظ تنوّع كبير أيضاً. فال 19 اسماً المشار اليهم منهم 5 من قبائل ربيعة (3 من عبد القيس واثنان من بكر بن وائل) و 14 من قبائل مضر (7 من تميم و 4 من قيس عيلان و3 من خزيمة بن مدركة). وكذلك الحال مع الشخصيات اليمانية: فمن بين ال 24 اسماً يوجد 10 من قبائل مذحج، 6 من قبائل همدان، 3 من طيء، اثنان من الأزد وواحد من كندة.

4 - ويلاحظ أيضاً الغياب التام لأي اسم ينتمي لقبيلة قريش وحليفتها الرئيسية ثقيف. وهذا يؤكد فكرة محاولة تمرّد القبائل العربية على هيمنة قريش.

5 – رغم الشرخ الواضح والعدد الكبير لأبناء القبائل العربية المعارضين لحكم عثمان وولاته، إلاّ أنه لا بد من ملاحظة غياب الشخصيات ذات الوزن القبلي الأبرز. فلا نجد ذكراً لشيوخ القبائل الكبار، فزعماء القبائل من الكبار القليل لم يكونوا منخرطين بشكل واضح في حركة المعارضة. فيمكن القول أن المعارضين لم يكونوا في معظمهم من قادة القبائل، وربما كان الكثيرون منهم من العناصر الثانوية في عشائرهم. وحتى الاسماء ذات الشهرة منهم لم تكن على الأرجح تتمتع بثقل قبلي كبير وإنما اكتسبت شهرتها فيما بعد بحكم نشاطها في تلك الأحداث. وذلك حال مالك الأشتر وكميل بن زياد (وهما من عشيرة النخع – فرع من مذحج) وصعصعة بن صوحان وأخيه زيد (وهما من قبيلة عبد القيس – فرع من ربيعة) وحجر بن عدي (من كندة). وربما يكون الوحيد الذي له ثقل قبلي هو سليمان بن صرد، ولكن بروزه كأحد زعماء خزاعة كان في الواقع بعد أكثر من ربع قرن من تلك الفترة، أي في الأحداث التي تلت مقتل الامام الحسين في ستينات القرن الهجري الأول.

6 – وأما كبار زعماء القبائل في الكوفة، وبالذات الأشعث بن قيس[1] الذي كان زعيم قبيلة كندة بلا منازع ويمتد تأثيره في ذات الوقت الى بقية القبائل اليمانية فالمؤكد أنه لم يكن معارضاً للسلطة. وكذلك حال جرير بن عبد الله البجلي. ولا غرابة في ذلك لأن عثمان كان يراعي أمثال هؤلاء ولا يغفل عن منحهم مناصب وامتيازات تضمن له ولاءهم. وعلى الرغم من تحفظي على مجمل روايات سيف بن عمر إلاّ أنّي أجدني أميل لسرد فكرته التي احتوتها روايته[2] التي يذكر فيها أن سعيد بن العاص كان قد بعث الزعماء القبليين في الكوفة حكاماً لمناطق تابعة لولاية الكوفة: الاشعث بن قيس على آذربيجان، وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الأقرع على اصبهان، وجرير بن عبد الله على قرقيسياء، وغيرهم، ويختم سيف روايته «فرغت الكوفة من الرؤساء إلاّ منزوع أو مفتون».

(1) سيلعب دوراً مهماً خلال عهد الامام علي، وسوف يأتي الحديث عنه بالتفصيل.
(2) تاريخ الطبري (ج3 ص241)

نزار بن معد بن عدنان
مضر
ربيعة
تميم
قيس عيلان
هذيل
مزينة
خزيمة
أسد
كنانة
قريش
هوازن
باهلة
عامر بن صعصعة
غطفان
ثقيف
عبس
عنزة
عبد القيس
بكر بن وائل
بنو حنيفة
بنو شيبان

## مالك الاشتر [1]
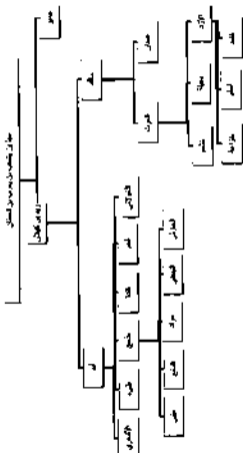
فيما يلي ترجمته كاملة كما رواها الذهبي في سير اعلام النبلاء:

ملك العرب، مالك بن الحارث النخعي أحد الأشراف والأبطال المذكورين.

حدث عن عمر، وعن خالد بن الوليد. وفقئت عينه يوم اليرموك. وكان شهما مطاعا زعرا. ألب على عثمان وقاتله. وكان ذا فصاحة وبلاغة.

شهد صفين مع علي، وتميز يومئذ، وكاد أن يهزم معاوية، فحمل عليه أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأسنة يدعون الى كتاب الله. وما أمكنه مخالفة علي، فكف.

قال عبد الله بن سلمة المرادي: نظر عمر الى الأشتر، فصعد فيه النظر وصوبه ثم قال: ان للمسلمين من هذا يوما عصيبا.

ولما رجع علي من موقعة صفين، جهز الاشتر واليا على ديار مصر، فمات في الطريق مسموماً. فقيل: ان عبداً لعثمان عارضه، فسم له عسلاً.

وقد كان علي يتبرم به لأنه كان صعب المراس، فلما بلغه نعيه قال: إنا لله! مالك وما مالك؟ وهل موجود مثل ذلك؟ لو كان حديداً لكان قيداً، ولو كان حجراً لكان صلداً، على مثله فلتبك البواكي.

وقال بعضهم: قال علي: للمنخرين والفم.

وسر بهلاك عمرو بن العاص وقال: ان لله جنودا من عسل.

وقيل: ان ابن الزبير بارز الاشتر، وطالت المحاولة بينهما حتى ان ابن الزبير قال: اقتلوني ومالكاً. واقتلوا مالكاً معي.

وقد ساهم الاشتر في الفتوحات وكان له دور بارز في فتوح دمشق

---

(١) مصادر هذا البحث: سير اعلام النبلاء للذهبي (ج٤ ص[illegible])، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج٥٦ ص[illegible] وص[illegible] وص[illegible] و ص[illegible])، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج٥ ص[illegible] وص[illegible] و ج١٥ ص[illegible])، رجال النجاشي (ص[illegible])، أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين (ج٩ ص[illegible]).

والشام تحت إمرة خالد بن الوليد. ولقد تحدث ابن عساكر في تاريخ دمشق عن قتال بطولي خاضه الأشتر مع فرسان الروم في اليرموك وخروجه منتصراً من تلك المنازلات الخطرة.

ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب شهادة عظيمة بحقه، فقد كتب لأهل مصر حين أرسله والياً عليهم:

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من طريق المدائني أن علياً كتب لأهل مصر لما أرسل الأشتر عليهم والياً «أما بعد.. فقد وجهتُ إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر. أشد على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج. فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة ولا كليل الحد. فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تحجموا فاحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري. وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته وشدة شكيمته على عدوه..»[1]

ورواها أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق الشعبي:

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الملأ الذين غضبوا لله من بعدما عصي الله في الأرض وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر، فلا حق قال يستريح إليه ولا منكر يتناهى عنه. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإني قد بعثتُ إليكم عبداً من عباد الله لا نابي الضريبة ولا كليل الحد ولا ينام على الخوف ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر. أشدّ على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج. وإنه سيفٌ من سيوف الله فإن استنفركم فانفروا وإن أمركم بالإقامة فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمري وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدوكم...»[2]

---

(1) ويروي ابن أبي الحديد هذه الرواية أيضاً عن الشعبي وبألفاظ قريبة من هذه بل وأنها [illegible]
[illegible]

(2) ولقد أخرجت المصادر الشيعية هذا النص بنفس هذه العبارات تقريباً. ومنها رجال النجاشي الذي أورد مخاطبة الامام علي لأهل مصر عن طريق الشعبي عن صعصعة ابن صوحان.

وكتب عنه ابن ابي الحديد في شرح النهج «فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة ويرفق في موضع الرفق»

وللأشتر مكانة رفيعة لدى الشيعة. وهكذا ورد وصفه في كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين:

«كان من زعماء العراق الأشداء، فارساً صنديداً لا يشق له غبار، شديد البأس رئيس أركان الجيش لعساكر أبي الحسن (ع) في معاركه، وهو من لهاميم مذحج الأبطال المغاوير وسيد قروم النخع وشجعانها المساعير. ومن رواسي الجبال في الحلم ومن السحاب الثقال في الكرم والسخاء. وكان الأشتر بالكوفة أسود من الأحنف بالبصرة. أما في السياسة فكان من الأكياس الحازمين، يجمع بين اللين والعنف فيسطو في موضع سطو ويرفق في موضع الرفق. ولقد شهد له بذلك أمير المؤمنين (ع) فقال عنه: إنه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عما الاسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل. وهو خطيب منبر وقائد عسكر وشاعر ناثر. وقد استطاع أن يجمع بلاغة لسانه من الفتن العمياء ما أحيا السيف الخفاق في كثير من المواقف والمشاهد التي نصر فيها الحق وحارب الباطل.

كان أمير المؤمنين (ع) حين رجع من صفين رد الأشتر إلى عمله بالجزيرة فلما اضطربت مصر على محمد بن أبي بكر استدعى أمير المؤمنين (ع) الأشتر إليه وهو يومئذ بنصيبين وأرسل إليه هذا الكتاب: أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأثيم وأسد به الثغر المخوف. إلى أن يقول: فأقدم علي لننظر فيما ينبغي واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام. فأقبل الأشتر إلى علي فلما دخل عليه حدثه حديث مصر وخبره خبر أهلها، وقال له: ليس لها غيرك فاخرج إليها رحمك الله فإني لا أوصيك اكتفاء برأيك واستعن بالله على ما أهمك واخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم على الشدة حين لا يغني عنك إلا شدة....

ولما بلغ عليا موت الأشتر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللهم إني أحتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكا لقد كان وفيا بعهده وقضى نحبه ولقي ربه. مع أنا قد وطنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله، فإنها من أعظم المصائب. وحدث أشياخ النخع قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك وما مالك؟! والله لو كان من جبل لكان فندا ولو كان من حجر لكان صلدا، أما والله ليهدن موتك عالما وليفرحن عالما، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك؟!

قال علقمة بن قيس النخعي: فما زال يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وعرف ذلك في وجهه أياما. ومن أقوال أمير المؤمنين فيه: كان لي كما كنت لرسول الله.

وسئل بعضهم عن الأشتر فقال: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق.

وبحكم قربه من الإمام علي، ولكونه من أهم الشخصيات التي اعتمد عليها علي في فترة حكمه وإدارته، فقد كان نصيبه كبيرا من الافتراءات والتهم التي كان وراءها بنو أمية ومن شايعهم. ويمكن ملاحظة عدد وافر من الروايات الملفقة المتعلقة به. ومن ذلك الرواية الواردة مثلا، لدى الذهبي والتي تقول ان عمر بن الخطاب نظر إليه وتنبأ بأن «للمسلمين من هذا يوماً عصيباً». فبعد أن أوردها ابن عساكر في تاريخ دمشق أردف بأن يحيى بن معين قد جزم بعدم صحة سندها.

ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن عساكر عن الشعبي من أن علياً كان عاتباً عليه الى حد أنه قال حين بلغه خبر وفاته «لليدين وللفم»! فكيف يكون عليٌّ عاتباً له ثم يرسله في تلك المهمة الشديدة الصعوبة والأهمية (انقاذ مصر من السقوط)؟

## الفصل الثالث: حالُ البصرة[1]

كانت البصرة قد شهدت في عهد عثمان نموا كبيرا نتج أساسا عن تزايد حركة الفتوحات في إيران، والتي لعبت البصرة فيها دورا كبيرا فاق دور جارتها الأهم: الكوفة.

وفي ظل ولاية أبي موسى الأشعري تمكن مقاتلة البصرة من فتح إقليم الأحواز، وفتح قم، وقاشان وأصبهان والمساهمة مع مقاتلة جبهة البحرين في فتح أجزاء من إقليم فارس، وأسفر ذلك عن غنائم كثيرة ساعدت على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين العرب، وأدى ذلك إلى زيادة عدد سكان البصرة.

وفي ولاية عبد الله بن عامر ازدادت أهمية البصرة الإدارية، واتسعت مهامها العسكرية في المنطقة الواقعة شرق خليج فارس، مما أدى إلى زيادة هجرة قبائل عبد القيس والأزد إليها، وبالتالي تضخمت أعداد السكان فيها، وتمكن مقاتلوها من فتح إقليم فارس وكرمان وسجستان وخراسان. وازدادت موارد البصرة كثيرا وأخذت المدينة تنمو بسرعة فاستوطن فيها تجار وأصحاب مهن من العرب والأعاجم.

### سياسة ابن عامر في البصرة

فكما هو متوقع من شاب قرشي مترف، قريب القرابة من الخليفة، لم

(1) مصادر هذا البحث: أسد الغابة لابن الأثير (ج[illegible] ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج[illegible] ص[illegible]) و (ج[illegible] ص[illegible])، كتاب المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص[illegible])، أنساب الأشراف للبلاذري (ج[illegible] ص[illegible]) و كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج[illegible] ص[illegible]).

يكن يرى بأساً في الاستمتاع بالثروات التي كانت تنهال من غنائم الفتوحات، ومن ذلك ما ذكره ابن الأثير في ترجمته في أسد الغابة «وهو أول من لبس *الخز بالبصرة. لبس جبة دكناء فقال الناس: لبس الأمير جلد دب فلبس جبة* حمراء»

وربما كان يبالغ في نفقاته وعطاياه من بيت المال الى حد التبذير. وربما لذلك وصفه ابن الأثير «وكان أحد الأجواد الممدوحين». ولا بد من التساؤل عن صفة الجود هذه لدى ابن عامر: فإذا كان المرء يجود بحرّ ماله، الذي كسب من أجل كسبه بالكدح الحلال فذاك هو الجود. وأما إن كان يتصرف بالمال العام، ويستغل ولايته في التحكم بأموال الدولة، فذاك ليس جوداً ولا كرماً. وقد أشار ابن عامر في معرض اقتراحه على الزبير وطلحة بالمسير الى البصرة الى أن من أسباب ذلك أن له بها صنائع، كما سيأتي في موضعه.

وقد روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف أن يزيد بن قيس الأرحبي، وهو من قيادات جيش علي في صفين، ذكر بعضاً من مساوئ ابن عامر في معرض خطبة ألقاها لحث العراقيين على القتال «... وعبد الله بن عامر *الشقي الضال يعير أحدهم في مجلسه بسب دينه ودية أبيه وجده، يقول: هذا لي ولا إثم عليّ! كأنما أعطي تراثه من أبيه وأمه! وإنما هو مال الله عز وجل أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا..*»

وقد ذكر ابن حبيب البغدادي حادثة طريفة يظهر منها مدى الاستهتار بولاية أمر الناس الذي كان يظهره بعض أفراد عائلة عثمان أحياناً:

«*استأذن عامر بن كريز عثمان في زيارة ابنه عبد الله في البصرة، فأذن له. فشخص إليه.*

*فلما صعد عبد الله المنبر وكان خطيباً، أخذ عامر يذكر نفسه ويجعل يقول لمن يليه: أترون أميركم هذا؟ من هذا خرج، وأشار إلى متاعه!*

*فلم يدعه عبد الله يقيم، وأحسن جهازه وسرّحه إلى المدينة خوف الفضيحة*»

ولا شك بأن الكثيرين من الرعية كانوا يراقبون ذلك النوع من التصرفات بتركيز شديد.

ورغم تلك المثالب التي خالطت سلوكه الشخصي إلا أن ابن عامر لم يكن خاملاً ولا كسولاً. وقد سبق وذكرنا أنه تابع بكل همة وحماس تنفيذ السياسة الاستراتيجية للدولة، وهي الفتوحات والمزيد منها. قال ابن الأثير في ترجمته في أسد الغابة «افتتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وهي أعمال غزنة. أرسل الجيوش ففتح هذه الفتوح كلها. وفي ولايته قتل كسرى يزدجرد» كما يبدو أنه كانت له قرارات إدارية وتنظيمية مهمة في البصرة. يضيف ابن الأثير «وهو الذي اتخذ السوق بالبصرة. اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً»

وقد كانت بوادر التذمر والرفض لسياسة عثمان وواليه، عبد الله بن عامر، موجودة في البصرة، فقد تذاكر مجموعة من أهل البصرة أعمال عثمان، وقرروا إرسال أحدهم إليه ليكلمه في ما أخذ الناس عليه. فلما وصل المدينة دار بينه وبين الخليفة حوار قاس!

روى الطبري في تاريخه عن جعفر بن عبد الله المحمدي :

«اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه. فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمي ثم العنبري، وهو الذي يدعى عامر بن عبد قيس.

فأتاه فدخل عليه فقال له: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً. فاتق الله عز وجل وتب إليه.

قال عثمان: انظر إلى هذا! فإن الناس يزعمون أنه قارئ، ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات. فوالله ما يدري أين الله!

قال عامر: أنا لا أدري أين الله؟!

قال: نعم! والله ما تدري أين الله.

قال عامر: بلى والله إني لأدري أن الله لك بالمرصاد»[1]

(٢) ويلاحظ هنا تشابه العبارات وسياق الحديث مع النص الذي أوردناه من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج1 ص390)، والذي يتحدث عن كعب بن عبدة النهدي من أهل الكوفة والذي تجرأ وأرسل لعثمان كتاباً اعترض فيه مخالفاته ودعاه إلى الكف عنها

والظاهر ان عثمان قام بنفي عامر هذا الى الشام، ولكن أسباب الخلاف بين عامر هذا وبين الخليفة عثمان والتي تتحدث عن مطالبة الخليفة بتقوى الله ومعارضته لسياساته يبدو انها لم ترق لسيف بن عمر ا فذكر سيف ان عامراً (كما مر سابقا) تم نفيه من البصرة الى الشام لأنه كان يرفض أكل اللحم والزواج وحضور صلاة الجمعة!

وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة باختصار، في معرض ترجمته لعبد الله بن عامر انه هو الذي سيّر عامر بن عبد القيس العبدي من البصرة الى الشام!

وأما رواية البلاذري في أنساب الأشراف فتقول ان قدوم عامر هذا كان بسبب وشاية تعرض لها وأن عثمان قد عفا عنه لما رآه من صلاحه. فقال نقلاً عن أبي مخنف «كان عامر بن عبد قيس التميمي ينكر على عثمان أمره وسيرته. فكتب حمران بن أبان مولى عثمان، الى عثمان بخبره فكتب عثمان الى عبد الله بن عامر بن كريز في حمله فحمله.

فلما قدم عليه فرآه، وقد أعظم الناس إشخاصه وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده، ألطفه وأكرمه ورده الى البصرة»

وهناك إشارات تدل على أن سياسة عثمان وولاته في التركيز على الفتوحات الجديدة والمتواصلة خاصة في إيران، أدت إلى نوع من الإنهاك لمقاتلي القبائل العربية. فعلى الرغم من أن الفتوحات كانت تؤدي إلى غنائم ضخمة جدا، وهو ما كان يحثّ أبناء قبائل العرب على الانخراط في «الجهاد» التي هي مصدر الدخل الرئيسي للدولة الإسلامية كلها منذ أيام عمر، إلا أن ذلك كان له ثمن المتمثل في ضرورة المحافظة على تواجد عسكري عربي في المناطق المفتوحة، أو «الثغور». وكان ذلك يعني وجود حاميات مقاتلة عربية في أعماق إيران. ومن المحتمل أن يكون المقاتلون العرب واجهوا صعوبات في التأقلم مع طبيعة المناطق الإيرانية المختلفة عن جزيرة العرب تماما. وربما كان المقاتلون غير مرتاحين لوجودهم ضمن بيئة محلية معادية لهم. وكان على والي البصرة أن ينظم مسألة الحاميات العربية داخل بلاد فارس، أعدادها ومواقعها، وخطوط الإمداد والاتصال، وأيضا التبديل الدوري

للأفراد في تلك الثغور. وبالإجمال، كان المقاتلون الموكلون بمهمة السيطرة على مناطق داخل إيران، يستبدلون مرة واحدة كل 4 سنوات. وهذه فترة طويلة جداً بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يتوقون للعودة إلى أهلهم وعيالهم في البصرة. وهذه ستكون إحدى مصادر الشكوى التي سيعبّر عنها بالقول «تجمير البعوث». ويبدو أن عبد الله بن عامر كان ينتهج سياسة متمثلة في المبالغة في النشاط العسكري وإطالة مدة إقامة العسكر في المناطق المفتتحة.

ولكن من المؤكد أن معارضة الخليفة عثمان في البصرة كانت أقل حدة بكثير من تلك الموجودة في شقيقتها الكوفة. وسوف يظهر ذلك بجلاء في قادم الأيام حيث ستنقسم البصرة بين مؤيد للإمام علي ومؤيد لخصومه المطالبين بدم عثمان قبيل معركة الجمل، بخلاف الكوفة التي منحت علياً تأييداً تاماً.

## الفصل الرابع: عثمان يشعر بالخطر

### اجتماع القمة بين عثمان وعماله [1]

لما كثرت الشكايات والاضطرابات في عدة ولايات، وتعددت العديد من العناوين، صار لا بد أن يتحرك الخليفة قبل فوات الأوان. كان عليه أن يتخذ القرارات ويحدد السياسات ليواجه الموقف الحازم. ولذلك قرر عثمان عقد اجتماع على أعلى مستوى مع قياداته وأركان حكمه. والاجتماع كان مهماً جداً لأنه كان الفرصة الأخيرة للخليفة لمنع الانهيار الشامل. كان متوقعاً من عثمان في ذلك الاجتماع أن يقوم بمحاسبة ولاته على تقصيرهم وأخطائهم، كان الوقت وقت تغيير خاصة وأن هؤلاء كانوا في مناصبهم منذ سنوات عديدة وقد تسببوا في تدهور الأمور وأساؤوا إلى سمعة الخليفة ومكانته. ولكن عثمان أظهر فشلاً جديداً! لقد أسفر الاجتماع المنتظر عن إعادة الثقة بنفس هؤلاء الولاة! لم يحاسب مقصراً ولم يعزل أحداً ولم يبدل شيئاً. قرر الخليفة الاستمرار على نفس النهج، وبكل بساطة!

ذكر ابن شبة النميري في تاريخ المدينة: حدثنا هارون بن عمر قال، حدثنا أيوب بن سويد قال، حدثنا مطرف بن أبي بكر الهذلي، عن أبيه، عن الزهري قال: كان أمراء الأجناد يقدمون على عثمان في كل عام، فقدم عليه ابن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشام، وعبد الله بن عامر من البصرة، وسعيد بن العاص من الكوفة.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1099)، تاريخ الطبري (ج4 ص372-376 و ص379-381)، الكامل لابن الأثير (ص 389 ص 391)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص144) وكتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص388-389)

فقال لهم عثمان: يا بني أمية أنتم بطانتي دون ظاهري، وقد أكثر الناس شكايتي حتى تناولني بها البعيد، وآذاني بها القريب، فأشيروا عليّ.

فأشار عبد الله بن عامر -وكان امرءاً سخياً- فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس إنما يرضيهم ما أسخطهم، وهي هذه الأموال فأعطهم منها، تستل بذلك سخائم صدورهم وضغائن قلوبهم وشحناءها.

ثم تكلم ابن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين، إن لك عليهم حقاً ولهم عليك حقاً، فأعطهم حقهم عليك وخذهم بحقك عليهم، واتبع سنة الذين قبلك يجتمعوا عليك بالرضى.

ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد أمروا وجسروا حتى كبرت كبراؤهم، فابعثهم جيوشاً وجمرهم في المغازي، حتى تكون دبرة دابة أحدهم أهم إليه من التفكر في أمر الأمة.

ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت من صلتنا ما يبلغه كريم قوم من صلة قوم، حملتنا على رقاب الناس وجعلتنا أوتاد الأرض، فليكفك كل رجل منا مصره، وسأكفيك الشام، فلن تؤتى من الشام أبداً.

فأخذ عثمان بقول معاوية ورد عماله إلى أمصارهم!

إلا أن معاوية كان يستشعر الخطر الداهم على حياة الخليفة وكان يدرك أنه ليس بالإمكان الاستمرار في تجاهل ما كان يحصل على أرض الواقع من تطورات خطيرة، أدرك معاوية أن الزمان قد تجاوز الخليفة العجوز.

يتابع ابن كثير الرواية ويتحدث عن اقتراحات عرضها معاوية على الخليفة

فقال له معاوية رضي الله عنه: اخرج معي إلى الشام فهم شيعتك وأنصارك.

فقال: ما كنت لا فارق مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ومنازل أزواجه .

قال: فإذ أبيت فإذن لي أجهز إليك جيشاً من الشام تطأ بهم من رابك .

قال: لا أكون أول من أقل المهاجرين. قال: فلا تخرج ولا تأذن لي أرجه إليك جيشا ؟ أ أنت مقتول. ثم خرج إلى المسجد وفيه نفر من المهاجرين فقال: أوصيكم بشيخي هذا خيرا، والله لئن لحدثتم فيه حدثا لا أعطيكم إلا السيف. فقال بعضهم: ألا تسمعون لما يقول هذا ؟ فرد عليهم آخرون: لا تلوموه أن يتكلم في ابن عمه»

وفي رواية أخرى لدى ابن شبة عن الليث بن سعد، كانت اقتراحات معاوية على الصيغة التالية :

«فقام فدخل على عثمان رضي الله عنه، فقال: معاوية ؟

قال: نعم

قال: ما جاء بك ؟

قال: الذي بلغني من أمرك وأمر أصحابك، ثم أخبره بما كلم به عليا وأصحابه، وبما أجابوه به علي[1]، ثم قال له: إني قد جئت معي بظهر فاركب الآن فأقدم على أهل الشام فإنك أحب الناس إليهم حتى ترى رأيك .

فقال: ما أريد أن أبرح.

قال: فأذن للناس في القتال.

قال: لا أريد أن أجمع منه السرور.

قال: ابعث أخرى إن رأيت أن ترحني إلى عملي فافعل.

قال: نعم ولاك من هو خير مني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاخرج إلى عملك .

فركب ثم قال لمن حضره: يا أهل المدينة دونكم جزوركم – يريد عثمان – وستعلمون كيف العاقبة»

وهذه الاقتراحات يمكن الشك فيها، بل واستبعادها. فمعاوية ولا شك

[1] وسيأتي الحديث عن كلام معاوية لعلي وكبار الصحابة

يعرف مدى ارتباط الخليفة العجوز ببطانة رسول الله(ص) واستمالة اتقائه منها. وأما طلبه الاذن في القتال أو قوله «دونكم جزوركم» فمما لا يمكن قبوله. إلاّ أن ذلك لا ينفي إمكانية أن يكون معاوية اقترح على عثمان إرسال قوة حراسة لحمايته ولرد أي اعتداء عليه. فمعاوية رجل دولة محنك ولا يقبل عقله فكرة أن يكون قائد الدولة كسائر الناس بلا حرس.

وقد أخرج الطبري في تاريخه روايتين متشابهتين عن جعفر المحمدي بشأن اجتماع القمة ضمن أحداث سنة34:

*فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى سعيد بن العاص وإلى عمرو بن العاص بن وائل السهمي وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغه عنهم.*

*فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرء وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي. وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلي أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ.*

*فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلاّ نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه.*

*ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك؟*

*قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف، واعمل برأيي تُصب.*

*قال: وما هو؟*

*قال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر.*

*فقال عثمان: إن هذا الرأي لولا ما فيه.*

*ثم أقبل على معاوية فقال: ما رأيك؟*

*قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وأنا ضامن لك قبلي.*

ثم أقبل على عبد الله بن سعد فقال: ما رأيك؟

قال: أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.

ثم أقبل على عمرو بن العاص فقال له: ما رأيك؟

قال: أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون. فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل. فإن أبيت فاعتزم عزماً وامضِ قدماً

فقال عثمان: مالك قمل فروك؟ أهذا الجد منك؟

فأسكت عنه دهراً حتى إذا تفرق القوم قال عمرو: لا والله يا أمير المؤمنين، لأنت أعز عليّ من ذلك، ولكن قد علمتُ أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردتُ أن يبلغهم قولي فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً»[1]

وفي الرواية الثانية عن جعفر المحمدي ذكر نتيجة مباحثات عثمان مع قياداته العليا، وهي: قرار منه بمزيد من التشدد تجاه رعيته :

«فرد عثمان عماله على أعمالهم، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه»

وفيما يلي رواية ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح حسن سياق إسناده الجمعي نقلاً عن شيوخ الأخباريين:

«قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي حدثني أبو الحسن علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشعبي وأبي مخنف عن أبي وائل، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال: وحدثني إسحاق بن يوسف الفزاري قال: حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب

---

(1) وقد روى ابن خلدون في تاريخه نفس هذه الرواية تقريباً مع اختصار قليل ودون ذكر كلام عمرو بن العاص، وذلك من ضمن أحداث العام 34.

قال: حدثني لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عيينة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال: وحدثني عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم ويزيد بن عبد الرحمن الأنصاري وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سرا وعلانية .

وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد.

ذكر قدوم عمال عثمان عليه لما كثرت شكاية الناس منهم .

قال: فأرسل عثمان إلى جميع عماله فأشخصهم إليه من جميع البلاد ثم أقبل عليهم فقال: يا هؤلاء ! إنه قد كثرت شكايات الناس منكم فأما القريب فقد بلغني وأما البعيد فما تألوا جهدك فماذا عندكم من الرأي؟

قال: فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز وقال: يا أمير المؤمنين ! إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ولا يشكوك أحد بعد ذلك. قال: ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين ! إن لك على الناس حقا في كتاب الله ولهم عليك مثل ذلك، فادفع إليهم حقوقهم واستوف منهم حقك، فإنه قد ولي أمر هذه الأمة من قبلك رجلين خيرين فاضلين أبا بكر وعمر فسارا بسيرة، فسر بسيرتهما واستن بسنتهما واعمل بعملهما، يرضى الناس عنك ولا يشكوك أحد.

قال: ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ! ما دعا الناس أن نقموا عليك إلا الصحاح والفراغ من الحروب، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل وتحدثت بالأحاديث، فاشغل العرب بالغزو وقاتل بهم العدو حتى لا يرجع أحدهم، إذا رجع إلى منزله قد أهمته نفسه لا يتفرغ لعيب الأمراء.

قال: ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين ! إنك قد جمعتنا وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا وأنت قد ملكتنا رقاب الناس وجعلتنا أوتادا في

الأرض، فستنفذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى تكفيك ما قبله ولا يكون هنالك شكاية أحد ولا يتهم أحد عليك .

قال: فعلم عثمان أن الرأي ما قال معاوية، فعزم على أن يرد عماله إلى بلادهم وأعمالهم ثم أوصاهم وعهد إليهم وحذرهم الشكايات، فرجع معاوية إلى الشام وعبد الله بن عامر إلى البصرة، وسعيد بن العاص إلى الكوفة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر، فلم يزدادوا على الناس إلا غلظة وعنفا وجبروتا في الاستكبار وعدولا عن السنة .

ومن المؤكد أن البطانة الأموية للخليفة، مروان بن الحكم بالغائب، كان لها الدور الأبرز في إقناع عثمان بأن الاستجابة لمطالبات عامة الرعية إنما هو ضعفٌ لا يليق بالخليفة بل إنه سيؤدي إلى المزيد من المطالب، وأن الأنسب هو مزيدٌ من الشدة والحزم والمزيد من التفويض والصلاحيات للولاة ذاتهم بعد تجديد الثقة بهم.

وقد ورد في الكامل لابن الأثير خبر اجتماع عثمان بولاته مرتين: واحدة ضمن أحداث عام 34 والثانية في عام 33. ولكن من المستبعد أن يكون حصل اجتماع ثمة في عام 35 لأنه كان العام الذي حوصر فيه الخليفة وقتل وهو وحيد.

## سيف بن عمر ينفي وجود أسباب حقيقية للشكوى من عثمان وولاته!

كما أخرج الطبري في تاريخه رواية سيف بن عمر بشأن اجتماع القمة، وهو المتخصص في الدفاع عن عثمان، وقد جعل الاجتماع ضمن أحداث سنة 35.

واستبق سيف روايته بخبر عن إرسال عثمان مجموعة من الصحابة الى الأمصار (الكوفة والبصرة ومصر والشام) لكي يتحققوا من أوضاعها وما يصله من شكايات ضد ولاتها. فرجعوا كلهم بأخبار تمتدح ولاة الأمصار قالوا: أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم .... إن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم؟ باستثناء عمار بن ياسر.

وتتبع سيفٌ خبر عودة الصحابة يلمس الأخبار عن أوضاع الأمصار برواية تظهر مدحاً للخليفة الذي كتب لأهل الأمصار قائلاً لهم «أما بعد فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم. وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته. وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يضربون. فيا من ضرب سراً وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين.

فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا إن الأمة لتمخض بشر».

وبعد هذه المقدمة يروي سيف خبر اجتماع القمة بصياغة مدروسة بكل عناية للدفاع عن الخليفة وكل ولاته: فعثمان يسألهم «ويحكم! ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، ولا يعصب هذا إلا بي» فيجيبوه «ألم تبعث؟ ألم ترجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء. وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها» ثم أكد سيف، على لسان سعيد بن العاص أن الأمر لا يعدو كونه مؤامرة جرت في الظلام «هذا أمر مصنوع، يصنع في السر، فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم» ويستمر سيف الى أن ينهي روايته بخطبة جميلة لعثمان «... وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيراً ولا نفسي، ووالله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها. كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها».

وهكذا يريد سيف أن نصدّق أن الأمر كله كذب في كذب: فلا ظلم في الأمصار بل ولاة عادلون راشدون. والمشكلة كلها إشاعات خبيثة يطلقها بعض راغبي الفتن. ولما تأكد الخليفة من ذلك ثبّت ولاته قائلهم في مناصبهم، لأنهم وبكل بساطة: مُفترى عليهم.

### معاوية يُحقر كبار الصحابة [1]

وتوجد الكثير من الروايات التي تتحدث عن قيام معاوية بالحديث مباشرة الى أهل الشورى وكبار الصحابة محذرا إياهم بشكل صريح من مغبة التخلي عن الخليفة العجوز. وليس هناك ما يمنع من قبول مجمل تلك الروايات لأنها تنسجم مع خط معاوية وأسلوبه. ويمكن اعتبار تاريخ المدينة لابن شبة النميري من أكثر المصادر استعراضا لتحذيرات معاوية. والظاهر أن تحذيرات معاوية تلك حصلت بعيد اجتماع الفتنة بين عثمان وعماله في موسم الحج سنة 34 للهجرة.

وفي اولى الروايات لابن شبة قال

حدثنا محمد بن سعيد الدمشقي قال، حدثنا عبد الكريم بن يزيد، عن موسى بن محمد بن طلحة، عن أبيه قال: إني لمع أبي في المنزل حين أتاه رسول عثمان يدعوه فقام يلبس ثوبه، ثم أتاه رسول ثان، ثم أتاه رسول ثالث، فانطلق وانطلقت معه فإذا عثمان جالس وعنده المهاجرون وعيون الأنصار وفي مقدمتهم مع معاوية « ثم يذكر كلاما لعثمان يدافع فيه عن سياساته الى أن يصل الى كلام معاوية.

فقال معاوية رضي الله عنه: إنكم معشر المهاجرين قد علمتم أنه ليس منكم إلا قد كان في عشيرته من هو أشرف منه، بعث الله رسوله فأسرعتم إلى الله، وأبطأوا عنه، فسدتم عشائركم حتى إنه ليقال بنو فلان، رهط فلان، وإن هذا الأمر ثابت لكم ما استقمتم، فإني قد أراكم وما تصنعون، وإني والله لئن لم تتركوا شيخنا هذا يموت على فراشه ليدخلن فيكم من ليس منكم.

فقال علي رضي الله عنه: وما أنت وهذا يا ابن اللخناء ؟

فقال معاوية رضي الله عنه: مهلا أبا حسن، فوالله ما هي بأخس نسائكم،

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ج 3 - ص 1094 - 1098)، تاريخ الطبري (ج4 ص342)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص40-44)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص300).

ولقد اسلمت ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته وصافحته، وما رأيته صافح امرأة قط غيرها

قال: فنهض علي رضي الله عنه مغضباً، فقال له عثمان رضي الله عنه: اجلس. قال: لا أجلس. قال: عزمت عليك. فأبى، فأخذ عثمان رضي الله بطرف ردائه فتركه من يده وخرج».

وهذا نص مثير للغاية: فمعاوية يقول انه اذا تحرك فيها الصحابة فسوف تخسرون كل شيء؛ الفقد وصلتم الى مكانتكم الرفيعة بفضل سبقكم الى رسول الله (ص) وعليكم ان تحافظوا على العهد والا اسيدخل فيكم من ليس منكم ويقصد نفسه طبعا.

و ثاني روايات ابن شبة تقول «حدثنا أحمد بن معاوية قال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: أرسل عثمان إلى طلحة رضي الله عنهما يدعوه، فخرجت معه حتى دخل على عثمان رضي الله عنه فإذا وعنده علي وسعد والزبير ومعاوية—

فحمد الله معاوية وأثنى عليه وقال: أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرة الأرض، وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع في ذلك أحد غيركم، اخترتم صاحبكم من غير غلبة ولا طمع، وقد كبرت سنه وولى عمره، ولو انتظرتم به الهرم — وكان قريبا — مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله من أن يبلغ به ذلك، وقد فشت قالة خفتها عليكم، فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي به لكم، ولا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم منها أبدا إلا إدبارا.

فقال علي رضي الله عنه: مالك ولذلك لا أم لك.

فقال: دع أمي فهي ليست بشر أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجبني فيما أقول لك.

فقال عثمان رضي الله عنه: صدق ابن أخي ...»[1]

(1) ويجدر بالذكر ان هذه الرواية، بالحرف تقريبا، أوردها الطبري في تاريخه (ج5 ص382)

وهنا يظهر معاوية كمن ايضمن؟ الخليفة عثمان أمام كبار منتقديه من الصحابة فيما يدعي به لكم؟! وهذا الكلام من معاوية يعكس مدى إحساسه بقوته هو وإدراكه بأنه قد غدا العمود الفقري لنظام حكم عثمان.

وفي رواية ثالثة قال ان معاوية قد أقبل من الشام خصيصا لتحذير الصحابة حدثنا هارون بن عمر المخزومي قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث بن سعد:

*أن معاوية رضي الله عنه لما سمع الذي كان من معاتبة – أو كلمة تشبهها – أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان أقبل من الشام يسير إذا فدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عليا وطلحة والزبير رضي الله عنهم في ناحية المسجد يتحاورون، فسلم عليهم ثم قال: أيأذن منكم؟*

*قالوا: نعم يا معاوية.*

*فقعد فقالوا: ما جاء بك؟*

*قال: الذي دخل بينكم فإن الناس قد رأوا أن هذا الأمر ميراث لكم أيها النفر، ليس لأحد فيه حق معكم، حتى إنهم ليقولون فلان بعد فلان، وفلان بعد فلان كأنه ميراث، وإن تصلح ذات بينكم لا يطمع أحد في منازعتكم ولئن تختلفوا يدخل عليكم غيركم. قالوا: ومن ذاك؟*

*قال: أنا أولهم أ فرقع به على فصفحه من أمره ....»*

ورواية رابعة تقول إن معاوية قد وجه خطابه وتحذيره إلى عموم أهل المدينة ومكة في موسم الحج حدثنا علي بن محمد، عن عيسى بن يزيد، عن صالح ابن كيسان قال: حج عثمان ومعاوية – رضي الله عنهما – معه فأمره عثمان رضي الله عنه،

*فتكلم فقال: يا أيها الناس، إنكم قد اجتمعتم في أعظم حرمة لله، والله لا أقول في مقامي هذا إلا حقا هيبة لله وحرمته، ورغبة من الله*

---

وذكر السند كما يلي حدثني عبد الله بن أحمد بن شبويه قال حدثني أبي قال حدثني عبد الله عن إسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة قال...»

وطريقه، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين قد أنعم الله عليهم في أنفسهم، وأنعم على المسلمين بهم، لهم ولاة هذا الامر ما بقي منهم إنسان، وهذان البلدان - المدينة ومكة - خير البلدان، فالتابعون ينظرون إلى السابقين، والبلدان ينظرون إلى هذين البلدين، وإني قد رأيتكم بطرتم نعمتكم، وتشبتم في الطعن على إمرتكم، وإني والله لئن صففت إحدى يدي على الأخرى لم يقم السابقون للتابعين، ولا البلدان على البلدان وما صرتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود فلا ينتزعن أمركم من أيديكم، ولا يخرجن من بين أظهركم، فإياكم إياكم قرب أمر يشأني فيه وإن كره خيفة لما في عاقبته»

وفي رواية أخرى عن الهيثم بن عدي ان معاوية خاطب أهل المدينة فقال معاوية: يا أهل المدينة إن قولكم اليوم سنة على من سواكم، وحكم على من خالفكم، وقد تعلق الناس بينكم وبين أمركم في هذا الرجل، فإن تركتموه حتى يمضي تمام الامر فأنتم به، وكان لكم واليكم، وإن أعطيتموه وأنتم أنهيكم الناس على حكمكم وحكموا عليكم، وإن الفتنة لتبيت على ثلاث: على الشخوص ثم السكون ثم الخلع ومن المطلس، وفيها يصير الصغير كبيرا والشريف وضيعا، ويقول فيها من لم يكن يسمع منه فيسمع له، ولا يقال معه»

ويلاحظ في عموم الروايات مدى انزعاج الامام علي وغضبه من كلام معاوية، ورفضه الشديد الدخول في مناقشات معه تتعلق بمستقبل الخلافة وشؤونها، والروايات تجمع أن الامام عليا كان يواجه معاوية بكلام حاد جارح.

وهناك رواية لدى ابن شبة تفيد بأن معاوية لجأ إلى استفزاز الامام علي فحدثنا محمد بن حاتم قال، حدثنا نعيم بن محمد قال، حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت قال:

قال معاوية لعلي رضي الله عنهما: لو تنحيت ؟ فإن هذا الرجل إن أصيب اتهموك!

فقال علي رضي الله عنه: يا قاسي كلنا ركضناه مالك وما هنالك؟.

فقال معاوية رضي الله عنه: لا تشتم أمي فإنها ليست بدون أمهاتكم!

وتوجد رواية أخرى تذكر مواجهة بين الإمام علي ومعاوية أمام القيادات الأموية كلها حدثنا أحمد بن معاوية قال: حدثنا الهيثم بن عدي، عن ابن عياش قال، قال عبد الله بن عباس: قدم سعيد بن العاص من الكوفة حاجا فمرض بمكة، فدخل عليه (علي رضي الله عنه) يعوده وعنده معاوية، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن خالد بن أسيد، فأوسعوا له عند رأسه، فسأله، فلما فرغ قال له معاوية: أبا حسن، إني قائل لك قولا فإن كرهته فاصبر على ما تكره منه فإن من ورائه ما تحمد إنه والله ما صاحبنا غيرك، ولو سكت عنا ما نطق من قال معك، وما يغضب أمرنا إلا بك، وإن الذين معك الهرم لعلك عنا، وإن لا يشاك لتكونن أحب إليهم منك، ويا طلبنا أحب إليهم من طلبك، إنك والله ما أنت بشري على ما تريد، ولا نحن بمعطيه مما نطالب.

فقال علي: يا معاوية أقرأني أنعد لقول وتقول ؟! ثم خرج.

قال ابن عباس: فلقيته عمرت الغضب في وجهه، فدخلت على سعيد بن العاص فسألته، ثم قلت لهم: كأنكم لتغرتم شيخكم! فقال معاوية: أردنا تسكينه فغضر. فقلت: ولم ؟ فوالله إنه لو قرر شهور بسيق بأمر حسنخ، فإياكم يا بني أمية، لا تستكرا به تستنكر بكم . «

كما اهتم ابن قتيبة في الإمامة والسياسة بخطاب معاوية التحقيري .

فروى قولا اتهم معاوية بن أبي سفيان على إثر ذلك من الشام، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر .

فقال لهم: يا معشر الصحابة !! أوصيكم بشيخي هذا خيراً. فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجالاً!.

ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال: يا عمار ! إن بالشام مئة ألف فارس، كل يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته،

ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا عبد الرحمن بن عوف ولا ماله، ولا يتقرن سعداً ولا دعوته!

فإياك يا عمار أن تقعد غداً في فتنة تنجلي، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي»[1]

وقد أورد ابن قتيبة الرواية على نحو آخر، وفيه أن عثمان قد دعا كبار الصحابة بعدما عاتبوه، وطلب منهم أن يسمعوا إلى معاوية «فإن ابن عمي معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعما نلتم مني، وما عاتبتكم عليه وعاتبتموني، وقد سألني أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد.

فقال سعد بن أبي وقاص: وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول، إلاّ ما قلت أو قيل لك؟

فقال علي: فلتكلم يا معاوية.»

فذكر معاوية كلاماً طويلاً عن الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان إلى أن وصل إلى بيت القصيد وهو التهديد وتذكير الصحابة بأن الزمان قد تغير «مهلاً مهلاً معشر المهاجرين! فإن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم، ومن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأحد من جمعكم، ثم استن عليكم بسنتكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي...

فقال علي بن أبي طالب: كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء! لست هنالك.»

ثم استمر معاوية فذكر كلاماً حول مكة والمدينة وكيف أن الأمصار تشخص ببصرها إليهما إلى أن قال: «وليسلبن أمركم وليتحولن الملك من بين أظهركم. وما أنتم في الناس إلاّ كالشامة السوداء في الثور الأبيض. فإني رأيتكم نشبتم في الطعن على خليفتكم وبطرتم معيشتكم وسفهتم أحلامكم»

واضحٌ من موقف وكلام عليّ بن أبي طالب، وكذلك سعد بن أبي وقاص، أن كبار الصحابة حتى تلك اللحظة لم يكونوا يشعرون أن من حق

---

(1) ويبدو ورد اسم عبد الرحمن بن عوف بين كبار الصحابة على سبيل الخطأ من الراوي، لأنه كان متوفياً في ذلك الوقت.

معاوية حتى أن يلي مواضيع الخلافة والحكم للنقاش. ولم يعتبروه مؤهلاً أصلاً للكلام بهذه الأمور بوجود عثمان ووجودهم.

وقد أخرج الطبري في تاريخه خطبة معاوية هذه بروايتين: الاولى ثم ذكرها

والثانية هي رواية سيف بن عمر وفيها ان معاوية قبيل عودته الى الشام خاطب نفراً من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي فقال «انكم قد علمتم ان هذا الأمر كان اذ الناس يتغالبون الى رجال، فلم يكن منكم أحد إلا وفي فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره

حتى بعث الله جل وعز نبيه (ص) وأكرم به من اتبعه، فكانوا يرأسون من جاء من بعده، وأمرهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد. فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم، والناس تبعٌ لهم، وإن أصغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك، ورده الله الى من كان يرأسهم، وإلاّ فليحذروا الغير، فإن الله على البدل قادر وله المشيئة في ملكه وأمره .

إني قد خلفتُ فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك .

ثم ودعهم ومضى.

فقال علي: ما كنتُ أرى أن في هذا خيراً. فقال الزبير: لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة»[1]

وتكمن اهمية خطاب معاوية التحذيري في كونه يوضح بجلاء أن معاوية كان يتوقع تلك النهاية المأساوية لعثمان ويستعد لها. وهو يضمر فلسفة معاوية: إن أصبح الأمرُ الرّ غلبة فأنا لها

---

(1) وهذه الرواية أخرجها ابن عساكر في تاريخ دمشق عن سيف بن عمر بسنده وقد نقل الطبري وابن عساكر في ذكر السند عرشاركهم من هذه السكك أبو حارثة وأبو عثمان من رجاله من حماد وغيره

فلم يكن بإمكان معاوية، الذكي والطامح، والذي أصبح رجل النظام القوي في عهد عثمان، ألا يلاحظ خطورة التطورات التي كانت تجري في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان. كان معاوية يستشعر جدّية الاضطرابات التي أخذت تعصف بعدة أقاليم من دولة الخلافة ومدى التهديد الذي تمثله مشاعر الاستياء والغضب الشعبي من سياسة الخليفة والتي تجتاح عرض البلاد وطولها. وفوق ذلك كان معاوية يشعر أن عثمان قد خلق حاجزاً منيعاً بينه وبين طبقة كبار الصحابة بسبب اعتماده الكلي على عائلته مو بالذات، وأن الخليفة بالتالي لم يعد يتمتع بالتأييد المناسب من هؤلاء. وربما قدّر معاوية أن الصحابة من جماعة الشورى يتوقعون أن يأتيهم الدور في خلافة العجوز عثمان إن وافاه الأجل أو حصل له مكروه. قرر معاوية أن يضع النقاط على الحروف ويُطلق إشارة تحذير لمن يهمه الأمر.

إن معاوية، الواقعي والعارف بتحولات مراكز القوى، أراد أن يذكّر الصحابة من ذوي الشرعية الإسلامية، أن الزمان تغير، وأن عليهم أن يعوا ذلك ويراعوا المستجدات على الأرض. وفي خطاب معاوية ذاك تصريح بأنه سيحترم الشرعية فقط إن هي استقرّت على هواه، وأنه لن يسمح بالمسّ بامتيازات بني أمية التي تأصّلت في عهد عثمان على يد مجموعة أصبحت «كالشامة السوداء في الثور الأبيض»!

الجزء الرابع:

# الهجوم على عثمان وقتله

## الفصل الأول: الهجوم على الخليفة

كان الأمر في البداية أشبه بمسيرة منظمة، احتجاجية، ومسلحة. في موسم الحج من عام 35، كان من ضمن الوفود التي أتت المدينة المنورة لأداء المناسك مجموعاتٌ من الذين جاؤوا وقد قرروا أن يستغلوا الموسم بهدف الاحتجاج المباشر على ما يرونه سياسات منحرفة للخليفة.

### من هم الثوار(1)؟

كان هؤلاء المحتجون من عدة أمصار: البصرة، الكوفة ومصر. وكانوا أساساً من الذين طفح بهم الكيل ولم يقدروا على الاستمرار في تحمّل ما اعتبروه ظلماً صارخاً وفساداً مفضوحاً يمارسه الجهاز الحاكم. وكان البارزون منهم قد سبق وتعرّضوا إلى عقوباتٍ بشكل أو بآخر على يد ولاة عثمان.

ويلاحظ أن هؤلاء الثوار كانوا ينتمون إلى طيف واسع من أبناء القبائل العربية. ومن الصعب ملاحظة تكتل كبير لقبيلة بعينها في صفوفهم، بل على العكس فهم كانوا ينحدرون من مناطق وقبائل متباينة ومتباعدة. فقد كان بينهم اليمانيون والعدنانيون، البدو والحضر، بل ضموا حتى عناصر من قريش وخزاعة.

---

(1) مصادر البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص130+431+503+647)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص23 و ج5 ص65+71)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص[illegible] و ج4 ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج3 ص[illegible]-[illegible])، أنساب الأشراف للبلاذري (ج5 ص[illegible])، تاريخ خليفة بن خياط (ص[illegible])، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص 256+260)، الإصابة لابن حجر (ج1 ص[illegible])، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص55-57)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص[illegible] و ج3 ص150) و تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175).

وكان بعضهم ممن يمكن القول انه ينتمي الى الطبقة العريضة لصحابة النبي(ص)

مثل جهجاه الغفاري الذي قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «... انه شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة. وكان قد شهد مع رسول الله(ص) غزوة المريسيع وكان يومئذ أجيراً لعمر بن الخطاب وزفع بينه وبين سنان بن وبرة الجهني في تلك الغزوة شر فنادى جهجاه الغفاري: يا للمهاجرين! ونادى سنان: يا للأنصار! وكان حليفاً لبني عوف بن الخزرج، فكان ذلك سبب قول عبد الله بن ابي بن سلول في تلك الغزوة (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)..... مات بعد عثمان رضي الله عنه بيسير»[1]

واضاف يقول عنه «وروي أن جهجاه هذا هو الذي تناول العصا من يد عثمان وهو يخطب، فكسرها يومئذ. فأخذته الأكلة في ركبته، وكانت عصا رسول الله(ص)»

وكذلك عمرو بن الحمق الخزاعي، فقد قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «هاجر الى النبي(ص) بعد الحديبية، وقيل: بل أسلم عام حجة الوداع. والأول أصح.

صحب النبي(ص) وحفظ عنه أحاديث، وسكن الشام، ثم انتقل الى الكوفة فسكنها.

..... وكان ممن سار الى عثمان. وهو أحد الأربعة الذين دخلوا عليه الدار فيما ذكروا.....»[2]

وقال عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى «صحب النبي(ص) ونزل الكوفة. وشهد مع علي رضي الله عنه مشاهده. وكان فيمن سار الى عثمان وأعان على قتله...»

---

(1) وذكر ابن حجر العسقلاني في الاصابة نفس هذه المعلومات حول جهجاه بن سعيد الغفاري، وذكر إياه بالاعتداء على عثمان وانتزاع عصاه من يده ورمي على العنبر وكسرها، ولكن دون أن يقول انها «عصا رسول الله»
(2) وأكد ابن الاثير في اسد الغابة نفس تلك المعلومات وأضاف عنه «صحب النبي(ص) وحفظ عنه أحاديث»

وكذلك عبد الرحمن بن عديس البلوي. قال عنه ابن الأثير في أسد الغابة له صحبة. وشهد بيعة الرضوان وبايع فيها.

«وكان أمير الجيش القادمين من مصر لحصر عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قتلوه...»[1]

وأيضاً محمد بن أبي بكر الصديق، فقد قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب أنه ولد عام حجة الوداع وأنه نشأ في حجر علي بن أبي طالب بعد أن تزوج أمه أسماء بنت عميس «وكان علي بن أبي طالب يثني على محمد بن أبي بكر ويفضله، لأنه كانت له عبادة واجتهاد، وكان ممن حضر قتل عثمان»[2]

<u>الثوار المصريون</u>: عند البحث عن أسمائهم نجد أن الطبري في تاريخه يخرج ثلاث روايات:

فمن ابن اسحق «وكان أهل مصر الذين ساروا الى عثمان 600 رجل على أربعة ألوية، لها رؤوس أربعة، مع كل رجل منهم لواء. وكان جماع أمرهم جميعاً الى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي -وكان من أصحاب النبي (ص)- والى عبد الرحمن بن عديس التجيبي»[3]

وذكر الواقدي عن المصريين «وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي -وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال حبش ابن الحمق- وابن النباع»

وأما سيف بن عمر فقال فخرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول ألف. على الرفاق: عبد الرحمن

---

(1) وكذلك ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب

(2) ولقد كان من المقربين من الامام علي بن أبي طالب، وسيأتي الحديث عن دوره خلال فترة حكمه. وهناك شهادات قيمة جداً بحقه من الامام علي ومنها ما قاله لما بلغه خبر مقتله (كما في نهج البلاغة بشرح محمد عبده) فقال: «... ألا وإن مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد، فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً...» وقال في مناسبة أخرى عنه (نهج البلاغة بشرح محمد عبده): «... ولقد كان إليّ حبيباً وكان لي ربيباً»

(3) يخطئ ابن اسحق حين ينسب عبد الرحمن بن عديس بقوله «التجيبي» لأن هناك اجماعاً بين كل من سرد على أنه «البلوي».

بن عديس البلوي وكنانة بن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني. وعلى القوم جميعا الغافقي بن حرب العكي، ولم يجترئوا ان يعلموا الناس بخروجهم الى الحرب وإنما أخرجوا كالحجاج، ومعهم ابن السوداء»

وأما رواية أبي مخنف لدى البلاذري فتقول «وجاء أهل مصر وهم 400. ويقال 500، ويقال 700 ، ويقال 600. عليهم أربعة امراء: أبو عمرو بن بديل بن ورقاء بن عبد العزى الخزاعي على ربع، وعبد الرحمن بن عديس البلوي على ربع، وكنانة بن بشر التجيبي على ربع، وعروة بن شييم بن البياع الكناني ثم الليثي على ربع»

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن جابر بن عبد الله ان القادمين من مصر :

«كان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وابن البياع، وعمرو بن الحمق الخزاعي (لقد كان الاسم غلب حتى يقال: جيش عمرو بن الحمق)»

وفي رواية أخرى له عن الواقدي عن ابي جعفر القاري مولى ابن عباس المخزومي قال «كان المصريون الذين حصروا عثمان 600، رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي»

وقال اليعقوبي في تاريخه عن الثوار المصريين «وكان من يأخذون عنه محمد بن ابي بكر، ومحمد بن ابي حذيفة، وكنانة بن بشر، وابن عديس البلوي»

وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقال «خرج من اهل مصر 700 رجل» ثم يتحدث بالتفصيل عن نشاطهم في المدينة بقيادة محمد بن ابي بكر وجدالهم مع الخليفة ووساطة الصحابة ثم رجوعهم الى مصر، حتى اكتشفوا رسول عثمان الى عامله بمصر وعودتهم للمدينة مرة أخرى، ثم أضاف «وأقبل ابن ابي حذيفة من مصر في 400 رجل»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه «قدم أهل مصر عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «فخرج من اهل مصر 700 رجل فيهم اربعة من الرؤساء: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي، وسودان بن حمران المرادي»

وبشأن ثوار الكوفة :

قال الواقدي (الطبري) «وقدم الاشتر في اهل الكوفة»

قال سيف بن عمر (الطبري) «وخرج أهل الكوفة في اربع رفاق، وعلى الرفاق: زيد بن صوحان العبدي، والاشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الاصم - أحد بني عامر بن صعصعة - وعددهم كعدد أهل مصر - وعليهم جميعاً عمرو بن الاصم»

وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقال «ثم أقبل الاشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «وخرج من الكوفة عدي بن حاتم الطائي والاشتر مالك بن الحارث النخعي في 200 رجل»[1]

وقال خليفة بن خياط في تاريخه عن الثوار «وأهل الكوفة فيهم الاشتر مالك بن الحارث النخعي»

وفي رواية لابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن ابي جعفر القاري مولى ابن عياش المخزومي قال «والذين قدموا من الكوفة 200، وأسهم مالك الاشتر النخعي»

---

(1) وسياق روايته يشير الى قدوم هؤلاء بعد ان كان الثوار المصريون قد عادوا الى المدينة بسبب كتاب عثمان لعامله، فكان هؤلاء جاؤوا ليؤازروهم، والرواية تذكر اسم عدي بن حاتم الطائي وهذا خطأ من ابن حبان لان عدياً لم يشارك في الهجوم على عثمان ولا في حصاره وقتله.

وبشأن الثوار البصريين :

قال الواقدي (الطبري) «وقدم حكيم بن جبلة من البصرة في ركب»

قال سيف بن عمر (الطبري) «وخرج أهل البصرة في اربع رفاق، وعلى الرفاق: حكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش بن عبد بن عمرو الحنفي، وعددهم كعدد أهل مصر. وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي»

وقال أبو مخنف (البلاذري) «وخرج حكيم بن جبلة العبدي في 100 ولحق به بعد ذلك 50 فكان في 150»

وفي رواية لابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن أبي جعفر القاري مولى ابن عباس المخزومي قال «والذين قدموا من البصرة 100 رجل رأسهم حكيم بن جبلة العبدي»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «وخرج من البصرة حكيم بن جبلة العبدي في 100 رجل، حتى قدموا المدينة يريدون خلع عثمان»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه عن الثوار «وأهل البصرة عليهم حكيم بن جبلة العبدي»

ومن اجمالي الروايات يمكن القول ان العناصر القيادية الفاعلة في صفوف الثوار كانت محمد بن ابي بكر، والاشتر النخعي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي وحكيم بن جبلة العبدي. فهؤلاء كانوا يتصدرون النقاشات والجدالات ويعرضون المطالب ويبرمون المفاوضات بالنيابة عن عموم الثوار.

ولا يصح وصف الثوار بأنهم مجموعات من الأوباش والأوغاد والعبيد الآبقين، كما سيرد وصفهم على لسان السيدة عائشة والزبير بن العوام أو في روايات سيف بن عمر.

## هل كانت هناك مؤامرة يهودية؟!

تذهب روايات سيف بن عمر في تاريخ الطبري الى أن التمرد الذي

حصل في الأمصار ضد الخليفة عثمان وأدى في نهاية المطاف إلى مقتله كان نتيجة لمؤامرة يهودية خبيثة حاك خيوطها شخص اسمه عبد الله بن سبأ. وابن السوداء هذا – كما يشار له أحياناً – كان يهودياً من اليمن فأظهر الاسلام نفاقاً في عهد عثمان من أجل الكيد للإسلام وأهله. وتقول روايات سيف أن ابن سبأ هذا قد تنقل ما بين المدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وبث الاشاعات والأباطيل حول الخليفة وولاته وأنه نجح في تكوين أتباع كثر له في كل مكان بمن فيهم صحابة كبار كعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري وبالتالي أثار القلاقل وأشعل الفتنة في ديار الاسلام بعد أن كان الناس في خير ووئام. والنظرية الكامنة وراء قصة ابن سبأ هي أنه ليست هناك أسباب موضوعية للتمرد والثورة بل إن كل ما حصل لا يعدو كونه تآمر شيطاني على الخليفة الراشد عثمان.

وأنا أرى أن هذا الكلام يبلغ من السخافة حداً يجعله غير جدير بالبحث الجدي. وقد استعرضنا في الفصول السابقة العوامل الموضوعية التي سببت الاضطراب في مصر والعراق بتفاصيلها. كما يمكن الرجوع الى فصل مشكلة أبي ذر الغفاري من هذا الكتاب للاطلاع على نموذج من روايات سيف عن ابن سبأ وتفنيدنا لها. كما قمنا بتفنيد مجموعة أخرى من روايات سيف بن عمر تتعلق بالوليد بن عقبة وابن أبي السرح وعمار بن ياسر وابن مسعود وسعيد بن العاص وغيرهم من الشخصيات وما يتعلق بها من أحداث.

ولن استرسل هنا في الحديث عن روايات المؤامرات التي حاكها ابن سبأ في الأمصار لأنها بساطة مضيعة للوقت وإهانة للعقل. فلم تكن هناك مؤامرة يهودية ولا ابن سبأ، وكل ذلك وهمٌ وخرافة.

ولكن هذا لا يعني إمكانية حصول نوع من التنسيق العملي بين صفوف المتمردين القادمين من الأمصار الثلاثة. فذلك طبيعي لأن الجميع لهم مطالب متشابهة وهم قد جاؤوا وأمامهم قضية واحدة وهي الاصلاح والتغيير. بل إنني أسمح لنفسي بقبول رواية لأبي مخنف تشير الى حصول نوع من التنسيق المسبق بين نشطاء من المعارضين قبل سنة من الهجوم على الخليفة.

روى البلاذري في أنساب الأشراف «حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده قالوا :

التقى أهل الأمصار الثلاثة، الكوفة والبصرة ومصر في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام. كان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبدة النهدي، ورئيس أهل البصرة المثنى بن مخربة العبدي، ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني ثم التجيبي.

فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما أعطى من نفسه وعاهد الله عليه. وقالوا: لا يسعنا الرضى بهذا! فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصره فيكون رسول من شهد مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى من كان على مثل رأيهم من أهل بلده. وأن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره فيستعتبوه، فإن أعتب وإلا رأوا رأيهم فيه. ففعلوا ذلك»

وهذه رواية مثيرة للاهتمام وإنا لنقبلها رغم تحفظي على الأسماء: فقد مر بنا أن كعب بن عبدة كان شاباً صغير السن حين كتب رسالته إلى عثمان فلا يصح وصفه بـ«رئيس أهل الكوفة» إلا إذا كان المقصود مندوباً عن نشطاء أهل الكوفة. وكذلك مندوب البصرة «المثنى بن مخربة» لم أجد له ذكراً واضحاً في تطورات الأحداث.

وفي هذا السياق هناك رواية مثيرة أخرى لدى البلاذري (أنساب الأشراف)، عن الواقدي هذه المرة، تقول «لما كانت سنة 34 كتب بعض أصحاب رسول الله (ص) إلى بعض، يتشاكون سيرة عثمان وتغييره وتبديله، وما الناس فيه من عماله، ويُكثرون عليه، ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد»

ولم توضح هذه الرواية من هم هؤلاء الصحابة الذين يتبادلون الرسائل للشكوى من عثمان. ويبدو السياق وكأن نوعاً من الاستنجاد يصدر من داخل المدينة إلى الأمصار من أجل التحرك ضد الخليفة. وأنا أستبعد أن يكون كبار الصحابة القرشيين (طلحة، الزبير، سعد) أو الامام علي أو زوجات النبي لهم علاقة بتلك الكتب. فربما تكون شخصيات ثانوية من الصحابة من الأنصار بالذات بادروا بالكتابة والتحريض ضد عثمان.

وعلى كل حال، تشير الرواية إلى نوع من الحراك والتململ كان يحدث حتى في عاصمة الخلافة.

مطالب الثائرين[1]

ويبدأ الثوار العمل بحذر وعلى مراحل. ومن المرجح أن هدفهم في البداية لم يكن قتل عثمان ولا حتى خلعه، بل تقديم مطاليبهم وعرض مظالمهم والطلب منه بحزم أن يغير سياسته والحصول على ضمانات بذلك. وعلى الرغم من أن وفد المحتجين لم يكن سلمياً، إلا أنه يمكن القول أنه لم تكن هناك نية مسبقة باستخدام القوة ضد الخليفة. فلو أنهم كانوا قد جاؤوا لقتل الخليفة لفعلوا ذلك من اليوم الأول لوصولهم لأنه لم يكن هنالك مانع مادي مؤثر يحول دون ذلك. فليس الأمر اغتيالاً أو جريمة قتل لفرد.

وهناك في المصادر نصوص كثيرة تذكر مطالب المتمردين من عثمان. ولكنها متداخلة جداً ومبعثرة. والظاهر أيضاً أن الثائرين أنفسهم كانت مطاليبهم كثيرة ومتنوعة، وأن المفاوضات مع عثمان كانت شاقة للغاية بسبب كثرة النقاط المثارة.

وفي الاجمال لم يكن عثمان يصرّ كثيراً على صوابية موقفه ولم يكابر كثيراً بل كان يقرّ بأخطائه ويطلب المغفرة من الله عليها! والنص التالي من الامامة والسياسة مثال على ذلك:

*فقام إليه رجل من المهاجرين فقال له: يا عثمان أرأيت ما حميت من الحمى: آلله أذن لكم أم على الله تفترون (يونس 59)؟*

*فقال عثمان: إنه قد حمى الحمى قبلي عمر لإبل الصدقة. وإنما زادت فزدت.*

*فقام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان: إنك ركبت بالناس نهابير من الأمر فتب إلى الله يتوبوا.*

(1) مصادر البحث: الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص52)، نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج2 ص212)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 124 - 125)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1136-1137)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 - ص 191 - 192 - 193) وتاريخ الطبري (ج3 ص393، 394، 396، 403، 404 و408) وأنساب الاشراف للبلاذري (ج5 ص160)

فرفع عثمان يديه وقال: توبوا من كل ذنب. اللهم إني أول تائب إليك.

ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا عثمان! ما بال هؤلاء النفر من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون في سبيل الله؟! وإنما هذا المال لمن غزا فيه وقاتل عليه، إلاّ من كان من هذه الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

فقال عثمان: فأستغفر الله وأتوب إليه. ثم قال: يا أهل المدينة! من كان له منكم ضرع فليلحق بضرعه، ومن كان له زرع فليلحق بزرعه، فإنا والله لا نعطي مال الله إلاّ لمن غزا في سبيله، إلاّ من كان من هذه الشيوخ من الصحابة.

قال: فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم عليه الحد (يعني الوليد بن عقبة)؟!

فقال عثمان لعلي: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد...»[1]

وأورد خليفة بن خياط في تاريخه ورود النص عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري:

«سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فقالوا: ادع بالمصحف، فدعا به.

فقالوا: افتح السابعة. وكانوا يسمون سورة يونس السابعة.

فقرأ حتى أتى هذه الآية (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) فقالوا له: قف! أرأيت ما حميت من الحمى؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري؟ قال: امضه. نزلت في كذا وكذا. أما الحمى فإن عمر حماه قبلي لإبل الصدقة فلما وليتُ زادت إبل الصدقة فزدتُ في الحمى لما زاد من إبل الصدقة. امضه.

قال فجعلوا يأخذونه بالآية فيقول: امضه، نزلت في كذا فما يريدون؟!

---

(1) وما قاله الرجل من المهاجرين والآخر من الأنصار، هو شكاوى لما يأخذه ويطالب به الثوار، وإن جاء على لسانهما حسب هذه الرواية. وهذا يعبر صاحب الإمامة والسياسة وقد جمع بين روايات من أزمان مختلفة في مجلس واحد. فإقامة الحد على الوليد بن عقبة حصلت قبل عدة سنوات من السجالات التي رافقت الهجوم على عثمان.

فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطا، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم.

ثم رجعوا راضين...»[1]

وفي بعض الأحيان كان الخليفة ينجح في الدفاع عن نفسه وتفسير بعض قراراته مثلما حصل حين أثار بعضهم قضية حرق المصاحف.

والنص التالي من تاريخ المدينة لابن شبة مثال على ذلك:

«.. عن عروة بن الزبير قال: قدم المصريون فلقوا عثمان رضي الله عنه

فقال: ما الذي تنقمون؟

قالوا: تمزيق المصاحف.

قال: إن الناس لما اختلفوا في القراءة خشي عمر رضي الله عنه الفتنة فقال: من أعرب الناس؟ فقالوا: سعيد بن العاص. قال: فمن أخطهم؟ قالوا: زيد بن ثابت. فأمر بمصحف فكتب بإعراب سعيد وخط زيد فجمع الناس ثم قرأه عليهم بالموسم فلما كان حديثا كتب إلي حذيفة: إن الرجل يلقى الرجل فيقول: قرآني أفضل من قرآنك حتى يكاد أحدهما يكفر صاحبه، فلما رأيت ذلك أمرت الناس بقراءة المصحف الذي كتبه عمر رضي الله عنه، وهو هذا المصحف، وأمرتهم بترك ما سواه وما صنع الله بكم خير مما أردتم لأنفسكم.

وما تنقمون؟

قالوا: حميت الحمى. وذكروا أهل البرادي وما يلقون من نعم الصدقة.

فقال: إن وجدتم فيه بعيرا لآل أبي العاص فهو لكم.

وما تنقمون أيضا؟

قالوا: تعطيل الحدود.

---

(1) يلاحظ أن هذه الرواية متعاطفة مع عثمان وتشير إلى قدرته على تفنيد كل التهم بنجاح حتى «رجعوا راضين»! كما تتجاهل ذكر الشروط الستة التي كتبها الثائرون على عثمان.

قال: وأي حد عطلت ؟ ! ما وجب حد على أحد إلا أقمته عليه، وأنا أستغفر الله من كل ذنب وأتوب إليه ..».

ويمكن تلخيص المطالب التي عرضها الثوار على النحو التالي[1]:

• مواضيع تتعلق بالسياسات المحلية المتبعة في الأقاليم

وقف ممارسات الولاة القمعية وظلمهم

وقف اجراءات النفي والطرد بحق أفاضلهم

عزل ولاتهم وخاصة ابن أبي السرح في مصر، واستبدالهم بأشخاص يفضلونهم

• مواضيع تتعلق بالسياسات العامة على مستوى الدولة

وقف ابتزاز ونهب بيت المال

ضرورة تطبيق العدالة في العطاء، وإنصاف الفئات المحرومة

وقف تعيين أقرباء عثمان وأبناء عائلته على الأعمال

وقف الاعتداء على صحابة ذوي فضل وسابقة ومناقبهم[2]

وهنا لا بد من التعليق والقول إن المطالب التي عرضها المتمردون تعبيرٌ حقيقيٌ عن روحية الإسلام الصافية. وبغض النظر عن مبلغ نواياهم أو مدى صدقهم فإن طروحاتهم كانت إسلامية تماماً. ولا يمكن لأحد أن يجادل في حق الرعية في وجود ولاة صالحين لإدارة الدولة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ضرورة المحافظة على المال العام. والذي يشكو منه هؤلاء المتمردون من مظالم كان حقيقياً وملموساً. وفي كل المفاوضات التي جرت مع الخليفة،

(1) يمكن مراجعة فصل الثورة في مصر، وممارسات ابن أبي السرح للوقوف على مجموعة من النصوص التي أوردناها من تاريخ الطبري وابن شبة وابن قتيبة وابن سعد المتعلقة بالتهم الموجهة إلى عثمان ومطالب المعترضين على سياسته.

(2) يروي الطبري في تاريخه من طريق الواقدي أن الثوار قالوا لعثمان وهو محاصر «إنك ضربت رجالاً من أصحاب النبي (ص) وغيرهم حين يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحق عند ما يستنكرون من أعمالك، فأقد من نفسك من ضربته وأنت له ظالم. فقال: الإمام يخطئ ويصيب فلا أقيد من نفسي...».

كان عثمان إصلاحياً في خطابه معهم ولم يكن يجادل في صوابية مطالبهم من حيث المبدأ.

فباختصار كان المتمردون يطالبون بالإصلاح، وتعديل المسيرة، والعودة إلى زمن الزهد والعدل. وكانوا باحتجاجهم القوي ذلك يعلنون أنهم لن يقبلوا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه.

ماذا كتب ابن كثير؟

قال في البداية والنهاية :

«...فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره، فردهم وأنبهم وشتمهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به؟!

ويقال إنه ناظرهم في عثمان، وسألهم ماذا ينقمون عليه، فذكروا أشياء منها أنه حمى الحمى، وأنه حرق المصاحف، وأنه أتم الصلاة وأنه ولى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر وأعطى بني أمية أكثر من الناس.

فأجاب عليٌ عن ذلك: أما الحمى فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه وقد حماه عمرٌ من قبله. وأما المصاحف فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة. وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها. وأما توليته الأحداث فلم يولِّ إلا رجلاً سوياً عدلاً، وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد بن حارثة، وطعن الناس في إمارته فقال إنه لخليق بالإمارة. وأما إيثاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر قريشاً على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها!

ويقال إنهم عتبوا عليه في عمار ومحمد بن أبي بكر، فذكر عثمان عذره في ذلك، وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما. وعتبوا عليه في إيوائه الحكم بن

أبي العاص، وقد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد نفاه إلى الطائف ثم رده، ثم نفاه إليها، قال: فقد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّه، وروي أن عثمان خطب الناس بهذا كله بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم ليشهدون له فيما فيه شهادة له. ويروى أنهم بعثوا طائفة فشهدوا خطبة عثمان هذه، فلما تمهدت الأعذار وانزاحت عللهم ولم يبق لهم شبهة، أشار جماعة من الصحابة على عثمان بتأديبهم فصفح عنهم، رضي الله عنه. وردهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتوا، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أملوا وراموا»

وهذا نصٌ عجيبٌ غريبٌ يورده ابن كثير دون ذكر مصدره (ويُقال). ومؤلف هذا النص يصرّ على أن عليّاً بن أبي طالب بالذات هو من يقوم بالدفاع عن كل سياسات الخليفة عثمان، ويفند المآخذ عليه واحداً تلو الآخر، بما في ذلك دفاعه عن تعيينات عثمان لأقربائه الشبان من بني أمية! ولم يرض مؤلف هذا النص إلاّ بالقول على لسان عليّ بالذات إن الولاة الأمويين الذين عينهم عثمان كانوا رجالاً أسوياء عادلين! وأن عثمان كان مقتدياً برسول الله (ص) في سياسته هذه لأنه «كان يؤثر قريشاً على سائر الناس»، وبالتالي فلا لوم عثمان لأنه يؤثر بني أمية على سائر الناس!

ولا داعي في الإسهاب في تفنيد هذا النص، فهو متهافتٌ ومزيفٌ بما يحول دون جدارته بنقاش جدي. فسيرة علي بن أبي طالب ومواقفه المجمع عليها، ووقائع التاريخ، تؤكد انه يستحيل أن تصدر عنه تلك المدائح في حق عثمان ورجاله من طلقاء قريش وبني أمية.

ولا يمكنني إحسان الظن بابن كثير هنا. فهو العلامة العارف، وهو المتخصص بالتاريخ وهو الاستاذ الذي لا يمكن أن يكون جاهلاً بعلاقة علي ببني امية. ولذلك أقول ان ما كتبه ابن كثير هنا دليلٌ حيث تعصبه المذهبي الصارخ، والتي أخرجه من توازنه ودفعه الى هذا المستوى الهابط من الروايات. فكرهُهُ للشيعة وحرصُهُ على تفنيد حججهم جعله يقول لهم: ان علياً كان يحب بني امية رغم أنفكما ورغم أنف الحقيقة ومسار التاريخ.

## عثمان يستجيب لوساطة علي: اتفاقٌ مكتوب

وقد دامت المرحلة الأولى من الثورة لمدة شهر، وهذه المرحلة السلمية كانت فترة طلب حسابات وعرض مطالبات، وشرح تظلمات، ومناظرات ونقاشات ومفاوضات ووساطات، انتهت في الآخر إلى موافقة عثمان على طلبات الوفود وتوصل الطرفان إلى اتفاق مكتوب.

لم يُظهر كبار الصحابة انحيازاً واضحاً إلى أحد الفريقين[1]، بل لعبوا دور الوسيط بين الخليفة والمحتجين وكانوا كفلاء للاتفاق، وأبرزهم عليّ.

وقد كان عثمان يعلم أن علياً بن أبي طالب هو الشخص الأكثر قبولاً لدى أوساط المحتجين، وأنه الذي يمكن أن يمارس نفوذه لديهم فيردعهم عن إلحاق الأذى بالخليفة. ولذلك كان عثمان يلجأ إليه، ويلحاح، لكي يخرج إليهم ويتفاهم معهم.

روى الطبري:

*فلما رأى عثمان ما رأى، جاء علياً، فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عمّ إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة، ولي حقّ عظيم عليك. وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مصبحي، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك. فأنا أحب أن تركب إليهم فتردّهم عني فإني لا أحب أن يدخلوا عليّ، فإن ذلك جرأة منهم عليّ، وليسمع بذلك غيرهم.*

*فقال: عليّ: علام أردّهم؟*

*قال: على أن أصير إلى ما أشرتَ به عليّ ورأيته لي. ولستُ أخرج من يديك.*

ويمكن قبول هذا النص الذي يعطي فيه عثمان تفويضاً مفتوحاً لعلي بالتفاهم مع الثوار بلا شروط من طرفه على أساس رغبته في التخلص من الأزمة الخطيرة التي تواجهه والتي باتت تهدده مباشرة.

---

(1) سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن مواقف الصحابة أثناء الأزمة

وبعد هذا الطلب المباشر من الخليفة، استعمل عليٌّ ثقله كله، وبذل جهده مع المتمردين من أجل التوصّل إلى تفاهم يُنهي المشكلة. ونجح عليٌّ في مسعاه.

والكثير من المصادر تذكر التوصل إلى اتفاق ولكن دون ذكر تفصيلي لشروطه، أو تذكرها مجملة أو مختصرة. ولكن النص التالي لدى ابن شبة هو أفضل ما يوضح أساس التفاهم الذي توصل إليه علي بن أبي طالب لحل الأزمة مع الثوار:

فاصطلح علي بينهم وكتبوا كتاباً اشترطوا فيه خمسةً:

أن المنفي يُقلب

وأن المحروم يُعطى

وأن الفيء يوفر

وأن يُعدل في القسم

وأن يُستعمل أولو القوة والأمانة[1]

وتحدثت رواياتٌ أخرى عن «العمل بكتاب الله وسنة نبيه» و«أن يؤمن الخائف» و«رفع المظالم» و«أن لا تجمَّر البعوث» و«كذلك «ألاَّ يأخذ أهل المدينة عطاء، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري، وكذلك وردت هذه الشروط الخمسة في تاريخ خليفة بن خياط ولكن مع إضافة في نهايتها «وأن يرد ابن عامر على البصرة وأبو موسى الأشعري على الكوفة»
وهذا السطر الأخير في رواية خليفة بن خياط لا بد وأنه أضيف فيها قسراً، فلا يمكن قبوله، فعبد الله بن عامر كان لا يزال والياً على البصرة ولم يتزح، فلا معنى للمطالبة بإرجاعه. وأما أبو موسى الأشعري فقد كان أهل الكوفة قد عينوه بالفعل عليهم بعد عزلهم لسعيد بن العاص وأقره عثمان. كما أن سياق رواية خليفة يتحدث عن الثوار المصريين بالتحديد وبالتالي فمن المستبعد أن تكون المطالبة بأبي موسى على الكوفة من أولوياتهم.
والمهم في روايتي ابن شبة وخليفة أنهما تتفقان على تحديد خمسة شروط واضحة ومحددة للاتفاق.

أصحاب رسول الله(ص)»[1] ولا تناقض في هذه الروايات. بل يجب النظر إليها بالاجمال على أنها تتكامل لترضح نوعية مطالب الثوار وموافقة الخليفة على تنفيذها.

واعترف عثمان بأخطائه وتعهد بالإقلاع عن سياسته السابقة بعد تلك السجالات الطويلة. بل وتضيف الروايات أنه قام وأعلن توبته علانيةً وعلى المنبر بعد أن طلب منه علي بن ابي طالب أن يُشهد الناس ويُشهد الله على ما في قلبه من النزوع والانابة. روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي:

«... فقام فحمد الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس!

فوالله ما عاب مَن عاب منكم شيئاً أجهله وما جئتُ شيئاً إلاّ وأنا أعرفه.

ولكني منّتني نفسي وكذّبتني، وضلّ عني رشدي.

ولقد سمعتُ رسول الله(ص) يقول: مَن زلّ فليتب، ومَن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة. إن مَن تمادى في الجور كان أبعد من الطريق.

فأنا أول مَن اتعظ. أستغفر الله مما فعلتُ. وأتوب إليه.

فمثلي نزع وتاب....

فرقّ الناس له يومئذ وبكى مَن بكى منهم»

وبدوره أخذ عثمان على المحتجين شرطاً: «ألاّ يشقوا عصاً ولا يفارقوا جماعةً، ما قام لهم بشرطهم»[2].

والصحابة كانوا الشهود والكفلاء للإتفاق.

فإذن وافق المحتجون على الاستمرار بالاعتراف بسلطة الخليفة وقبلوا وعد التغيير. ورجع المحتجون إلى أمصارهم وبدت الأزمة وكأنها انتهت.

ولا بد لنا، قبل متابعة تسلسل الاحداث، من تأمل النص الطويل التالي الذي أخرجه الطبري في تاريخه عن ابن اسحق. فهو يوضح مدى الاضطراب

---

(1) تاريخ الطبري (ج5 ص99) من رواية يعقوب بن ابراهيم
(2) المصدر السابق

الذي كان سائداً في المدينة أثناء فترة المفاوضات والوساطات. والرواية يظهر منها عودة مفاجئة للثوار المصريين إلى الخليفة بعد عقد الاتفاقيات ثم إبرامها بتوسط من علي الذي كان عثمان يطالبه مرة بعد أخرى بالمساعدة في ردّ الثوار. تبدأ الرواية بالقول إن أهل مصر:

فكتبوا إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فالله الله ثم الله الله! فإنك على دنيا فاستتم معها آخرة ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا. واعلم أنا والله لله نغضب وفي الله نرضى. وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة مبلجة. فهذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام.

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله.

فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه أمداد.

فقال: إن القوم لن يقبلوا التعليل وهي محملي عهداً. وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان، فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به.

فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب. فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنما هم بغوا عليك فلا عهد لهم.

فأرسل إلى علي فدعاه. فلما جاءه قال: يا أبا حسن إنه قد كان من الناس ما قد رأيتَ، وكان مني ما قد علمتَ، ولستُ آمنهم على قتلي فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي

فقال له علي: إن الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك. وإني لأرى قوماً لا يرضون إلاّ بالرضى. وقد كنتُ أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا. فرددتهم عنك. ثم لم تفِ لهم بشيء من ذلك. فلا تغرني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق.

قال: نعم! فأعطهم فوالله لأفينّ لهم!

فخرج علي إلى الناس فقال: أيها الناس! إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه. إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجعٌ عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه ووكدوا عليه

قال الناس: قد قبلنا فاستوثق منه لنا، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل

فقال لهم: علي ذلك لكم

ثم دخل عليه فأخبره الخبر فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد

قال له علي: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب أجله وصول أمرك

قال: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام.

قال علي: نعم. فخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك. وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن: يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه.

ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار. فكفَّ المسلمون عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه

## الفصل الثاني: انهيار الاتفاق وحصار عثمان[1]

### تراجع عثمان

لم يصمد الاتفاق طويلاً ولم يأخذ طريقه إلى حيز التنفيذ.

وتجمع الروايات أن مروان بن الحكم كان سبب ذلك، وأنه استغل موقعه من الخليفة ليفسد كل التفاهمات التي توصل لها علي والصحابة مع الثوار وعثمان.

فمروان، بعد أن بدا له أن الخطر المباشر قد زال برجوع الثوار، بدأ في تنفيذ سياسة انتقامية كان يراها ضرورية من أجل الحفاظ على استقرار الحكم الأموي، فهو لا يرضى بأن يمرّ هذا الأمر مرور الكرام. فهؤلاء تمرّدوا على الخليفة ولا بدّ أن يعاقبوا، إن لم يكن في المدينة على يد عثمان، ففي غيرها من الأمصار وعلى يد غيره من الحكام. فبنظر مروان، إن تركَ هؤلاء بلا عقاب، فسوف تزيد جرأتهم وسوف يرفعون من سقف مطالباتهم في قادم الأيام وسوف يجرؤ غيرهم.

كما أن مروان كان يعرف أن نجاح وساطة الصحابة، وعليّ بالذات، بين

---

(1) مصادر البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص212)، تاريخ الطبري (ج3 ص391 + ص397 + ص399 + ص401-404 + ص408)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1090 + ص1155)، الإمامة والسياسة (ج1 ص34)، الثقات لابن حبان (ج2 ص250)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص158-159)، الإصابة لابن حجر (ج4 ص379)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص180)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص65)، تاريخ خليفة بن خياط (ص130)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص382) والبداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص202 وص193).

الخليفة والمتمردين، سيكون شؤماً عليه. وقد ذكرنا كيف كان عليّ يلح على عثمان ويضغط عليه باستمرار لكي يتخلّص من أقربائه من بني أمية الذين اتخذهم بطانة فاستغلّوا سلطانه وسيطروا على مفاصل الحكم. ومروان، مستشاره المقرّب والمؤتمن كان على رأس هؤلاء. وقد قال عليٌّ لعثمان مرة:

«... فلا تكوننّ لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضّي العمر...»[1]

ومروان كان يدرك أن أي تفاهم بين الخليفة والثائرين سيكون حتماً على حسابه هو بالذات، وأضرابه من بني أمية. ولا يمكن لمروان أن يسمح بذلك. فالخلافة، بنظره، مُلكٌ لبني أمية، وهو ليس لديه استعداد لأن «يفقده»!

وبدأ مروان العمل[2].

فكانت الخطوة الأولى بنظره هي نزع الشرعية عن الثوار ومطالبهم. وذلك يتم عن طريق الإعلان أن كل ما أثاروه من قضايا هو باطل وغير صحيح! وبالتالي إنكار أن الخليفة قدم تنازلات أو أقر بأخطائه.

ونجح مروان في إقناع عثمان بأن يقوم على الملأ ليعلن ذلك. يروي الطبري في تاريخه من طريق الواقدي: «... حتى إذا كان الغد جاءه مروان فقال له: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً. فإن خطبتك تسير في البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم فيأتيك من لا تستطيع دفعه

فأبى عثمان أن يخرج. فلم يزل به مروان حتى خرج فجلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمرٌ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم.»

---

(1) نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج2 ص82).
(2) روايات الواقدي لدى الطبري هي الأكثر تفصيلاً فيما يتعلق بتراجعات عثمان ودور مروان في ذلك.

وفي رواية أخرى للواقدي لدى الطبري:

«... قال مروان: بأبي أنت وأمي! والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل! والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها! وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة. وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس.

فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلمهم فإني أستحيي أن أكلمهم.

قال فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا فقال: ما شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه! كل إنسان آخذ بأذن صاحبه ألا من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا»[1]

ومن الطبيعي أن تؤدي خطبة مروان هذه إلى إستثارة غضب علي الشديد. وكيف لا وهو يرى جهده يضيع سدى، تتابع الرواية فرجع الناس وخرج بعضهم حتى أتى عليا فأخبره الخبر،

فجاء علي عليه السلام مغضبا حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به؟! والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه. وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك. أذهبت شرفك وغلبت على أمرك»[2]

---

(1) ذكرها أيضا ابن كثير في البداية والنهاية

(2) وأما رواية أبي مخنف لدى البلاذري (أنساب الأشراف) فذكر أنه بعد خطبة عثمان بالرقة التي اعتذر فيها واستغفر «... كثر الناس عليه واجتمعوا إلى بابه ينتظرون بما كان منه، فخرج إليهم مروان فزبرهم وقال: شاهت وجوهكم! ما اجتماعكم؟ أمير المؤمنين مشغول عنكم، فإن احتاج إلى أحد منكم فسيدعوه فانصرفوا. وبلغ عليا الخبر فأتى عثمان وهو مغضب فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بإفساد دينك

ويروي الطبري في تاريخه عن الواقدي أن علياً قد غضب كثيراً على عثمان بسبب تراجعاته المتكررة عن الاتفاقات التي يبرمها هو مع الثوار، ونكوصه عن تعهداته بسبب تأثير مروان بن الحكم، حتى قال علي «إني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله (ص)» وقرر علي أن يوقف تدخلاته ووساطته وقال لما جاءه رسول عثمان يدعوه فقال علي بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد. ولكن لما تعرض عثمان إلى الاعتداء وهو على المنبر وسقط مغشياً عليه ذهب علي يزوره «فدخل علي بن أبي طالب على عثمان رضي الله عنهما وهو مغشي عليه وبنو أمية حوله.

فقال: مالك يا أمير المؤمنين؟

فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا: يا علي أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين. أما والله لئن بلغت الذي تريد لتمرّن عليك الدنيا.

فقام عليٌّ مغضباً»[1]

## الكتاب المزوّر وبدء حصار عثمان

ولم يكتف مروان بن الحكم بالضغط على عثمان للتراجع عن اتفاقاته مع المتمردين، مما أضرّ جداً بمصداقية الخليفة أمام الناس، بل انتقل إلى ما هو أهم وأخطر. أصدر مروان أوامره مستغلاً ضعف عثمان وثقته به، إلى ابن أبي السرح في مصر بقتل هؤلاء الثوار حالما يصلون أرض مصر، أصدر الأمر باسم عثمان، وطبع الكتاب بخاتم الخليفة وأرسله على وجه السرعة مع غلام إلى مصر ليسبق الوفد المصري العائد. وكانت النتيجة أن ضُبط الغلام والكتاب. فكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير.

---

وصحبتك من مقالك؟ وإني أراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك»

[1] سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن موقف علي من مقتل عثمان

وتكاد تجمع المصادر على مسؤولية مروان عن ذلك الكتاب المزور.

وفيما يلي نص طويل من تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلا عن الزهري عن سعيد بن المسيب، وفيه انه لما قدم أهل مصر يشكون واليهم وبعد تدخل كبار الصحابة طالبين من عثمان انصافهم

«... فقال لهم: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه. فأشار الناس عليهم بمحمد بن أبي بكر فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر.

فكتب عهده وولاه وخرج معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وبين ابن أبي سرح.

فخرج محمد ومن كان معه، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط خبطا كأنه رجل يَطلب أو يُطلب.

فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شأنك؟ كأنك هاربٌ أو طالب.

فقال: انا غلام أمير المؤمنين، وجهني إلى عامل مصر.

قال له رجل: هذا عامل مصر معنا.

قال: ليس هذا أريد.

وأخبروا بأمره محمد بن أبي بكر، فبعث في طلبه رجالاً فأخذوه فجاؤوا به إليه.

فقال له: يا غلام من أنت؟

فأقبل مرة يقول غلام أمير المؤمنين ومرة يقول غلام مروان، حتى عرفه رجل أنه لعثمان.

فقال له محمد: إلى من أرسلت؟

قال: إلى عامل مصر.

قال: بماذا؟

قال: برسالة.

قال: أمعك كتاب؟

قال: لا.

ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً. وكانت معه إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح.

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك، واحبس من يجيء إلي يتظلم منك ليأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى.

قال: فلما قرأوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ودفع الكتاب إلى رجل منهم وقدموا المدينة.

فجمعوا طلحة والزبير وعلياً وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام وأقرأوهم الكتاب، فلم يبق أحدٌ من أهل المدينة إلاّ حنق على عثمان. وزاد ذلك من كان غضب لابن مسعود وأبي ذر وعمار حنقاً وغيظاً.

وقام أصحاب محمد فلحقوا بمنازلهم.

وحاصر الناس عثمان وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيره وأعانه على ذلك طلحة بن عبيد الله، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرصه كثيراً.

فلما رأى ذلك علي، بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب النبي كلهم بدري، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والبعير والغلام.

فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟

قال: نعم.

قال: والبعير بعيرك؟

قال: نعم.

قال: وأنت كتبت هذا الكتاب؟

قال: لا، وحلف بالله: ما كتبتُ هذا الكتاب ولا أمرتُ به ولا وجهتُ هذا الغلام إلى مصر.

فأما الخط فعرفوا أنه خط مروان. وشكوا في أمر عثمان رضي الله عنه، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى -وكان مروان عنده في الدار- فخرج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من عنده غضاباً وشكوا في أمره. وعلموا أنه لا يحلف بباطل.

إلاّ أن قوماً قالوا: لا يبرأ عثمان من قلوبنا إلاّ أن يدفع إلينا مروان حتى نبحثه، ونعرف حال الكتاب. فكيف يُؤمَر بقتل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق؟! فإن يكن عثمان كتبه عزلناه وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان، نظرنا ما يكون منا في أمر مروان.

ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل. وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء»[1]

وأما في تاريخ اليعقوبي فتبدو الرواية مبتسرة وفيها بعض الاختلاف. فهو يبتدئ بالقول: فقدم عليه أهل البلدان فتكلموا. وبلغ عثمان أن أهل مصر قدموا عليهم السلاح. فوجّه إليهم عمرو بن العاص وكلمهم؟ وبعد أن ذكر عمرو كلاماً مدح فيه النبي (ص) وخليفتيه قال للمصريين ثم ولي عثمان، فقلتم، وقلتم تلومونه ويعذر من نفسه، أفليس ذلك كذلك؟ قالوا: بلى. قال: فاصبروا له، فإن الصغير يكبر والهزيل يسمن، ولعل تأخير أمر خير من تقديمه.

ثم نزل.

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. ونص هذا النص بالحرف تقريبا جاء في الإمامة والسياسة بإسناده الجمعي (ذكروا). وكذلك روى ابن حبان في كتاب الثقات. وأيضاً روى السيوطي في تاريخ الخلفاء نص رواية الزهري هذه عن سعيد بن المسيب بالحرف تقريباً نقلاً عن ابن عساكر. وروى ابن حجر العسقلاني في الإصابة نص القصة باختصار.

فدخل أهل عثمان عليه فقالوا له: هل عابك أحدٌ بمثل ما عابك به عمرو؟

فلما دخل عليه عمرو قال: يا ابن النابغة! والله ما زدتَ أن حرّضتَ الناس عليّ!

قال: والله لقد قلتُ فيك أحسن ما علمتُ. ولقد ركبتَ من الناس، وركبوها منك، فاعتزل إن لم تعتدل!

فقال: يا ابن النابغة! قَمِلَ درعك[1] مذ عزلتك من مصر!»

ثم انصرف عن سار الركبُ الذين قدموا من مصر، فلما صاروا في بعض الطريق إذا براكب على جمل، فأنكروه ففتشوه، فوجدوا معه صحيفة من عثمان إلى خليفته عبد الله بن سعد: إذا قدم عليك النفر فاقطع أيديهم وأرجلهم.

فقدموا واتفقوا على الخروج. وكان من يأخذون عنه محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وكنانة بن بشر، وابن عديس البلوي. فرجعوا إلى المدينة»

وأما رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد كانت عن جابر بن عبد الله «أن المصريين لما أقبلوا من مصر يريدون عثمان ونزلوا بذي خشب، دعا عثمان محمد بن مسلمة فقال: اذهب إليهم فارددهم عني وأعطهم الرضى وأخبرهم أني فاعل بالأمور التي طلبوا، ونازع عن كذا بالأمور التي تكلموا فيها.

فركب محمد بن مسلمة إليهم إلى ذي خشب. قال جابر: وأرسل معه عثمان خمسين راكبا من الأنصار أنا فيهم.

وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وابن البياع، وعمرو بن الحمق الخزاعي (لقد كان الاسم غلب حتى يقال: جيش عمرو بن الحمق)

---

(1) ورغم أنه لا يمكن استبعاد احتمالية أن يكون عمرو بن العاص قد حرّض لكثير المصريين، نظراً لخبرته في الشؤون المصرية، إلا أنه يبدو ظاهراً حرص اليعقوبي الكبير على إبراز العبارات الحادة والنفسية المتبادلة بين عثمان وعمرو.

فأتاهم محمد بن مسلمة فقال: إن أمير المؤمنين يقول كذا ويقول كذا، وأخبرهم بقوله فلم يزل بهم حتى رجعوا.

فلما كانوا بالبويب رأوا جملاً عليه ميسم الصدقة فأخذوه فإذا غلام لعثمان فأخذوا متاعه ففتشوه فوجدوا فيه قصبة من رصاص فيها كتاب في جوف الإداوة في الماء، إلى عبد الله بن سعد: أن افعل بفلان كذا وبفلان كذا، من القوم الذين شرعوا في عثمان

فرجع القوم ثانية حتى نزلوا بذي خشب. فأرسل عثمان إلى محمد بن مسلمة فقال: اخرج فارددهم عني. فقال: لا أفعل.

فقدموا فحصروا عثمان»

ويلاحظ أن هذه الرواية في مجملها تتفق مع تلك المفصلة لابن شبة، ولكنها تختلف بعدم ذكر علي بن أبي طالب ولا غيره من الصحابة الذين تفاوضوا مع الثوار باستثناء محمد بن مسلمة، كما أنها لا تذكر مروان بن الحكم ولا اتهامه بتزوير الكتاب. وهي أيضاً تخلو من ذكر محمد بن أبي بكر ودوره في قيادة المتمردين المصريين.

وقد روى خليفة بن خياط في تاريخه عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري أنه بعد أن رجع الوفد المصري:

«بينا هم بالطريق إذا راكب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم،

فقالوا: مالك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر. ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامل مصر أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم،

فأقبلوا حتى قدموا المدينة فأتوا علياً فقالوا: ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وإن الله قد أحل دمه، قم معنا إليه.

قال: والله لا أقوم معكم

قالوا: فلم كتبتَ إلينا؟

قال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً.

فنظر بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة.

فانطلقوا إلى عثمان فقالوا: كتبت إلينا بكذا وكذا.

قال: إنهما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أمللتُ ولا علمتُ، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم.

قالوا: قد أحل الله دمك، ونقض العهد والميثاق وحصروه في القصر رضي الله عنه»

وهذه الرواية في مجملها تتفق مع تلك المفصلة لابن شبة، ولكنها تذكر علي بن أبي طالب وليس محمد بن مسلمة كمفاوض، كما أنها لا تذكر مروان بن الحكم ولا اتهامه بتزوير الكتاب. وهي أيضاً تخلو من ذكر محمد بن أبي بكر ودوره في قيادة المتمردين المصريين. كما أن فيها إشارة إلى كتاب غامض يحرض على عثمان وصل إلى الثوار من علي، ونفي علي لذلك.

ولا تختلف رواية ابن إسحق التي أخرجها الطبري في تاريخه في إطارها العام عما سبق من روايات:

«...فأرسلوا إلى عثمان: ألم نفارقك على أنك زعمتَ أنك تائب من أحداثك وراجعٌ عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه؟

قال: بلى. أنا على ذلك.

قال: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبتَ به إلى عاملك؟

قال: ما فعلتُ ولا لي علم بما تقولون

قالوا: بريدك على جملك وكاتبك كتب عليه خاتمك

قال: أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط وأما الخاتم فانتقش عليه

قالوا: إنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك. اعزل عنا عمالك الفساق، واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا.

قال عثمان: ما أراني إذن في شيء إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم، إذن الأمر أمركم!

قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أو دع.

فأبى عليهم وقال: لم أكن لأخلع سربالاً سربلنيه الله.

فحصروه أربعين ليلة، وطلحة يصلي بالناس»

وفي رواية الواقدي لدى الطبري أنه لما أنبأهم عثمان بأنه لا يدري من الذي كتب الكتاب باسمه، لم يقتنعوا بذلك فقالوا له:

«فيجترأ عليك، فيبعث غلامك، وجمل من صدقات المسلمين، وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟!

قال نعم.

قالوا: فليس مثلك يلي، اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه

قال لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل»

وهكذا فإنه بعد أن يئس الناسُ تماماً من وعود الخليفة لم يعد هناك سوى واحد من احتمالين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتجنب القتل: إما أن يعتزل الخليفة نفسه، أو يسلّم مروان بن الحكم. وهذان كانا المطلبين الأخيرين للثوار ولم يكن ممكناً التنازل فيهما. كان واضحاً أن أهل المدينة – والأنصار خصوصاً – قرروا التخلّي عن الخليفة. لقد تملّك الناس شعورٌ من اليأس من إمكانية إصلاح سياسة عثمان. كان هناك شعور جمعيّ بأن الخليفة لا يعدو كونه ألعوبة بأيدي بني أمية الذين يسيّرون كل شيء في الدولة، وأن نجاح محاولات التغيير يعتمد على مدى استعداد الخليفة للاستغناء عن بطانته الفاسدة. ولم يكن عثمان ليوافق على التخلي عن

أقربائه الأمويين لعدة أسباب: فهو أولاً يحبهم من ناحية فطرية، وحتى حين كان بمكة مع الرسول(ص) وبعدها في المدينة، لم تتدهور علاقته مع قومه وبقي الود موجوداً حتى في ذروة فترات الصراع النبوي مع قريش بقيادة بني أمية. وكذلك فإن عثمان بسياسته المتحيزة لعائلته قد أغضب عليه كبار الصحابة الذين كانوا يرون أنه قد مال عن سياسة أبي بكر وعمر والتي كانت قائمة على أسس قرشية عامة، وانحرف بها لتصبح سياسة عائلية أموية محضة. وبما أن عموم الأنصار وبني هاشم هم في المعسكر المعارض لسياسة الخليفة، فإن عثمان في حقيقة الأمر لم يكن يملك عملياً خيار الاستغناء عن عائلته الأموية. فبدون عائلته، على ماذا يتكئ عثمان في حكمه؟

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة ثلاث روايات فيها اتهام صريح من عثمان لعلي بأنه وراء ذلك الكتاب المختوم باسمه! وهذا إن صح يعكس مدى الانحدار في مستوى علاقتهما وطغيان الشك وسوء الظن بينهما: فقال له علي رضي الله عنه: *أتتهم أحداً من أهل بيتك؟ قال: نعم. قال: من تتهم؟ قال: أنت أول من أتهم!*

*فغضب علي رضي الله عنه فقام وقال: والله لا أعينك ولا أعين عليك حتى ألتقي أنا وأنت عند رب العالمين!*

وفي الرواية الثانية ان عثمان قال لعلي *فلتكن كالتي فعمر أو أعلك به يا علي!*

*قال علي: فلم تقتلني؟*

*قال: لأنك مطاع في القوم ولم يردهم عني!*

ويبدو أن هذا الموقف كان نهاية محاولات علي للتوسط بين عثمان والمعارضين. فبعد هذا الاتهام الصريح له بالتآمر عليه، كيف يمكن لعلي أن يستمر في مساعيه؟!

وروى ابن شبة أيضاً عن الشعبي أن أهل مصر لما عادوا وحصروا عثمان

وهو على المنبر، وجه اتهاماً صريحاً للإمام علي فقال عثمان رضي الله عنه: يا علي! قد نصبت القدر على أثافي[1].

ورغم أن الباحث يميل إلى عدم ترجيح أن يكون عثمان قد وجه مثل ذلك الاتهام المباشر لعلي بأنه كان وراء ذلك الكتاب المزور، إلا أنه لا يمكن استبعاد ذلك تماماً، خصوصاً بالنظر إلى خلفية العلاقة الطويلة من الشقاق بين الرجلين، وأخذاً بعين الاعتبار الوضع الحرج والظرف الصعب الذي كان عثمان يمر به مما قد يفقده أعصابه وتوازنه.

وهكذا بدأ الحصار الأخير للخليفة عثمان في بيته. ولا يعرف على وجه الدقة كم دام ذلك، ولكنه كان طويلاً جداً حسب كل الروايات. وبالاضافة إلى قول ابن إسحق أنه كان 40 ليلة، ذكر ابن الأثير في أسد الغابة «قال الواقدي: حصروه 49 يوماً. وقال الزبير: حصروه شهرين وعشرين يوماً».

## تأييد ابن كثير لمروان وعثمان

أعلن ابن كثير في البداية والنهاية معارضته لقيام مروان بن الحكم بتزوير ذلك الكتاب على لسان الخليفة وإرساله إلى عامل مصر دون علمه أو إذنه ولانه على ذلك. ولكنه في ذات الوقت دافع عنه وأوجد تبريراً لتصرفه: الاجتهاد والتأويل! فقال:

«إن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر فيه الأمر بقتل بعضهم وصلب بعضهم وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولاً قول تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم) –المائدة 33–

وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

---

(1) والأثافي جمع أثفية، وهي حجر من ثلاثة توضع عليها القدر. يريد أن علياً دبّر كل ذلك.

من جملة المفسدين في الأرض -ولا شك أنهم كذلك- لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه ويزور على خطه وخاتمه ويبعث غلامه على بعيره بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين...»

ثم دافع ابن كثير عن عثمان فقال إن المهاجمين لما قالوا له إن كنت قد كتبته فقد خنت، وإن لم تكن قد كتبته بل كُتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزت. ومثلك لا يصلح للخلافة: إما لخيانتك وإما لعجزك؛ لم يكن لهم الحق في ذلك «وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير: فإنه لو فرض أنه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضره ذلك، لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام، وأما إذا لم يكن قد علم به فأي عجز ينسب إليه إذا لم يكن قد اطلع عليه وزور على لسانه؟

وليس هو بمعصوم بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضي الله عنه. وإنما هؤلاء الجهلة البغاة متعنتون حسدة ظلمة مفترون»

## حديث نبوي بأثر رجعي: لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله[1]

ومن المفيد هنا ملاحظة كيفية تطور قول لواحد من الصحابة، صدر عنه في موقف معين، وفي أثناء ظرف محدد إلى حديث منسوب إلى الرسول (ص). فالذي يجري هنا هو لجوء أطراف منخرطة في الصراع إلى استدعاء رسول الله (ص)، قسراً، لدعم مواقفها في الفتنة.

فأمام مطالبات الثوار له بأن يخلعَ نفسه من الحكم، لأنه غير صالح لأن يكون خليفة ولأنهم عجزوا عن التوصُّل إلى حلٍ مقبول معه، أعلن عثمانُ موقفه النهائي، وهو أن الخلافة منحةٌ إلهيةٌ له ولن يتنازل عنها أبداً وأطلق قوله المشهور «لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل»[2]

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ خليفة بن خياط (ص[illegible])، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج[illegible] ص[illegible])، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج[illegible] ص[illegible])، سنن ابن ماجه (ج١ ص[illegible])، سنن الترمذي (ج[illegible] ص[illegible])، صحيح ابن حبان (ج١٥ ص[illegible])، أنساب الأشراف للبلاذري (ج[illegible] ص[illegible] + [illegible])، تاريخ الطبري (ج[illegible] ص[illegible])

(2) تاريخ الطبري (ج[illegible] ص[illegible])

قلنا: كيف طُرِّز كلامه؟

فقد روى خليفة بن خياط في تاريخه، عن أم يوسف بنت ماهك عن أمها قالت: دخلتُ على عثمان وهو محصور، وفي حجره المصحف، وهم يقولون: اعتزلنا! وهو يقول: لا أخلع سربالاً سربلنيه الله.

وهناك رواية أخرى لدى خليفة تفيد بأن صاحب فكرة القميص الإلهي هو عبد الله بن عمر. فعن نافع قال: دخل ابن عمر على عثمان وعنده المغيرة بن الأخنس فقال: انظر ما يقول هؤلاء يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك!

فقال ابن عمر: إذا خلعتها أمخلّدٌ أنت في الدنيا؟

قال: لا.

قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟

قال: لا

قال: فهل يملكون لك جنة أو ناراً؟

قال: لا

قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمصكه الله فتكون سنة: كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه"(1).

وهاتان الروايتان عن أم يوسف بنت ماهك ونافع أخرجهما ابن سعد في الطبقات الكبرى مع اختلاف يسير: ففي الأولى قول عثمان: لا أنزع سربالاً سربلنيه الله، ولكن أنزع عما تكرهون، وفي الثانية قول ابن عمر: لا أرى أن تسنّ هذه السنة في الإسلام: كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه. لا تخلع قميصاً قمصكه الله.

وكذلك لدى البلاذري (أنساب الأشراف).

فعن أبي مخنف أن المصريين لما حاصروه قالوا له: «... ما ملك بأمور المسلمين، فانخلع من الخلافة!

فقال: ما كنت لأنزع قميصاً قمصنيه الله -أو قال سربلنيه الله-.

وعن نافع عن ابن عمر: قال عثمان وهو محصور: ما تقول فيما أشار به عليّ المغيرة بن الأخنس؟

---

(1) وربما يكون الأصح أن الكلمة الأخيرة هي «خلعوه» وليس «قتلوه».

قلت: وما هو؟

قال: ان هؤلاء القوم يريدون خلعك، فإن خلعت وإلاّ قتلوك! فدع أمرهم اليهم.

قلت: أرأيت ان لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟

قال: لا

قلت: فلا أرى أن تسن هذه السنة في الاسلام، فكلما سخط قوم اميرهم خلعوه. لا تخلع قميصاً قمصكه الله»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة «حدثنا أحمد بن معاوية قال: حدثنا اسماعيل بن مجالد عن الشعبي أن عثمان رضي الله عنه لما حصر أتاه طلبوا اليه أن يخلع نفسه فأبى وقال: لا أخلع سربالاً سربلنيه الله، ولا أخلع قميصاً كسانيه الله.

فقالوا: ان الله سربلك أمة محمد جميعاً، تسلط على أموالهم وتستعمل أسرتك وأقرباءك. عليك التوبة من هذا القول لأن هذا ليس بميراث عن ابيك، ولا عهد من رسول الله (ص) ...»

وهذه العبارة الصادرة عن عثمان، بصيغها المختلفة سواء (لا انزع قميصاً) أو (لا اخلع سربالاً)، مشهورة ومتواترة في جميع كتب التاريخ، وهي تنسجم مع وقائع الأحداث ومع فلسفة الخليفة ونظرته للخلافة كمنحة له من الله. وليس هناك ما يدعو الى الشك في صدورها منه.

ورغم ان الروايات لا تشير الى أن عثمان نفسه قد نسب هذه العبارة الى رسول الله (ص)، ولا ادّعى انها وصية نبوية قديمة؛ إلاّ أن النعمان بن بشير، وهو رجل معاوية المخلص، قد أصرّ على ان عبارة عثمان انما هي عهدٌ قديمٌ له من النبي (ص) ذاته، وليست من لدن الخليفة!

ورد في سنن ابن ماجه عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت: «قال رسول الله (ص): يا عثمان، إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله، فلا تخلعه. يقول ذلك ثلاث مرات.

قال النعمان: فقلت لعائشة: ما منعك أن تعلمي الناس بهذا؟ قالت: أُنسيته»

وورد في سنن الترمذي عن النعمان بن بشير عن عائشة ان رسول الله (ص) قال يا عثمان: انه لعل الله يقمصك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم؟

وجاء في صحيح ابن حبان عن النعمان بن بشير قال انه أرسله معاوية بن ابي سفيان بكتاب الى عائشة، فدفعه اليها. فقالت: ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله؟

قلت: بلى

قالت: اني عنده ذات يوم أنا وحفصة فقال رسول الله(ص): لو كان عندنا رجل يحدثنا.

فقلتُ: يا رسول الله أبعثُ الى أبي بكر يجيء فيحدثنا؟ قالت: فسكتَ.

فقالت حفصة: يا رسول الله أبعث الى عمر فيجيء فيحدثنا؟ قالت: فسكت (ص)

فدعا رجلاً فأسر اليه بشيء دوننا.

فذهب فجاء عثمان فأقبل عليه بوجهه. فسمعته (ص) يقول: يا عثمان إن الله لعله يقمصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه. ثلاثاً.

قلتُ: يا أم المؤمنين فأين كنت عن هذا الحديث؟

قالت: يا بني أُنسيته. كأني لم أسمعه قط»

فهكذا حسب «حديث» النعمان هنا، فإنه كان يقوم بدور المرسال بين خصمي «الامام علي» معاوية وعائشة، وأنه أثناء قيامه بمهمته تلك فاجئت ام المؤمنين عائشة فيتذكرها بحديث نبوي كانت قد «نسيته»!

ولا تخفى على اللبيب مقاصد النعمان من ترويج هذا «الحديث»: فالدفاع عن عثمان، وتبرير مواقفه أثناء الفتنة، سيؤدي بالتأكيد الى نيل رضا سيده معاوية، ونيل الحظوة عنده. وهو ما كان، فعينه معاوية واليا على الكوفة مكافأة له على ذلك «الحديث» النبوي المفصل على مقاس عثمان، وعلى أدوار، الأخرى.

## الفصل الثالث: مواقف من الهجوم على عثمان

### اقتلوا نعثلاً[1]

تميل الكثير من المصادر إلى توجيه اللوم إلى أم المؤمنين عائشة وتحميلها مسؤولية التحريض على قتل الخليفة عثمان والتأليب عليه، وهنا بعض الأمثلة على ذلك:

روى اليعقوبي في تاريخه «وكان بين عثمان وعائشة منافرة، وذلك أنه نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله. ونادت: يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل، وقد أبلى عثمان سنته» وأضاف أنه أثناء حصار عثمان في داره «وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة» ثم قال «وصار مروان إلى عائشة فقال: يا أم المؤمنين! لو قمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس؟

قالت: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج.

قال: فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين.

قالت: لعلك ترى أني في شك من صاحبك؟ أما والله لوددت أنه مقطع في غرارة من غرائري، وأني أطيق حمله، فأطرحه في البحر»

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد «لما أرادت عائشة الحج

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص[illegible])، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 ص 421-422)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص147)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي (ج1 ص239)، الإيضاح للفضل بن شاذان (ص257-261).

وعثمان محصور. فأتاها مروان وزيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص فقالوا: يا أم المؤمنين لو أقمت ! فإن أمير المؤمنين كما ترين محصور، ومقامك مما يدفع الله به عنه.

فقالت: قد حلبتُ ظهري وعريتُ غرائري ولستُ أقدر على المقام

فأعادوا عليها الكلام وأعادت عليهم مثلما قالت لهم. فقام مروان وهو يقول:

حرّق قيس عليّ البلاد حتى إذا اضطرمت أجذما

فقالت عائشة: أيها المتمثل عليّ بالأشعار، وددتُ والله أنك وصاحبك هذا الذي يعنيك أمره في رجل كل واحد منكما رحى، وأنكما في البحر! وخرجت إلى مكة»

وورد في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي:

«خروج عائشة إلى الحج لما حوصر عثمان وأشرف على القتل ومقالها فيه:

قال: وعزمت عائشة على الحج، وكان بينها وبين عثمان قبل ذلك كلام، وذلك أنه أخر عنها بعض أرزاقها إلى وقت من الأوقات فغضبت، ثم قالت: يا عثمان! أكلت أمانتك وضيعت رعيتك وسلطت عليهم الأشرار من أهل بيتك، لا سقاك الله الماء من فوقك وحرمك البركة من تحتك ! أما والله لولا الصلوات الخمس لمشى إليك قوم ذو ثياب وبصائر يذبحونك كما يذبح الجمل.

فقال لها عثمان: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

قال: وكانت عائشة تحرض على قتل عثمان جهدها وطاقتها وتقول: أيها الناس ! هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وبليت سنته، اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا!

قال: فلما نظرت عائشة إلى ما قد نزل بعثمان من إحصار القوم له تربصت، واحالتها وعزمت على الحج، فقال لها مروان بن الحكم: يا أم المؤمنين! لو أنك أقمت لكان أعظم لأجرك، فإن هذا الرجل قد حوصر فعسى الله تبارك وتعالى أن يدفع بك عنه!

فقالت: الآن تقول هذا وقد أوجبت الحج على نفسي، لا والله لا أقمت.

وجعل مروان يتمثل بهذا البيت: فحرم قيس على البلاد حتى ■ إذا اضطرمت يوم به أحجما.

فقالت عائشة: قد فهمت ما قلت يا مروان!

فقال مروان: قد تبينت ما في نفسك.

فقالت: هو ذاك.

ثم إنها خرجت تريد مكة، فلقيها ابن عباس فقالت له: يا بن عباس، إنك قد أوتيت عقلا وبيانا فإياك أن ترد الناس عن قتل هذا الطاغي عثمان! فإني أعلم أنه سيشأم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر.

ثم إنها مضت إلى مكة وتركت عثمان على ما هو فيه من ذلك الحصار والشدة

ومثل هذه الروايات لا بد من تجاهلها واعتبارها خارجة عن السياق المرجح للأحداث: فالسبب الذي تستند إليه في غضب عائشة هو تقاعس عثمان عن أداء حقوقها المالية وقيامه بالانتقاص من عطائها الذي كان في زمان عمر. وهذا مستبعد تماما لأن عثمان كان يتصف بالسخاء في المنح والعطاء، وخصوصا لكبار الصحابة ولقريش عموما. وما هو مشهورٌ ومسلّمٌ به أن عمر كان ممسكا بحلاقيم قريش، بينما جاء عثمان ليريحها من أسلوب عمر الشديد ويفتح لها آفاق الإثراء. فلا يصح أن عثمان ينقص من عطاء لعمر، بل العكس هو الصحيح. وهذا عن شخصية عثمان المتسامحة فيما يتعلق بالأموال فإن فوائد الفتوحات العظمى التي حصلت في زمن عمر قد ظهرت وتجلت في عهد عثمان الذي تدفقت فيه الأموال والغنائم الهائلة مما أدى

بالضرورة الى تضاعف العطاءات لعموم الناس، ولقريش وكبار الصحابة خصوصاً.

كما أن خروج عائشة من المدينة الى مكة في ذلك الوقت المضطرب لا يعني بالضرورة أنها كانت غاضبة من الخليفة، بل العكس هو الأرجح. فهي كانت ستاما من الهجوم الذي تعرضت له المدينة من قبل من تصفهم ب «الأعراب ونزاع القبائل» والذي رأت فيه تطاولا على مقام الخليفة وجرأة على سلطة قريش. وهذا ظاهر تماما في سيرتها ومواقفها وكلامها في مكة والبصرة. فخروجها كان بسبب عجزها عن التأثير على مجريات الأحداث ولو كانت تدعو الى قتل «نعثل» لبقيت بين الثوار المسيطرين في المدينة.

كما أن اللغة المستخدمة على لسان عائشة: وصفه بنعثل، وتمنيها أنه يطرح في قعر البحر ودعوتها الى قتل الطاغية ... وما شابه ذلك مستبعدة تماما، ولم تكن مما يجري في أوساط كبار الصحابة وأمهات المؤمنين.

والمصادر الشيعية فيها نفس هذه الروايات، ولكن مع المزيد من التعابير القاسية التي تقترب من الشتائم:

ومن ذلك ما ذكره الشيخ المفيد في كتاب الجمل أن عائشة كانت على خلاف شديد مع عثمان، وكانت تستخدم معه أقسى العبارات ومنها أنها قالت له مرة «هذا قميص رسول الله لم يتغير وقد غيرت سنته يا نعثل» ومرة أخرى «يا عدو يا نعثل أخفرت أمانتك وضيعت رعيتك، ولولا الصلاة الخمس لمشى اليك الرجال حتى يذبحوك ذبح الشاة» وأضاف أن عائشة لما أيقنت أن عثمان مقتول لا محالة رفضت طلبا من مروان بالدفاع عنه وخرجت تريد الحج فلقيها ابن عباس وهو عائد للمدينة فقالت له «يا ابن عباس، إنك قد أوتيت عقلاً وبياناً، وإياك أن ترد الناس عن قتل الطاغية»

وروى ابن ابي الفتح الاربلي في كشف الغمة «أن عائشة حرضت الناس على قتل عثمان بالمدينة وقالت: اقتلوا نعثلاً قتل (الله) نعثلاً ! فلقد أبلى سنة رسول الله وهذه ثيابه لم تبل»

وروى الفضل بن شاذان في الايضاح أنه حصل خلاف شديد بين عائشة وحفصة وبين عثمان بسبب قراره تخفيض العطاء لأزواج النبي(ص) عما كان

عليه المحال أيام عمر. ولما أصر عثمان على قراره طالباه بميراثهما من رسول الله(ص)؟ وأنه عند ذلك «... وكان عثمان متكئاً لمجلس، وكان علي بن أبي طالب (ع) جالساً عنده، فقالت: ستعلم فاطمة (ع) أنّي ابن عم لها اليوم؟ ألم تكونا أنتما اللتين شهدتما عند أبي بكر ولفقتما معكما أعرابياً يتطهر ببوله مالك بن الحويرث بن الحدثان فشهدتم أن النبي (ص) قال: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة. فإن كنتما شهدتما بحق فقد أجزت شهادتكما على أنفسكما، وإن كنتما شهدتما بباطل فعلى من شهد بالباطل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فقالتا له: يا نعثل! والله لقد شبهك رسول الله(ص) بنعثل اليهودي. فقال لهما: ضرب الله مثلا (للذين كفروا) امرأة نوح وامرأة لوط. فخرجتا من عنده.»

وأضاف أنه لما نقم الناس على عثمان، وكان يخطب على المنبر أخرجت عائشة قميصاً لرسول الله(ص) على قصبة أو جريدة من جرائد النخل فقالت: يا عثمان قميص رسول الله(ص) لم يبل وقد غيرت سنته»

ورواية الفضل بن شاذان هذه لا يمكن قبولها على الاطلاق. فهل يمكن تخيل عثمان وهو يتهم أبا بكر وعائشة وحفصة بإحضار شاهد زور «أعرابي يتطهر ببوله» من اجل منع توريث فاطمة؟ ومتى كان عثمان من المدافعين عن حق فاطمة في ورثة أبيها؟! ومسألة من قبيل تشبيه رسول الله (ص) لعثمان بنعثل اليهودي، وتشبيه عثمان لعائشة وحفصة بامرأتي نوح ولوط هي من قبيل الشتائم ليس إلاّ.

ورغم ذلك لا يمكن اتهام المصادر الشيعية بأنها وراء تلفيق هذه الروايات، بل هي موجودة بكثرة في غيرها. ولكن المصادر الشيعية أكثر استفاضة في ذكرها وتوسعاً في تفاصيلها وأشد تركيزاً على الغريب منها.

## طلحة هو زعيم المتمردين: يمنع عثمانَ الماءَ ويشرف على إطلاق النبال![1]

ولم تكتف المصادر بتحميل عائشة مسؤولية التحريض على «نعثل»، بل

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1169-1170)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص57)، تاريخ الطبري (ج4 ص[illegible])، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص[illegible])

انتقلت الى طلحة بن عبيد الله لتجعله يبدو في صورة القائد الميداني لجموع الثوار المحاصرين لعثمان! ومن ذلك:

روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن الكلبي أن عثمان وهو محصور أرسل الى علي بن ابي طالب يشكو اليه طلحة لأنه «قد قتلني بالعطش، والقتل بالسلاح أجمل من القتل بالعطش!» وأن علياً بناءً على تلك المناشدة تدخل فذهب الى طلحة وطالبه بإدخال الماء الى عثمان فرفض وأجابه «لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ويشرب!» وغير ذلك من روايات تقول ان عثمان بعث لعلي يقول له ان طلحة التيمي يريد أن يبتز بني عبد مناف ملكهما ويقول له «فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكل، ولا تخلّ بينها وبين ابن فلانة - يريد طلحة»

وذكر اليعقوبي في تاريخه ان محصر ابن عديس البلوي عثمان في داره، فناشدهم الله، ثم نشد مفاتيح الخزائن، فأتوا بها الى طلحة بن عبيد الله، وعثمان محصور في داره»

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة «ثم أقبل الأشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل، وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل. فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً، وطلحة يحرض الفريقين جميعاً على عثمان. ثم إن طلحة قال لهم: إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه ؟ وهو يدخل اليه الطعام والشراب فامنعوه الماء أن يدخل عليه» وأضاف ان عثمان عاتب طلحة فرفض فك حصاره وقال له «إنك غيرت وبدلت» وعندما استنجد بعلي بعدما منع الماء فاستجاب وأرسل له ثلاث قرب مملوءة بالماء فلما وصله احتج طلحة على عليٍّ «فكان بينهما في ذلك كلام شديد».

وذكر الطبري في تاريخه في رواية عن الواقدي أنه عندما كان عثمان محاصراً في داره «مرّ طلحة بن عبيد الله فوقف فقال: أين ابن عديس؟

فقيل: ها هو ذا.

قال فجاءه ابن عديس، فناجاه بشيء ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ولا يخرج من عنده».

قال: فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله. ثم قال عثمان: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل علي هؤلاء وألّبهم. والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يسفك دمه. إنه انتهك مني ما لا يحل له ...».

وطبعاً المصادر الشيعية لا تقل تأكيداً على اتهام طلحة مما أوردناه. فالشيخ المفيد في كتاب الجمل يضيف الزبير إلى طلحة فيمن يتحملون مسؤولية قتل الخليفة. فيقول:

ولما أبى عثمان أن يخلع نفسه تولى طلحة والزبير حصاره والناس معهما على ذلك فحصروه حصراً شديداً ومنعوه الماء.

وأنفذ إلى علي يقول: إن طلحة والزبير قد قتلاني من العطش، والموت بالسلاح أحسن!

فخرج معتمداً على يد المسور بن مخرمة الزهري حتى دخل على طلحة بن عبيد الله وهو جالس في داره يبري نبلاً وعليه قميص هندي فلما رآه رحب به ووسع له على الوسادة. فقال له علي عليه السلام: إن عثمان قد أرسل إلي إنكم قد قتلتموه عطشاً وإن ذلك ليس بالحسن والقتل بالسلاح أحسن، وكنت آليت على نفسي أن لا أرد عنه أحداً بعد أهل مصر وأنا أحب أن تدخلوا عليه الماء حتى تروا رأيكم فيه.

فقال طلحة: لا والله لا نعمه عيناً ولا نتركه يأكل ولا يشرب!

فقال علي (ع): ما كنت أظن أن أكلم أحداً من قريش فيردني. دع ما كنت فيه يا طلحة.

فقال طلحة: ما كنت أنت يا علي في ذلك من شيء.

فقام علي (ع) مغضباً وقال: ستعلم يا ابن الحضرمية أكون في ذلك من شيء أم لا. ثم انصرف.

وروى أبو حذيفة بن إسحاق بن بشير القرشي أيضاً قال حدثني يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: والله إني لأنظر إلى طلحة وعثمان محصور وهو على فرس أدهم وبيده الرمح يجول حول الدار وكأني أنظر إلى بياض ما وراء الدرع.

وروى أبو إسحاق قال: لما اشتد الحصار بعثمان عمد بنو أمية على إخراجه ليلاً إلى مكة وعرف الناس فجعلوا عليه حرساً وكان على الحرس طلحة بن عبيد الله وهو أول من رمى بسهم في دار عثمان.

قال: واطلع عثمان وقد اشتد به الحصار وظمأ من العطش فنادى أيها الناس اسقونا شربة من الماء وأطعمونا مما رزقكم الله! فناداه الزبير بن العوام: يا نعثل لا والله لا تذوقه!

وروى أبو حذيفة القرشي عن الأعمش عن حبيب بن ثابت عن ثعلبة بن يزيد الحماني قال أتيت الزبير وهو عند أحجار الزيت فقلت له: يا أبا عبد الله قد حيل بين أهل الدار وبين الماء. فنظر نحوهم وقال: وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب!

وقد أوضح الشيخ المفيد فلسفته في رواية هذه الأخبار حين قال:

«فهذه الأحاديث في جملة كثيرة في هذا المعنى وهي كاشفة عما ذكرناه من أن انتقال القوم من الظاهر بطلب دم عثمان وهم تولوا سفكه ولم يظهر أحد منهم إلا الندم عليه، ولما بايع الناس عليًا أظهروا الندم على ما فرط منهم واعترفوا بما صنعوا وأثاروا الفتنة التي رجع عليهم ما كانوا أملوه فيها منه وهو الظاهر منهم والباطن كان مخالفاً للظاهر منهم فيما ادعوه بعثمان»

وهذه الروايات، من أي مصدر جاءت، ينبغي ردها وعدم الالتفات لها. فطلحة بن عبيد الله لم يكن زعيم الثوار المتمردين على عثمان، ولم يكن مسيطراً على تحركاتهم ولم يكن آمراً ولا ناهياً. فهؤلاء لم يأتوا من الأمصار من أجل قتل عثمان وتأمير طلحة. بل وأكثر من ذلك: إن طلحة بنظر أولئك الثائرين صنوٌ لعثمان ولا يختلف عنه كثيراً. فهو قرشيٌّ مثله، ومن طبقة كبار الصحابة الذين استفادوا من حكمه وسياسته فأثروا ثراءً فاحشاً، فهو وجهٌ آخر لقريش فلمَ يقحمون أنفسهم بنصرته؟ وهل يستحق طلحة بنظر الثائرين تحمّل مشاق ومخاطر الثورة على الخليفة ؟ وهل يمثل طلحة أصلاً أي أمل بسياسة مختلفة، وهو الذي ينتمي إلى نفس النظام القرشي الذي أنتج عثمان؟

ثم ما الذي سيجنيه طلحة نفسه من الانضمام الى صفوف هؤلاء المتمردين القادمين من الأمصار؟ أي أمل يرجوه طلحة من هؤلاء المتشتين في شتى قبائل العرب، الحانقين على قريش وحكمها؟ ولماذا يساهم طلحة في هدم نظام الحكم الذي أسسه عمر بن الخطاب، والذي هو شخصياً من كبار أعمدته ومرجعياته؟

ولستُ أنكر أن خلافاً أو اختلافاً قد ينشأ بين الرجلين، عثمان وطلحة. فهذا أمرٌ مألوفٌ وطبيعي. وربما يكون طلحة مستاءً، أو حتى غاضباً، بسبب بعض قرارات عثمان. ولكن الاختلاف في الرأي بشأن مواقف معينة شيء، والمشاركة في قتل الخليفة وزعزعة نظام الحكم شيء آخر تماماً.

ولذلك أقول ان هذه الاخبار عن قيام طلحة بمنع الماء عن عثمان، أو برمي النبال تجاه بيته لا أساس لها من الصحة. وهدفُ مؤلفيها هو القدح بطلحة عن طريق القول ان اشتراكه بحرب الجمل ضد الامام علي لم يكن له أي مسوّغ وأنه كان كاذباً في سعيه بالمطالبة بدم عثمان. وربما أراد مؤلفو هذه الأخبار الدفاع عن الإمام علي في وجه التهم التي وجهت اليه بالتواطؤ بسبب انضمام قاتلي عثمان الى صفوفه، فكانت هذه وسيلتهم. فكأنهم أرادوا أن يقولوا لخصومهم: ليس عليٌ المسؤول عن مقتل عثمان، بل هو رجلكم طلحة، ودليلنا هذه الاخبار.

## الصحيح بشأن موقف كبار الصحابة الغاضبين على عثمان والخاذلين له[1]

من المفيد التأمل في الروايات التالية:

ورد في تاريخ المدينة لابن شبة عن عائشة أنها قالت: «كان القوم يختلفون إليّ في عيب عثمان رضي الله عنه، ولا أراه إلا أنها معاتبة. فأما دمه فأعوذ بالله من دمه، والله لوددت أني عشت برصاء في الدنيا سالما وأني لم أذكر عثمان بكلمة قط»

(1) مصادر البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص48)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1224)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص71)، تاريخ الطبري (ج3 ص415)، وترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص227).

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن ابي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي، بعد ان ذكر المشرحين القادمين من مصر والكوفة والبصرة ومن انضم اليهم من الناس «وكان أصحاب النبي(ص) الذين خذلوه كرهوا الفتنة وظنوا ان الأمر لا يبلغ قتله. فندموا على ما صنعوا في أمره. ولعمري لو قاموا، أو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين»

روى الطبري في تاريخه عن الواقدي عن ابي حبيبة قال «نظرت الى سعد بن ابي وقاص يوم قتل عثمان دخل عليه ثم خرج من عنده وهو يسترجع مما يرى على الباب ،

فقال له مروان: الآن تندم انت أشعرته

فأسمع سعدا يقول: أستغفر الله. لم أكن أظن الناس يجترئون هذه الجرأة ولا يطلبون دمه، وقد دخلت عليه الآن فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك فنزع عن كل ما كره منه وأعطى التوبة وقال: لا أتمادى في الهلكة، ان من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع.....»

هذه النصوص الثلاثة هي خير ما يوضح حقيقة موقف كبار الصحابة من محنة عثمان. فهؤلاء كان لهم مآخذ على عثمان وسياساته وكانوا يعارضون بعض قراراته ويطالبونه بالعودة عنها، ويريدون منه سلوكاً كعمر بن الخطاب. وكانوا بحكم منزلتهم الرفيعة في الدولة يتمتعون بجرأة وثقة بالنفس تدفعهم الى مواجهة الخليفة بالنقد، والنقد الشديد احيانا، مباشرة. وبحكم مكانتهم وشهرتهم كان الكثيرون من الرعية يلجؤون اليهم لتوصيل صوتهم الى الخليفة.

ولكن ذلك كله كان يجري في إطار نظام الحكم الذي أرسى دعائمه عمر بن الخطاب. فالمهاجرون القرشيون من كبار الصحابة هم قادة الدولة وهم الطبقة الحاكمة وهم الذين يتداولون الخلافة فيما بينهم.

ذاك هو الاطار الذي يحكم علاقتهم. وهم حين يختلفون يدركون أن العامة يتطلعون اليهم كقدوة ومرجعين، وبالتالي يعلون خلافاتهم فيما

بينهم دون أن يسمحوا لغيرهم أن يتدخلوا فيما بينهم، أو هكذا ينبغي أن تكون الأمور. ولذلك كانت مفاجآتهم كبيرة حين وجدوا أن خلافاتهم قد خرجت عن نطاقهم وتوسعت لتصل إلى العامة، وبالتالي أصبح من الصعب السيطرة عليها. ومن هنا نفهم معنى كلام عائشة «لا أراه إلا تبا» مقالتها، وقولها في مناسبة أخرى «عرفته ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه»[1] وقول سعد «لم أكن أظن الناس يجترئون عليه هذه الجرأة» وطلحة «إن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة من المهاجرين الأولين. وأحدث أحداثاً نقمناها عليه تابعناه ونافرناه ثم أعتب حين استعتبناه»[2]، وغير ذلك من كلام يفهم منه أن كبار الصحابة لم يكونوا يتوقعون أن معارضتهم لعثمان ستساهم في تطور الأمور بتلك الصورة الكارثية. فلم يكن يخطر ببال كبار الصحابة أن طعنهم في بعض سياسات وقرارات عثمان سيستغلها آخرون كذريعة لقتل الخليفة. وقد سبق وأشرنا كيف أن معاوية بن أبي سفيان، بحس رجل الدولة الخبير والماهر، استشعر خطورة ذيوع الخلافات بين كبار الصحابة فوجه تحذيره لهم بضرورة الائتلاف حول عثمان والتوقف عن الطعن فيه.

## موقف علي بن أبي طالب من مقتل عثمان[3]

### التباس وشبهات

يتميز موقف الإمام علي من مقتل عثمان بالتعقيد الشديد، إلى حد أثار اللبس لدى الكثيرين من الماضين والمعاصرين:

فنسبه بعض الناس إلى الرضا بما صنعه الثائرون بعثمان،

واتهمه آخرون بالتواطؤ والتأليب عليه.

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

(2) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص227)

(3) مصادر البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج3 ص[illegible] وج4 ص[illegible])، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص[illegible])، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص[illegible])، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص[illegible])، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص[illegible])، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص[illegible])، وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص[illegible])، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص[illegible])، كتاب سليم بن قيس الهلالي (ج2 ص[illegible])

وقال آخرون انه كان مقصراً فيما كان يجب لعثمان عليه.

وأكد آخرون انه كان كارهاً لكل ما جرى لعثمان من حصار وقتل، وأنه كان له موالياً ولأعماله راضياً ولكن العجز عن نصرته أقعده عنها.

والسبب في هذا اللبس والاضطراب في فهم حقيقة موقف علي ناجمٌ في الأساس عن أفعاله المختلفة مع عثمان:

فتارة ينكر عليه ما أنكره المسلمون أشد الإنكار.

وتارة يدفع عنه وينهى عن قتله[1] القاصدين إلى ذلك من أهل الأمصار.

وتارة ينكر على من منعه الماء ويغلظ لذلك ويغضب أشد الغضب[2].

وتارة يجلس في بيته وهو يرى الناس يهرعون إلى قتله ويطلبون دمه فلا يكون منه تدخل ولا نهيٌ عن ذلك، رغم أنه في ظاهر الحال مُطاعٌ مُعظمٌ مسموعُ الأمر مُتبعُ الرأي.

كما أنه تولى الصلاة بالناس يوم النحر وعثمان محصورٌ ولم يستأذنه في ذلك[3].

---

(1) روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة (ج1 ص48): فبلغ عليا أن عثمان يراد قتله فقال: إنما أردنا مروان، فأما قتل عثمان فلا. ثم قال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ولا تدعا أحدا يصل إليه. ويروى في موضع آخر أن عليا لما أرسل ابنه إلى عثمان المحاصر... دخل عليه الحسن بن علي فقال: مرني بما شئت فإني طوع يمينك... فقال له عثمان: ارجع يا ابن أخي اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره.

(2) ذكر الطبري في تاريخه من طريق سيف عن علي بن أبي طالب قال: يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم والفرس لتأسر فتطعم وتسقي وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله؟ قالوا: لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب، فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما أنهضتني فرجع.

(3) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي روايتين: القول الأول أنه جاء المؤذن إلى عثمان فآذنه بالصلاة، فقال: لا أنزل أصلي، اذهب إلى من يصلي. فجاء المؤذن إلى علي فأمر سهل بن حنيف فصلى اليوم الذي حصر فيه عثمان الحصر الآخر، وهو ليلة رأي هلال ذي الحجة، فصلى بهم حتى إذا كان يوم العيد صلى علي العيد ثم صلى بهم حتى قتل رضي الله عنه. والقول الثاني: جاء المؤذن سعد القرظ إلى علي بن أبي طالب في ذلك اليوم فقال: من يصلي بالناس؟ فقال علي: ادع خالد بن زيد، فدعا خالد بن زيد فصلى بالناس فإنه لأول يوم عرف أن اسم أبي أيوب خالد بن زيد، فكان يصلي بهم أياما ثم صلى علي بعد ذلك بالناس.

هذا مع هجره لعثمان أحيانا ومنازعته له حينا ومصالحته أحيانا ومسالمته له حينا وتغليظ القول عليه أحيانا وسعيه في الصلح بينه وبين الناس زمانا وترك ذلك إلى الكف عنه زمانا آخر

ومما فاقم اللبس لدى الكثيرين ما روي عن الإمام علي من أقوال عديدة بعد قتل عثمان مما تختلف ظواهرها وتتشابه معانيها.

كقوله مرة: «اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلت أو مالأت على قتله»[1].

وقوله حينا: «الله قتل عثمان وأنا معه»[2]، وكذلك «ألا إن الله قتله وأنا معه»[3]

وقوله وقتا آخر: «ما أمرتُ ولا نهيتُ ولا سرّني ولا ساءني قتل عثمان»[4]

وقوله حينا آخر: «لقد نهيتُ عنه ولقد كنت له كارها ولكن غُلبتُ»[5]

وقوله: «اللهم اكبب اليوم قتلة عثمان لمناخرهم»[6]، وكذلك «اللهم جلّل قتلة عثمان اليوم خزيا»[7]

وقوله عندما طالبه وفد الشام بقتلة عثمان: مَن قتل عثمانَ فليقُم، فقام أربعة آلاف من الناس المتحيزين إليه، فقال: هؤلاء قتلة عثمان!

وقوله في مناسبة أخرى: اللهم اقتل قتلة عثمان في برّ الأرض وبحرها، وكذلك «اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل - ثلاثا»[8]

---

(1) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق كثير بن هشام
(2) روى ذلك ابن حبان في كتاب الثقات
(3) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة(ج4 ص1277) من طريق مجالد بن سعيد وفي (ص1259) من طريق عبد الله بن فضالة
(4) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق أبي خلدة الحنفي
(5) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق ابن عباس
(6) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق محمد بن الحنفية
(7) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق إسماعيل بن أبي خالد
(8) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق سالم بن أبي الجعد

وقوله «لا أقول إنه قتل مظلوماً ولا أقول إنه قتل ظالماً»[1]

والشبهة التي أثارها خصوم الإمام علي حين اتهموه بدم عثمان ليست من فراغ:

فهو أخذ نجائب عثمان وأدراعه[2] بعد مقتله.[3]

كما لم يرو أن علياً قد بادر إلى محاولة الصلاة على عثمان أو تكفينه أو دفنه[4].

وهو طبعاً تصدى للخلافة وتقبل البيعة من بعده.

---

(1) روى ذلك الطبري في تاريخه (ج٤ ص٨)

(2) ولقد اعترف الشيخ المفيد في كتاب الجمل بالملك ولكنه قدم دفاعاً وجيهاً وسخاً من الإمام علي حين قال: «وكذلك لو لم يقبض ذلك عليّ (ع) لأسرع إلى نهبه وتهيئه وتملكه من ليس له ذلك بحق من الرعية ولحفظه لصاحبه ولمن ترك لأربابه. وقد كان هو الإمام باتفاق الجمهور بعد عثمان وللإمام أن يحفظ لأموال المسلمين وتركات من تخشى عليهم لتحصل إلى مستحقه دون غيرهم.

وليس إذا التمس الوليد من علي ما لا يستحق فمنع منه كان ذلك لتناول المانع له بما التمسه ولا لكذبه عليه ولا لكون الوليد أيضاً مسموع ولا لعظمته ... مع نزول القرآن بفسقه...

ويحتمل أن كانت الأدراع والنجائب التي التمسها أمير المؤمنين (ع) بعد قتل عثمان ملكاً له لكان أولاده وأزواجه أحق بها من الوليد ولكان ارتجاع علي (ع) لها وصرفها إلى ورثته أولى من تسليمها للوليد وأمثاله من بني أمية الذين ليس لهم من تركة عثمان نصيب على حال تكون. وقد ذكر الناس في هذه الأدراع والنجائب أنها من الفيء الذي يستحقه المسلمون فغلب عليها عثمان واستصفاها لنفسه، فلما بايع الناس علياً انتزعها (ع) من موضعها ليجعلها في مستحقيها لما في ذلك من تهمة بقتل عثمان لولا العمى والضلال)»

(3) وفي ذلك شعرٌ مشهور للوليد بن عقبة بن أبي معيط يخاطب بني هاشم ويتهمهم بقتل عثمان:

«بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ... ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
بني هاشم كيف الهوادة بيننا ... وعند عليّ درعه ونجائبه
بني هاشم كيف التودد بيننا ... وبز ابن أروى فيكم وحرائبه
بني هاشم إنا وما كان منكم ... كصدع الصفا ما يرأب الصدع شاعبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه
فإن لم تكونوا قاتليه فإنه ... سواء علينا ممسكوه وسالبه»

وقد ورد هذا الشعر، باختلافات يسيرة، في عدة مصادر منها مروج الذهب للمسعودي.

(4) سوف يأتي الحديث عن دفن عثمان بالتفصيل.

كما أن السيرة العملية لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب توضح أنه لم يبعد نفسه بما فيه الكفاية عن أوساط الثائرين القادمين من الأمصار والذين كان قاتلوا عثمان من بينهم. لقد بقي عليّ قريباً جداً منهم، فلم يبعدهم عنه وكانوا من الدائرة المحيطة به.

وينبغي التنويه إلى أنه عند التدقيق في سيرة الإمام علي، يمكن التأكيد على أنه لم يصدر عنه، طوال فترة حكمه، ما يشير إلى أي خطوة أو اتخاذ أي خطوات عقابية تجاه مجمل الثائرين على عثمان. فلم يقم بأي إجراءات عملية لمحاسبتهم.[1]

كما يلاحظ أن علياً قام عن علم وإرادة بتعيين عدد من الأشخاص المتهمين بقتل عثمان في مناصب مهمة في حكومته، واعتمد عليهم في إدارته. وطبعاً كان الثائرون يرون في سياسة الخليفة عليّ تلك إقراراً منه لهم على تصرفاتهم.

كما كان لدى علي رأي إيجابيٌ بحق بعض الشخصيات القيادية التي تزعمت الثورة على عثمان[2]

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنه كان هناك ارتباط عاطفيّ وثيقٌ لمجمل الثائرين على عثمان بشخص عليّ بن أبي طالب.[3]

---

(1) فمثلاً روى السيوطي في تاريخ الخلفاء أنه بعد بيعته
جاء علي إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟
قالت: لا أدري، دخل رجلان لا أعرفهما ومعهما محمد بن أبي بكر. وأخبرت علياً والناس بما صنع محمد.
فدعا عليٌ محمداً، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان؟
فقال محمد: لم تكذب. قد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكرني أبي فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى، والله ما قتلته ولا أمسكته.
فقالت امرأته: صدق، ولكنه أدخلهما.
حسب هذه الرواية اكتفى عليٌ بجواب محمد ولم يقم بسؤاله عن شركائه في الاقتحام، ولم يقم بأي تحقيق جدي حول الأمر.
(2) وقد سبق وذكرنا الكتاب الذي أرسله عليٌ إلى أهل مصر عندما ولى عليهم الأشتر وكيف وصفه فيه بأروع الأوصاف التي لا يمكن أن تصدر إلا من رأي بالغ الإعجاب بصاحبه. والأشتر كما هو معروف من أبرز قادة الثائرين على عثمان.
(3) فمثلاً روى نصر بن مزاحم في وقعة صفين نصاً يعبّر فيه عمرو بن الحمق الخزاعي،

وقد ظهر من عليٍّ أثناء توليه الخلافة، ما يشير إلى تهوينه من موضوع قتل عثمان بمجمله، فالأمر هامشيٌ بنظره وليس له الأولوية، ولا بأس بتأجيل النظر فيه إلى ما بعد أن تستتب أموره في الحكم.[1]

وهذه الأمور مجتمعة، وهي بالتعبير الأمني والقضائي الحديث «ظروف تجلب الشبهة»، مكّنت خصوم علي الكثر من القول إنه متورّطٌ بقتل عثمان من طريق الإيعاز بذلك إلى أتباعه هؤلاء. وعلى أقل تقدير إنه زعيم القتلة والغوغاء الذين هاجموا عثمان.

فما حقيقة موقف عليّ؟

من مجمل القرائن والأدلة، المستندة إلى عموم الروايات والأخبار والى وقائع الأحداث، يمكن الاستنتاج انه:

- اتخذ عليٌّ موقفاً سلبياً من عثمان. والسلبية هنا لا تعني اللامبالاة تجاه شؤون الحكم والخلافة التي تهم كل المسلمين، ولكن تعني أنه نأى بنفسه عن الخليفة ويحرص على تأكيد عدم ارتباطه بسياساته وقراراته. فعليٌّ لم ينصر عثمان، أي أنه لم يدافع عنه، ولم يبرر أخطاءه، ولم يتصدّ لمجموع المتمردين لثنيهم عن مطالبهم ولم يحاول إقناع المتمردين بأن الخليفة مظلومٌ أو أن ما وصلهم عنه باطل. ويعبّر هذا الموقف

---

وهو من المتهمين بقتل عثمان عن أسباب ولائه لعليّ بأسلوب عاطفيّ أخّاذ. فقال له أثناء الاستعداد للسير إلى صفين: «والله يا أمير المؤمنين ما أتيتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا التماس سلطان ترفع ذكري به. ولكن أحببتك لخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله (ص) وأول من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد (ص)، وأبو الذرية التي بقيت لنا من رسول الله (ص)، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي ونزح البحور الطوامي حتى يأتي عليّ يومي في أمر أقوّي به وليّك وأوهن به عدوّك ما رأيت أني قد أديت فيه كل الذي يحق عليّ من حقك».

(1) هناك بعض الإشارات إلى أن علياً كانت لديه نية في إجراء نوع من المحاكمة للأشخاص الضالعين مباشرة بقتل عثمان ولكن حسب الأصول الشرعية تماماً، وأولها أن يتقدم ذوو عثمان بطلب له بوصفه الخليفة المسؤول، بالقصاص من هؤلاء الذين قتلوا عثمان بدون تقاضٍ ولا محكمة، وهذا ما لم يحصل، والمحكمة بنظر عليّ يجب أن تقوم على الأدلة والقرائن والشهود وأن يتم تحديد كل متهم بذاته.

السلبي من عثمان عن إحباط شديد من جانب عليّ تجاه سياسات الخليفة على مدى سنين طويلة، وعجزه عن التأثير الإيجابي عليه.

- كان عليّ يؤيد مطالب المتمردين ويراها محقة وعادلة[1].
- كان عليّ يرى أن أساس المشكلة يكمن في عثمان نفسه لا في المتمردين. والحل هو بيد عثمان لا غيره.
- بذل عليّ جهده للوساطة بين المتمردين والخليفة. ولكنه لم يكن محايداً تماماً بل كان أقرب الى المتمردين في مسعاه ذلك. فوساطة علي كانت تنصب على التوصل الى اتفاق يلتزم فيه عثمان بالاستجابة للمطالب العادلة للمتمردين مقابل عودتهم الى ديارهم. وقد نجح عليّ في التوصل الى اتفاق لحل الأزمة ولكن جهوده في النهاية ضاعت سدى بسبب تراجعات عثمان وتصرفات البطانة الأموية المحيطة به. ولا شك أن الإخلال بالاتفاق الذي توسط به من طرف عثمان جعل علياً يرفع يده تماماً ويعتزل الأمر. فهو قد عمل الذي عليه، وأراح ضميره. ولا يمكنه فعل المزيد ما دام الخليفة مسلماً زمام أمره الى مروان بن الحكم وامثاله.[2]
- كان عليّ يستند الى الاسس الشرعية تماماً في موقفه. فهو يرى ضرورة المحاكمة قبل اصدار أي حكم، والمحاكمة لا بد أن تستند الى القرائن والحجج والأدلة ولا بد أن يتاح فيها للمتهم الفرصة العادلة للدفاع عن نفسه.[3]

---

(1) وقد تطرقنا في فصل علاقة علي بعثمان الى علاقات وتفاصيل مآخذ علي على الخليفة التي تراكمت على طيلة سنوات حكمه.

(2) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي أن الامام علياً أجاب سعد بن أبي وقاص حين طالبه بنصرة عثمان :
«يا أبا إسحاق والله ما زلت أذبّ عنه حتى إني لأستحي، ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص هم صنعوا به ما ترى فإذا نصحته وأمرته أن ينحيهم استغشني حتى جاء ما ترى»

(3) روى ابن حبان في كتاب الثقات أن الامام علياً لما سمع بخبر مقتل عثمان توجه الى بيته فوجده مقتولاً

- وبناء على ذلك عارض عليٌّ الاتجاه المتطرف في صفوف المتمردين والذي بدأ يجنح الى التخلص من الخليفة بأي وسيلة حتى لو كانت القتل[1]. فكما سبق لعلي أن عارض ما فعله عبيد الله بن عمر من قتل لمن اشتبه بتآمرهم على اغتيال والده دون دليل، هو الآن يعارض أن يقوم البعض بقتل عثمان دون حكم شرعي.

- ورفض عليٌّ التصرفات القاسية التي مارسها المتمردون في المرحلة الأخيرة من هجومهم على عثمان، وبالأخص مسألة حرمانه من الماء. وقد أصرّ عليٌّ على ايصال الماء الى عثمان، ولو كان في ذلك مخاطرة عليه أو على أبنائه.

وقد لخّص عليٌّ فيما بعد وهو خليفة، موقفه من عثمان بقوله[2]: «لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً، أو نهيتُ عنه لكنتُ ناصراً، غير أن من نصرَهُ لا يستطيع أن يقول خذلَهُ من أنا خيرٌ منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصرَهُ من هو خيرٌ مني.[3]

وأنا جامعٌ لكم أمره: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكمٌ واقع في المستأثر والجازع»

---

«... ثم خرج وهو غضبان يسترجع.
فلقيه طلحة بن عبيد الله فقال: ما لك يا أبا الحسن؟
فقال علي: يقتل أمير المؤمنين رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من غير أن تقوم عليه بينة ولا حجة؟!
فقال له طلحة لو دفعه مروان اليهم لم يقتلوه.
فقال علي لو خرج مروان اليكم لقتلتموه قبل أن يثبت عليه حكومة...»

(1) روى ابن حيان في كتاب الثقات أنه لما تسور المتمردون الدار وقتلوا عثمان ثم خرجوا خرجت زوجته وأخبرت عليّاً فكان أول من دخل عليه الحسن والحسين فوجدا لا يعلمان بالكارثة، وكانا منتظرين على الباب يحرسانه ويمنعان الناس من الدخول ووجدوا عثمان مذبوحاً ... «وأقبل الامام علي غاضباً على الحسن والحسين ولطم الحسن ولكم الحسين قائلاً لهما كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ قالا: لم نعلم...»

(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده

(3) وقد شرح الشيخ محمد عبده هذه الجملة كما يلي «أي أن الذين نصروه ليسوا بأفضل من الذين خذلوه، لهذا لا يستطيع ناصره أن يقول إني خير من الذي خذله ولا يستطيع خاذله أن يقول إن الناصر خيرٌ مني يريد أن القلوب متفقة على أن ناصريه لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفتخرون به على خاذليه»

وهذا النص يوضح اعتقاد عليّ أن عثمان قد أودى به سوء عمله وفساد سياسته؛ وذلك ظاهرٌ من قوله: استأثر فأساء الأثرة ولذلك لم يستحق النصرة بنظره. وقوله «جزعتم فأسأتم الجزع» يشير إلى انتقاده على الحالة والهيجان التي صار عليها جموع الثائرين والتي أدت إلى قتل عثمان بتلك الطريقة القاسية.

وختاماً من المفيد إيراد نص من كتاب سليم بن قيس الهلالي وفيه أن الإمام علياً قال:

«إن عثمان لا يعدو أن يكون أحد رجلين:

إما أن يكون دعا الناس إلى نصرته فلم ينصروه،

وإما أن يكون القوم دعوه إلى أن ينصروه فنهاهم عن نصرته.

فلم يكن يحلّ له أن ينهى المسلمين عن أن ينصروا إماماً هادياً مهتدياً لم يحدث حدثاً ولم يؤوِ مُحدثاً، وبئس ما صنع حين نهاهم وبئس ما صنعوا حين أطاعوه؛

وإما أن يكون جوره وسوء سيرته فعلم أنهم لم يروه أهلاً لنصرته لجوره وحكمه بخلاف الكتاب والسنة»

موقف المدينة المنورة: الأنصار[1]

لم تكن أعداد الثوار القادمين من الأمصار بالغة الضخامة، ومن المرجح أنه لو كانت لعثمان قاعدة معقولة من التأييد في داخل المدينة لكان بالإمكان صدّ الثوار وردعهم عن الخليفة، ولكن الذي حصل أن المدينة تركت عثمان يواجه مصيره وهو شبه وحيد... [illegible]

(1) مصادر البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص[illegible]–414 + ص[illegible]–[illegible] ص435 + ص[illegible])، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج[illegible] ص[illegible] + ج[illegible] ص[illegible])، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص[illegible])، الاستيعاب لابن عبد البر (ص[illegible] + ص[illegible] + ص[illegible] + ص[illegible])، أسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص[illegible] وج3 ص[illegible])، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص101)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص[illegible] + ص[illegible])، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ج2 ص[illegible] + ص[illegible])، تاريخ خليفة بن خياط (ص[illegible]–[illegible])، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص197)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص[illegible] + ص[illegible])، أنساب الأشراف للبلاذري (ج[illegible] ص[illegible]–[illegible])، كتاب العلل لأحمد بن حنبل (ج2 ص[illegible])، وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص1005).

فالمدينة المنورة، بالإجمال، بقيت تراقب الخليفة وما يتعرض له من تهديد خطير، دون أن تبدي حراكاً، ودون أي جهد يُذكر للدفاع عنه أو حمايته. وحتى عندما قام الثوار بإنزال عثمان عن المنبر، وشتموه وطردوه من مسجد رسول الله (ص) وحصروه في بيته لأكثر من أربعين يوماً، لم تقم المدينة بأي شيء عمليّ للتخفيف من محنته.

ويمكن القول أن عموم الأنصار من أهل المدينة قد نظروا إلى الخليفة نظرة هي مزيجٌ من التشفي (بالحاكم الظالم) والشفقة (على الرجل العجوز) واللامبالاة (أودى به سوء عمله).

كما يمكن القول أيضاً ان استياء أهل المدينة من الخليفة يرجع في جزء كبير منه إلى السياسة القرشية العامة، والأموية الخاصة، التي كان ينتهجها عثمان، والتي أخذت ترجمتها العملية في تهميش عموم الأنصار وإبعادهم عن مراكز التأثير والقرار. وكان ما يرونه من فساد مالي وإداري، والتحلل من مبادئ العدالة، والتمييز في تطبيق الحدود الشرعية[1]، مما يفاقم من المشاعر السلبية لأهل مدينة الرسول تجاه عثمان. وقد كانت بطانة الخليفة من الأسباب الرئيسية لغضب أهل المدينة، حتى صار الصحابة الفاسدين الذين وضعهم عثمان في أعلى المناصب مطلباً عاماً للناس، وللأنصار منهم بالتحديد، وهم الذين شعروا بالتمييز ضدهم في مدينتهم هم بالذات. ويضاف الى ذلك كله ايضاً رواسب ما جرى يوم السقيفة من جدالات عاصفة خاضها زعيم الأنصار، سعد بن عبادة، مع رؤساء مهاجري قريش، أسفرت في النهاية عن انفرادهم بالحكم. ويلاحظ ان الفرع الخزرجي من الأنصار، وهم قوم سعد بن عبادة، كانوا أكثر تشدداً بمواقفهم تجاه الخليفة. وربما كانوا لا يزالون متأثرين بما جرى لزعيمهم القديم من نفي قاسٍ الى الشام وموتة غامضة هناك.

---

(1) وقد مر بنا كيف أن عبد الرحمن بن عديس البلوي (تاريخ الطبري ج3 ص 380)، وهو أحد المصريين الرئيسيين بمقتل عثمان، قال في معرض شرحه لأسباب الثورة على عثمان: «... ثم ذكروا أشياء مما أحدث في المدينة وما خالف به صاحبيه» مما يدل على استهجان تصرفات عثمان ومخالفاته حتى لسياسات أبي بكر وعمر.

## شخصيات الانصار الذين انضموا الى صفوف الثوار

وتذكر المصادر أسماء شخصيات من الانصار ممن لم يكتفوا بالمراقبة والمتابعة السلبية لتطورات الهجوم على عثمان بل اشتركوا في المساهمة الفعلية في نشاطات الثوار ومساعدتهم والتحريض على الخليفة.

وفي تاريخ الطبري ترد أسماء ثلاثة منهم:

فعن ابن اسحق انه بعد وساطة علي بن ابي طالب بين الخليفة والثوار فلما مضت الايام الثلاثة وهو على حاله لم يغير شيئا مما كرهوه ولم يعزل عاملا، ثار به الناس وخرج عمرو بن حزم[1] الانصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خشب فأخبرهم الخبر وسار معهم حتى قدموا المدينة!

وعن جعفر المحمدي فلم يزل الناس يقتتلون حتى فتح عمرو بن حزم الانصاري باب داره وهو الى جنب دار عثمان بن عفان ثم نادى الناس عليهم من داره فقاتلوهم في جوف الدار!

وعن الواقدي كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيء جبلة بن عمرو[2] الساعدي، مرّ به عثمان وهو في نادي قومه، وفي يد جبلة بن عمرو جامعة. فلما مرّ عثمان سلّم فردّ القوم، فقال جبلة: لِمَ تردّون على رجل فعل كذا وكذا! ثم أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك او لتتركنّ بطانتك هذه!

فقال عثمان: أيّ بطانة! فوالله اني لا أتخيّر الناس.

---

(1) وبشأن خلفية هذه الشخصية الانصارية يمكن الرجوع الى ما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ان عمرو بن حزم الانصاري وهو من بني مالك بن جشم بن الخزرج كان من صغار الصحابة وانه شهد مع النبي (ص) الخندق واستعمل المصطفى رسول الله(ص) عمرو بن حزم على نجران (بني الحارث) وهو يومئذ ابن 17 سنة، ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب لهم كتابا عهد اليه فيه وأمره بأمره كتابا مشهورا عند اهل العلم!
ولم يشر ابن عساكر في ترجمته الى موضوع حصار عثمان ومقتله.
(2) قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب كان جبلة بن عمرو فاضلا من فقهاء الصحابة. وشهد جبلة بن عمرو صفين مع علي رضي الله عنه، وسكن مصر!

كما ورد ذكر لاسمين آخرين من الأنصار ممن قاموا بمنع دفن الخليفة عثمان في مقبرة البقيع، وهما أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حية المازني، وقالوا «لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً»، روى ذلك الطبري من طريق الواقدي.

وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى رواية نقلا عن مجاهد يبدو فيها وكأنه يبرر المذبحة التي تعرض لها أهل المدينة عام 62 للهجرة على أساس أنها انتقام عادل لموقفهم تجاه عثمان قبل 27 سنة «وبعث يزيد إلى أهل المدينة عشرين ألفاً، فأباحوا المدينة ثلاثاً يصنعون ما شاؤوا لمداهنتهم»

وأهمية هذا النص أنه يشير الى شيوع خبر تخلي المدينة المنورة عن عثمان ورسوخ تلك القناعة لدى الحكام من بني أمية، بل ولدى المؤرخين إجمالاً. فذلك صار من المسلمات.

**التيار العثماني في صفوف الأنصار:**

ولكن عثمان لم يعدم من يتعاطف معه في المدينة. وقد كان هناك تيار صغير في صفوف الأنصار ممن يمكن وصفهم بـ«العثمانية».

وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه أسماء أشهر هؤلاء:

«... ولما كثر هذا الطعن في الأمصار وتواتر بالمدينة وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه وكان له منهم شيعة يذبون عنه مثل زيد بن ثابت[1] وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك[2] وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه...»

---

(1) كان زيد بن ثابت على علاقة ممتازة مع عثمان إلى درجة أن عثمان قد عهد له بمهمة في غاية الخطورة، وهي نسخ المصحف. وقد سبق وناقشنا كيف كان اختيار عثمان لزيد على صغر سنه ومنزلته في الإسلام قد أثار غضب القارئ الشهير عبد الله بن مسعود الذي قال «يا معشر المسلمين، أعزل من نسخ كتاب المصاحف ويولاها رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر» كما ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري.

(2) وكعب بن مالك هذا كان من الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول (ص) يوم تبوك، فنزلت فيهم الآية القرآنية. ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق

وربما أخذ ابن خلدون معلوماته من البلاذري الذي قال في رواية عن الواقدي (أنساب الأشراف ج6 ص175) «ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله (ص) يذبّ عن عثمان ولا ينكر ما يقال فيه إلاّ زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلمة من الأنصار، وحسان بن ثابت الأنصاري».

وقد ذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير عن ابن شهاب قال «بلغني أن كعب بن مالك قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين، يعني في أمر عثمان».

وهؤلاء الذين تعاطفوا مع عثمان كانوا في الواقع من القلّة من أهل المدينة الذين استفادوا من عثمان وحُكْمِه.

فزيد بن ثابت مثلاً كان من المستفيدين البارزين من حكم عثمان. فقد ذكر الطبري أن عثمان بن عفان كان قد ولّى زيد بن ثابت الديوان وبيت المال. كما ذكر أحمد بن حنبل عن قتادة «أن زيد بن ثابت ترك ذهباً وفضة كسّر بالفؤوس»[1].

وقد حاول زيدٌ جهده لإقناع قومه من الأنصار بتأييد عثمان في محنته دون جدوى. روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الواقدي «لما حصر عثمان، أتاه زيد بن ثابت، فدخل عليه الدار. فقال له عثمان: أنت خارج الدار أنفع لي منك ها هنا، فذبّ عنّي!

فخرج، فكان يذبّ الناس، ويقول لهم فيه، حتى رجع أناس من الأنصار. وجعل يقول: يا للأنصار! كونوا أنصاراً لله مرتين، انصروه والله إن دمه لمحرّم»[2].

---

(1) كتاب العلل لأحمد بن حنبل وتاريخ الطبري. كما تحدث المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر عن ثرائه فقال «وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار».

(2) وقد ذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن زيد بن ثابت قال لعثمان وهو محصور «هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنّا أنصار الله مرتين». وكذلك ذكر ابن سعد في طبقاته (ج3 ص70) في رواية لابن سيرين.

والانتماء العثماني لحسان بن ثابت أمر لا يرقى إليه الشك. وقد شاعت وانتشرت قصائده التي يرثي فيها عثمان. وقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن حسانا روى عدة قصائد فيها رثاء حار لعثمان وتحريض على الثأر له.

ومن ذلك قصيدة حسان المشهورة التي يقول فيها:

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليأتِ مأسدةً في دار عثمانا

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

إلى أن يقول محرضاً أهل الشام على الثأر لعثمان:

لتسمعنّ وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

وذكر قصائد أخرى لحسان منها:

قتلتم وليّ الله في جوف داره وجئتم بأمرٍ جائرٍ غير مهتدِ

فلا ظفرت أيمانُ قومٍ تعاونوا على قتل عثمان الرشيد المسدّدِ

وكذلك الانتماء العثماني لكعب بن مالك أمرٌ مسلّمٌ به. وقد ذكر ابن عبد البر أنه رثاه بشعر كثير ومنه قصيدة يقول فيها:

إني رأيتُ قتيل الدار مضطهداً عثمانُ يُهدى إلى الأجداث في كفنِ

يا قاتل الله قوماً كان أمرُهُمُ قتل الإمام الزكيّ الطيب الردنِ

ما قاتلوه على ذنبٍ ألمّ به إلاّ الذي نطقوا زوراً ولم يكنِ

وفي تاريخ الطبري أن عبد الله بن الحسن قد فسّر الموقف العثماني لثلاثة من هؤلاء بقوله:

أما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع.

وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين. فقال أبو أيوب (الأنصاري): ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العِضدان!

فأما كعب بن مالك، فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له؟

وأنا أضيف الى كلام عبد الله بن الحسن بشأن حسان بن ثابت: إنه رغم شهرة حسان في الذب عن رسول الله(ص) بشعره تجاه قصائد الهجاء التي كانت تنهال على رسول الله(ص) من شعراء قريش، مما كان يدخل السرور الى نفسه(ص)، إلاّ أن ذلك لا يغيّر من حقيقة كون حسان شاعراً محترفاً ممن أجادوا البيان واستخدام الأوزان والكلمات لا غير. فلم يكن حسان ممن اشتهر بالورع والتقوى، ولا بالجهاد والبطولة، ولا بحسن السيرة والسلوك. بل على العكس: لقد كان معروفاً بجبنه الشديد الذي كان يجعله يقيم مع النساء والاطفال حين يخرج الرجال ليجاهدوا مع رسول الله(ص) في أيامه، وكان ممن تورط في حادثة الافك حين قذفوا زوجة النبي(ص) عائشة فأقيم عليه الحد. وكان الرسول (ص) يعلم ذلك ولكنه يكتفي منه بما يجيده ويتقنه: الشعر، لحاجته اليه. وشخصٌ من هذا النوع يمكن بكل سهولة للحاكم ان يستميله ويسترضيه بأيسر الأثمان. ويبدو أن عثمان كان يصله ويقربه، فذلك ليس غريباً على خليفة كعثمان ممن فاضت عطاءاته على الكثيرين.

ولذلك ليس غريباً على حسان ان يوجه ذلك الاتهام الصريح لعلي بن ابي طالب بقتل عثمان حين قال في قصيدته المشهورة[2]:

*يا ليت شعري وليت الطير تخبرني   ما كان شأن عليّ وابن عفانا*[1]

وقد تلقف معاوية هذا البيت واستخدمه كثيراً في حربه الدعائية ضد الامام علي.

ولم يكن للعثمانية هؤلاء دورٌ فعال في الدفاع الفعلي عن عثمان. فهم حاولوا إقناع الثوار بالكف عن الخليفة، وإقناع أهل المدينة بعدم التعاطف معهم. ولم يتجاوزوا ذلك إلى خطوات عملية لحماية عثمان.

---

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي

(2) وقد استنكر العلامة ابن عبد البر هذا الاتهام للامام علي. ولذلك عندما تطرق الى قصيدة حسان المشهورة قال: وهو يومي الى هذا البيت فزاد فيه أهل الشام أبياتاً لم أر لذكرها وجهاً - الاستيعاب (ص350).

وسوف نتطرق أكثر إلى المزيد من الشخصيات ذات الميول العثمانية في الجزء الثاني من الكتاب عند الحديث عن بيعة علي بن أبي طالب والمتخلفين منها.

•••••••

لماذا لم يقاوم الخليفة؟ موقف عثمان من الذين حاولوا الدفاع عنه[1]

أجمعت روايات المؤرخين (منهم: البلاذري وخليفة بن خياط وابن سعد وابن شبة وابن قتيبة وابن عبد البر) على أن الخليفة قد رفض مقاومة المهاجمين وأصرّ على الذين عرضوا عليه النصرة ألاّ يشهروا سلاحهم للدفاع عنه. وتم التعبير عن ذلك الموقف بعبارات مختلفة منها: «عزمتُ على من رأى لله عليه سمعاً وطاعة أن يلقي سلاحه»[2] و«أقول لجميع من في الدار: أقسم في حلّ من بيعتي. لا أحب أن يقتل فيّ أحد»[3] و«إن أعظمكم عني غناء رجلٌ كفّ يدَهُ وسلاحه»[4] وما يشبهها من كلمات قالها عثمان لمن أرادوا أن يتصدّوا للذين يحاصرون الخليفة ويوشكون على الفتك به.

وهذا الموقف قد صدر بالفعل عن عثمان. ولا شك بأنه قد قرر عدم المقاومة وطلب ممن ناصروه ألاّ «يهراق فيه محجمة دم»[5]. ولكن لماذا؟ وكيف يمكن للخليفة أن يجعل من نفسه لقمة سائغة لجموع المهاجمين؟

تحاول بعض الروايات أن توحي بأن السبب هو رأفة الخليفة بأتباعه وشفقته عليهم. وبعضها يرد الأمر إلى إيمان عثمان بقضاء الله وقدره. وغيرها تتحدث عن معرفة عثمان بالتهاء أجله اعتماداً على كلام قاله له النبي (ص) بأنه يقتل مظلوماً.

---

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج٥ ص[illegible] و ص[illegible])، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج١ ص[illegible] و ص[illegible])، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج٣ ص[illegible])، تاريخ المدينة لابن شبة (ج٤ ص[illegible])، الاستيعاب لابن عبد البر (ص[illegible])، تاريخ خليفة بن خياط (ص[illegible])، وكتاب الثقات لابن حبان (ج٢ ص[illegible]).

(2) أنساب الأشراف للبلاذري

(3) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد، وقريب منه لدى ابن شبة في تاريخ المدينة.

(5) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

لننظر الى هذه الرواية عن ابن سيرين[1]: «كان مع عثمان يومئذ في الدار سبعمائة لو يدعهم لضربوهم إن شاء الله حتى يخرجوهم من أقطارها ....»

فهل هذا معقول؟ لماذا يروي ابن سيرين مثل ذلك الكلام الذي لا يمكن لعاقل أن يصدقه؟ من الواضح ان هذه الرواية التي تتحدث عن 700 رجل كانوا مع عثمان نابعة من الاحساس بالحرج الذي انتاب ابن سيرين (وكثيرين آخرين) من مدى العزلة التي وجد بها عثمان نفسه بعد تخلي عموم الصحابة واهل المدينة عنه، فأراد ان يحفظ ماء الوجه «للخليفة الراشد» عن طريق القول انه لم يكن منبوذاً. وإلاّ فكيف يسمح هؤلاء ال 700 مناصر للمتمردين بالدخول وقتل الخليفة حتى على فرض أنه أمرهم بالكف؟ ذلك أمر غير ممكن[2]

فما الحقيقة؟ وما السبب الذي جعل عثمان يتخذ ذلك الموقف السلبي؟

الجواب يتلخص في كلمة واحدة: اليأس. لقد فقد عثمان الأمل وأيقن أن مناصريه كانوا من القلة والضعف الى الحد الذي يجعل من العبث أن يطلب منهم القيام دونه في وجه المهاجمين. ولنا على ذلك شواهد عديدة، ومنها ما رواه ابن قتيبة في الامامة والسياسة من أن عثمان كتب كتابا موجها الى عموم المسلمين وأرسله مع نافع بن طريف الى مكة فقرأه على الناس في موسم الحج وفيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى من حضر الحج من المسلمين. أما بعد: فإني كتبت اليكم كتابي هذا وأنا محصور، أشرب من بئر القصر، ولا آكل من الطعام ما يكفيني، خيفة ان تنفد ذخيرتي فأموت جوعاً أنا ومن معي. لا أدعى الى توبة أقبلها، ولا تسمع مني حجة أقولها. فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي إلاّ قدم عليّ فأخذ الحق لي ومنعني من الظلم والباطل»

وهكذا فإن الخليفة يطلب النصرة والعون من عامة الناس، البعيدين،

---

(1) رواها عنه كل من ابن سعد في الطبقات الكبرى والبلاذري في انساب الأشراف.

(2) وهل تمنع على عثمان أصلاً لهذا العدد؟ واما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقد روى «وكان معه في الدار مئة رجل ينصرونه». ولكن حتى رقم ال 100 هذا لا يمكن تصديقه.

ويدعوهم اليه. فكيف يسلّم انه بأمر المحيطين به والراغبين في القيام دونه أن يكفّوا؟ إلاّ أن يكون عثمان قدّر أنه لا يجديه نفعا تأييد بضعة أشخاص وانه يلزمه تأييد عدد كبير من الناس. فالمرجّح أن عثمان يئس من أهل المدينة لما رأى أن أشخاصا معدودين فقط مستعدون للدفاع عنه.

والرواية التالية للبلاذري[2] (أنساب الأشراف) توضح كذلك أن عثمان كان يأمر بالكف عنه يأساً من القدرة على صد المهاجمين، وأنه لو كان يرى أن له ناصرين حقيقيين لأمرهم بالقتال:

*قال له الزبير بن العوام ان في مسجد رسول الله (ص) جماعة يمنعون من الظلم ويأخذونك بالحق. فاخرج فخاصم القوم الى أزواج النبي (ص). فخرج معه فوثب الناس عليه بالسلاح. فقال: يا زبير ما أرى احداً يأخذ بحق ولا يمنع من ظلم*

*ودخل، ومضى الزبير الى منزله!*

ولنا ملاحظة أخرى حول الأشخاص الذين ناصروا عثمان في محنته وأخبروا عن استعدادهم للقتال في سبيله. فمعظم هؤلاء — على ظنّهم — لم يكونوا جادين في إعلانهم عن الجاهزية للدفاع المسلح عن الخليفة. بل يبدو لي أنهم كانوا بصدد تسجيل موقف ليس إلاّ. وذلك بيّنٌ من طريقة كلامهم وموقفهم الاستعراضية لإشهار السيف بوجه من يهددون عثمان. وإلاّ لماذا يصرّ هؤلاء على «الاستئذان» من عثمان؟! الموقف لا يحتمل، والرجل مهددٌ في حياته بين لحظة وأخرى، ثم يأتي من يسأله: هل نقاتل عنك ام لا؟! فلا يمكن أن يكون السائل جدياً، بل انه في الحقيقة يأتي وهو يعرف بأن جواب عثمان الأكيد سيكون أمراً بالكف، لأن عثمان لا يمكن أن يلقي بمحبّيه الى التهلكة. والنتيجة أن السائل يعطي نفسه عذراً بالقعود ويُريح ضميره، عن طريق ذلك «الاستئذان» من عثمان! وفي ذات الوقت يقول انه عمل ما عليه وكان مستعداً للتضحية لولا أن الخليفة منعه من ذلك!

---

(٢) روى مثلها أيضاً ابن شبة في تاريخ المدينة.

ومن هؤلاء أبو هريرة.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

«روى سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: إني لمحصور مع عثمان رضي الله عنه في الدار، قال: فرُمي رجلٌ منا فقُتل، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، الآن طاب الضِراب! قتلوا منا رجلاً.

قال: عزمتُ عليك يا أبا هريرة إلاّ رميتَ سيفك، فإنما تراد نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي.

قال أبو هريرة: فرميتُ سيفي لا أدري أين هو حتى الساعة»[1]

ومن هؤلاء أيضا عبد الله بن الزبير.

فقد ذكر ابن سعد في طبقاته رواية ابن أبي مليكة عن ابن الزبير قال لعثمان: إن معك في الدار عصابة مستنصرة ينصر الله بأقل منهم فأذن لي فلأقاتل»

وفي رواية أخرى – عن عروة بن الزبير – أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان «قاتلهم! فوالله لقد أحل الله لك قتالهم» وأنه قد كان عثمان أمّر عبد الله بن الزبير على الدار وقال عثمان: من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير»[2]

وأما عبد الله بن عمر، فرغم أن هناك روايات تشير إلى استعداده للقتال[3] إلا أن ذلك مستبعد لأنه لم يكن من نوعية الرجال المقاتلين أولاً، ولأن تلك الروايات وردت من طريق نافع مولاه الذي ربما أراد رفع شأن سيده. والأصح

---

(1) كلام أبي هريرة هذا وقوله «الآن طاب أم ضراب» وسيفه الذي ألقاه فلم يجده بعدها رواه بصيغ متباينة خليفة بن خياط في تاريخه وابن سعد في طبقاته وابن قتيبة في الإمامة والسياسة وابن شبة في تاريخ المدينة.

(2) وتظهر في الرواية محاولة عروة بن الزبير تعظيم شأن أخيه عبد الله أثناء حصار عثمان، وجزء من كلام ابن الزبير هذا سجله أيضا خليفة بن خياط في تاريخه.

(3) ذكر خليفة بن خياط في تاريخه عن نافع أن ابن عمر كان يرعد متقلداً سيفه حتى عزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يقتل، وذكر أيضا عن نافع أن ابن عمر لبس الدرع يوم الدار مرتين»

أن ابن عمر اكتفى بإسداء النصح للخليفة بأن يتمسك بمنصبه ويرفض الاعتزال كما مر معنا. كما روى ابن قتيبة[1] أن ابن عمر سأل عثمان «يا أمير المؤمنين: مع من تأمرني أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك؟ قال: عليك بلزوم الجماعة...» وذلك السؤال ليس بجديد على ابن عمر.

وقد تلقى عثمان اقتراحات بتهريبه خلسة إلى خارج المدينة، فرفضها. فقد روى ابن قتيبة[2] أن المغيرة بن شعبة دخل على عثمان فاقترح عليه أن يتم تهريبه عن طريق باب يُخرق له إلى مكة أو إلى الشام.

وروى ابن شبة[3] أن أسامة بن زيد بعث مولاه ربطة إلى عثمان ليقترح عليه أن ينقبوا له الدار ليخرج «حتى تلحق بمأمنك. حتى يقاتل من أطاعك من عصاك» ولكن عثمان رفض. وفي رواية أخرى «ودخل أسامة على عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي ظهيراً ظهيراً ورجالاً جلداً من قومي من هذا الحي من كلب، فاخرج معي حتى أقدم بك الشام على أنصارك. فيضرب المقبل المدبر» ولكن عثمان رفض أيضاً.

وأما حديث بعض المؤرخين عن الفتية من قريش» دافعوا عن عثمان وخرجوا من بيته وقد تلطخوا بالدماء فلا يعدو كونه مبالغات هدفها القول بأن كبار الصحابة لم يتخلوا عن عثمان وأنهم إن لم يقوموا هم بأنفسهم بالدفاع عنه فقد أرسلوا أبناءهم. روى ابن حبان في كتاب الثقات «قال عليّ للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقفا على باب عثمان ولا تدعا أحداً يصل إليه. وبعث الزبير ابنه، وبعث طلحة ابنه، وبعث عدة من أصحاب رسول الله (ص) أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان.

ورماه الناس بالسهام حتى خضب الحسن بالدماء وتخضب محمد بن طلحة وشج قنبر مولى علي»[4]

---

(1) الامامة والسياسة لابن قتيبة.
(2) الامامة والسياسة وأيضاً ابن شبة في تاريخ المدينة.
(3) تاريخ المدينة.
(4) وروى مثل ذلك ابن قتيبة في الامامة والسياسة وهنا يوجد تناقض لدى ابن قتيبة فهو نفسه روى في موضع آخر من كتابه أن طلحة كان يحرض الثوار على عثمان فكيف يرسل ابنه للدفاع عنه معرضاً حياته للخطر؟!

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب قال: شهدتُ مقتل عثمان. فأخرج من الدار أمامي أربعة من شبان قريش ملطخين بالدم محمولين، كانوا يدرؤون عن عثمان رضي الله عنه: الحسن بن علي[1]، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم»[2]

وتذكر بعض المصادر أسماء شخصيات أخرى، غير مشهورة، ممن عرضوا النصرة على عثمان. فمثلاً ذكر خليفة بن خياط في تاريخه اسمي «سليط بن سليط» و«عبد الله بن عامر بن ربيعة»[3] من ضمن هؤلاء.

دفاع ابن سلام عن عثمان: نبوءات من التوراة والقرآن !؟[4]

والمتتبع لأخبار المدافعين عن عثمان خلال تلك الأيام العصيبة يستطيع أن يميز موقف الصحابي عبد الله بن سلام عن غيره. فخلافاً للآخرين كان ابن سلام يتحدث بلهجة العارف الغيب بما ستصير إليه الأمور، ويذكر أخباراً ونبوءات فيها تفاصيل مثيرة عن الله والملائكة ويوم القيامة لا يعرفها غيره.

---

(1) تبالغ بعض المصادر في إظهار مدى الدعم الذي تلقاه عثمان من الحسن بن علي بالذات. ومن ذلك رواية ابن شبة في تاريخ المدينة التي يعبر فيها الحسن بحرقة عثمان على القتال: قال له الحسن بن علي: يا أمير المؤمنين علام تمنع الناس من كلامهم؟ فقال: أقسمتُ عليك يا ابن أخي لما كففت يدك ولحقت بأهلك، فلا حاجة لي في هراقة الدماء.

(2) وكذا ابن شبة في تاريخ المدينة فيذكر أسماء رجال بني أمية من ضمن الشبان قريش الذين خطروا معه دار، وهو محصور: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن زمعة، ومولى سعيد بن أبي البختري، ومروان والحارث وعبد الرحمن بنو الحكم، وعبد الله بن خالد بن أسيد، وحبة بن أبي سفيان. ولنا حديث سيأتي بشأن مروان وبقية بني أمية أثناء تلك الأحداث.

(3) وأيضاً روى ابن سعد في طبقاته: قال عبد الله بن عامر بن ربيعة: قال عثمان يوم الدار: إن أعظمكم عني غناءً رجلٌ كفّ يده وسلاحه.

(4) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص[illegible])، تاريخ الطبري (ج3 ص[illegible])، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص [illegible])، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص[illegible])، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 ص[illegible])، تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ج4 ص1175–1186)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج[illegible] ص335)، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج13 ص[illegible]).

وفيما يلي استعراض لبعضها:

ففي متابعة لروايات ابن قتيبة (الامامة والسياسة) حول المدافعين عن عثمان يقول: ان عبد الله بن سلام الذي كان مع عثمان في الدار، أطل على المتمردين فوعظهم ونصحهم وألقى عليهم خطبة طويلة قال فيها ان الله سيغضب وانّ عشر الفا من الملائكة سيفترقون من حول المدينة إن قتل عثمان، وانه يجد في التوراة التي انزلت على موسى ان عثمان هو الخليفة المظلوم الشهيد ! فأجابه الناس «يا يهودي: أشبع بطنك واكس ظهرك»

ويلاحظ كيف يحدد ابن سلام بدقة عدد الملائكة الذين سيفترقون من حول المدينة! وكيف يؤكد على أن التوراة الحقيقية التي انزلت على موسى تتحدث عن عثمان المظلوم.

روى الطبري في تاريخه من طريق سيف:

*فأقبل عبد الله بن سلام حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال: يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم فوالله إن سللتموه لا تغمدوه. ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة فإن قتلتموه لا يقم إلا بالسيف. ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتتركنها !*

*فقالوا يا ابن اليهودية! وما أنت وهذا؟ فرجع عنهم!*

ورواية الطبري هذه أهون قليلا من رواية الامامة والسياسة. فهي لا تحدد عدد الملائكة الذين سيتركون المدينة إن قتل عثمان، رغم تأكيدها على الغضب الالهي.

وروى السيوطي في تاريخ الخلفاء عن عبد الرزاق في مصنفه «كان عبد الله بن سلام يدخل على محاصري عثمان فيقول: *لا تقتلوه، فوالله لا يقتله رجل منكم إلاّ لقي الله أجذم لا يد له وان سيف الله لم يزل مغموداً، وانكم والله إن قتلتموه ليسلنه الله ثم لا يغمده عنكم أبداً. وما قتل نبي قط إلاّ قتل به سبعون ألفاً، ولا خليفة إلاّ قتل به خمسة وثلاثون ألفاً قبل أن يجتمعوا*»

وهنا يؤكد ابن سلام معرفته بعقاب قاتل عثمان يوم القيامة وكيف ستكون هيئته! كما يحدد أعداد الضحايا الذين سيسقطون من الأمة إن قتل الخليفة.

وقد روى ابن سعد بأسانيده في الطبقات الكبرى أقوال ابن سلام:

«قال أخبرنا أبو معاوية الضرير قال أخبرنا الأعمش عن أبي صالح قال: سمعت عبد الله بن سلام يوم قتل عثمان يقول: والله لا تهريقون محجما من دم إلا ازددتم به من الله بعدا.

قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث عن طاوس قال: سئل عبد الله بن سلام حين قتل عثمان كيف تجدون صفة عثمان في كتبهم؟ قال: نجده أميرا يوم القيامة على القاتل والخاذل.

قال أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن ليث عن طاوس قال قال عبد الله بن سلام: يحكم عثمان يوم القيامة في القاتل والخاذل»

فعثمان، كما تذكر التوراة التي لدى ابن سلام، سيكون يوم القيامة حاكماً فيمن قتلوه وخذلوه.

وروى ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح أن عبد الله بن سلام خاطب الثائرين فقال لهم:

«... فأنشدكم الله أن لا تطردوا جيرانكم من الملائكة وأن لا تسلوا سيف الله المغمود فإن الله عز وجل سيفا لم يسله قط على قوم حتى يسلوه على أنفسهم فإذا سلوه لم يغمده عنهم إلى يوم القيامة .

فإياكم وقتل هذا الشيخ ! فإنه خليفة، ووالله ! ما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفا من أمته عقوبة لهم، ولا قتل خليفة من بعده إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا، فاتقوا الله ربكم في هذا الشيخ .

قال: فناداه من كل جانب: كذبت يا يهودي !

فقال عبد الله بن سلام: بل كذبتم أنتم لست بيهودي ولكني تركت اليهودية وتبرأت منها وانتصرت الله ورسوله...»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة أخبار ابن سلام أثناء حصار عثمان وكيف أنه بقل مجهوداً في التأكيد للمهاجمين بضرورة الكف عن عثمان وعدم قتله- رغم أنه متأكد أنهم سيقتلونه - لأنه على يقين أنه بكل الأحوال لن يعيش أكثر من أربعين يوما! وقال لهم ان من يقتل عثمان سيلقى الله يوم القيامة ويده مشلولة مقطوعة لم سيلقاه وهو أجذم! وأن عثمان سيحكم يوم القيامة في

القاتل والمقتول. وأعلن ابن سلام أنه في كتاب الله المنزل: انه ليس من قوم يقتلون خليفتهم إلا قتل الله به خمسة وثلاثين ألفاً، ولا لقوم يقتلون نبيهم إلاّ قتل الله به سبعين ألفاً. والذي نفسي بيده: لا ترجع الخلافة الى أرض الحجاز أبداً. ولا يجاوز خاتم النبوة فيها إلاّ حاجاً أو معتمراً». وتقول الروايات ان عثمان نفسه قد أرسل لابن سلام يسأله عما يرى فأجابه «إنك لفي كتاب الله الخليفة المقتول المظلوم»

ومن الواضح أن ابن سلام يقصد التوراة بقوله «كتاب الله المنزل» لأن القرآن موجود ومعروف وليس به كلام عن القوم الذين يقتلون خليفتهم فيقتل منهم 35 ألفاً، ولا عن ان عثمان هو الخليفة المظلوم!

والملاحظ في هذه الروايات ان المهاجمين لم يزدهم كلام ابن سلام إلاّ غضبا وهياجاً، فاتهموه بأنه يهودي وقد أشبع عثمان بطنه، وحصبوه، وظاهرٌ من رد فعل الثائرين أنهم لم يكونوا يعترفون بجدية اسلام عبد الله بن سلام، بل يردونه دوماً الى مرجعيته اليهودية الاصلية.

وانا لا أستبعد صحة الروايات عن موقف ابن سلام وما قاله. فهو، وغيره من اليهود الذين أسلموا، كانوا كثيرا ما يميزون أنفسهم عن العرب المسلمين بإظهار معرفتهم بالتوراة وما بها فيحدثون من أخبارها ورواياتها ويتكلمون عن موسى ودينه، وكان البعض يسمع لهم باعتبارهم اهل العلم والكتاب الاول. ولكن لسوء حظ ابن سلام لم يلق كلامه قبولاً لدى المتمردين فحصبوه وشجوه.

وجديرٌ بالذكر انه كانت لابن سلام تنبؤات من التوراة بخصوص الخليفة عمر بن الخطاب أيضاً! ومن ذلك

ما رواه ابن عساكر بسنده في تاريخ دمشق أن ابن سلام قال مخاطباً الخليفة عمر بن الخطاب «أخبرني أبي عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل عليه السلام أنه قال يكون في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) رجل يقال له عمر بن الخطاب أحسن الناس دينا وأحسنهم يقينا ما دام بينهم الدين عالي والدين فاشي واستمسك بالعروة الوثقى من الدين فجهنم مقفلة فإذا مات عمر يرق الدين ويقل اليقين وتقل أنصار الصالحين وافترق الناس على فرق من الأهواء وفتحت أقفال جهنم فيدخل في جهنم من الأمتين كثير»

وبالاضافة الى ابن سلام فإن كعب الاحبار قد تميز برواياته الاسرائيلية الكثيرة التي اختلطت بكلام النبي (ص) عن طريق صديقه أبي هريرة.

وكان هؤلاء اليهود الذين أسلموا ناجحين في التقرب الى الحاكمين. فكانوا يروون لهم نبوءات وأخبار من توراة اليهود. وكعب الاحبار كان مقرباً من الخليفة عمر بن الخطاب ويروي له انه يجد صفته في التوراة!!

ومن ذلك ما رواه ابن حجر في فتح الباري ان عمر دخل على ام كلثوم بنت علي زوجته فوجدها تبكي فقال: ما يبكيك؟

قالت: هذا اليهودي - لكعب الاحبار - يقول انك باب من أبواب جهنم.

فقال عمر: ما شاء الله! ثم خرج فأرسل الى كعب فجاءه.

فقال: يا أمير المؤمنين. والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة.

فقال: ما هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار؟

فقال: انا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يتقحموا فيها، فإذا مت اقتحموا!

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبري في تاريخه في سياق حديثه عن اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب:

فجاءه كعب الاحبار فقال له: يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام.

قال: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة!

قال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟

قال: اللهم لا، ولكني أجد صفتك وحليتك، وانه قد فنى أجلك!

قال وعمر لا يحس وجعاً وألماً

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين، ذهب يوم وبقي يومان.

قال ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك الى صبيحتها

قال: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة ....»

ومن بعد عمر، كان كعب الأحبار من بطانة عثمان الذي كان يقربه ويستشيره حتى في القضايا الشرعية. وقد سبق وذكرنا قصة الصدام الذي جرى بين أبي ذر الغفاري وكعب الأحبار بحضرة عثمان بشأن تركة عبد الرحمن بن عوف.

هل كان معاوية متواطئاً؟[1]

وهنا من المفيد التطرق إلى موضوع موقف معاوية أثناء حصار عثمان.

فالكثير من المصادر التاريخية تشير إلى أن معاوية قد تباطأ في نجدة عثمان، وتلمح أو تصرح إلى أنه بشكل أو بآخر تواطأ من أجل أن يقتل عثمان ويحمله مسؤولية ترك الخليفة يواجه مصيره دون مدد.

فمثلاً روى اليعقوبي في تاريخه أن عثمان «كتب إلى معاوية يسأله تعجيل القدوم عليه. فتوجه إليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال: كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره. فأتى عثمان فسأله عن المدة، فقال: قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم.

قال: لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول: أنا ولي الثأر! ارجع فجئني بالناس.

فرجع فلم يعد إليه حتى قتل.»

ولكن هل يعقل أن معاوية، حسب هذه الرواية، يترك قواته على حدود الشام ثم يذهب منفرداً إلى الخليفة المحصور فيجتمع إليه ثم يعود لاستقدامهم؟! ولا يوجد أي خبر عن هذا الاجتماع المزعوم بين عثمان ومعاوية في تلك الفترة العصيبة في أي مصدر تاريخي. وهل يمكن أصلاً تخيّل أن معاوية يدخل المدينة وهو بلا قوات ثم يخرج منها سالماً، وهي التي كانت تعج بالثائرين على عثمان والذين كان معاوية من أبرز مطاليبهم؟

ووردت في تاريخ المدينة لابن شبة عن جويرية «أرسل عثمان رضي الله

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1288)، تاريخ الطبري (ج3 ص402)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص34 وص37)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص160) وأسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص357).

عنه إلى معاوية رضي الله عنه يستمده. فبعث معاوية رضي الله عنه يزيد بن أسد -جد خالد القسري- وقال له: إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ولا تتجاوزها ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. قال: أنا الشاهد وأنت الغائب.

فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان رضي الله عنه.

فقلت لجويرية: لم صنع هذا؟

قال: صنعه عمداً ليقتل عثمان رضي الله عنه فيدعو إلى نفسه».

ولم توضح هذه الرواية لماذا يتجشم معاوية عناء إرسال جيش من الشام ليقف على تخوم المدينة (يعني خشب) ثم لا يدخلها لحماية الخليفة؟! فلو كان يريد التقاعس عن نصرة عثمان لكان الجدير به ألا يرسل قواتٍ أصلاً.

ووردت رواية أخرى يتهم فيها المسور بن مخرمة معاوية بأنه تخاذل عن نصرة عثمان «وكتب يستمده بالجند، فحبسهم عنه، حتى قتل وهم بالزرقاء (مدينة بالشام)».

وروى الطبري في تاريخه من طريق ابن السائب الكلبي:

«فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول.

فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد علم اجتماعهم.

فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز وإلى أهل الشام يستنفرهم ويعظم حقه عليهم ويذكر الخلفاء وما أمر الله عز وجل به من طاعتهم ومناصحتهم ووعدهم أن ينجدهم جند أو بطانة دون الناس وذكرهم بلاءه عندهم وصنيعه إليهم فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإن القوم معاجلي.

فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر عثمان فعظم حقه وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه فتابعه ناس كثير وساروا معه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان رضي الله عنه فرجعوا»

وحسب هذه الرواية فإن عثمان يبلغ به اليأس من استجابة معاوية الى حد الكتابة مباشرة الى قيادات من أهل الشام! وأن هؤلاء قد استجابوا له دون إذن معاوية! ولكن من المسلم به تاريخياً أن سيطرة معاوية على الشام كانت محكمة فكيف تسير قواتٌ وجيوشٌ من عنده رغماً عنه؟ كما أن الرواية تقول ان معاوية كره مخالفة اجماع أصحاب النبي(ص)، مما يعني أن الصحابة كانوا مجتمعين على حصار عثمان وخلعه وقتله؟! ثم متى كان معاوية يقيم وزنا للصحابة وهو الذي كان وجه اليهم تحقيراً بل تهديداً صارخاً في آخر زيارة له الى المدينة؟!

تلك الروايات كلها غير صحيحة، أو بالأحرى هي محرفة بهدف توجيه تهمة التواطؤ لقتل عثمان الى معاوية. والسبب الذي يجعل البعض يصدق تلك التهمة بحق معاوية هو أنه قد استفاد بالفعل من مقتل عثمان الذي اتخذ وسيلة للوصول الى أهدافه بالاستيلاء على الخلافة. ولكن استخدام معاوية واستغلاله اللاحق لحادثة مقتل عثمان لا يعني أنه كان مساهماً فيه، فليس هناك أي أساس تاريخي لتلك التهمة. وانما المسألة أن سلوك معاوية وسياسته الانتهازية تجعله خليقاً لدى الكثيرين بتلك التهمة!

فالذي حدث تاريخياً أن عثمان قد أرسل بالفعل يستنجد بمعاوية في الشام كي يهب لانقاذه. وتبدو رواية الامامة والسياسة لابن قتيبة الأقرب الى الصحة:

*فكتب الى أهل الشام عامة، والى معاوية وأهل دمشق خاصة: أما بعد، فإني في قوم طال فيهم مقامي واستعجلوا القدر فيَّ. وقد خيروني بين أن يحملوني على شارف من الإبل الى دخل (جزيرة في اليمن)، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني، وبين أن أقيدهم ممن قتلتُ. ومن كان على سلطان يخطئ ويصيب.*

*فيا غوثاه يا غوثاه! ولا أمير عليكم دوني. فالعجل العجل يا معاوية! وأدرك ثم أدرك، وما أراك تدرك».*

والأرجح أن مبادرة معاوية بإرسال نجدة عسكرية لإنقاذ الخليفة كانت في الرمق الأخير التي قصمت ظهر البعير والتي عجلت في قيام الثوار بقتل عثمان. أي بعبارة أخرى ان استجابة معاوية لنداء عثمان قد

سرّحت في مقطعه، وليس تقاعسه الذي أدى لذلك. تابع في رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة أن الخبر قد جاء إلى الثوار أثناء حصار عثمان عن معاوية *قد بعث من الشام يزيد بن أسد مَدَداً لعثمان في أربعة آلاف من أهل الشام، فاصنعوا ما أنتم صانعون وإلاّ فانصرفوا*» وكذلك روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة «... *فلما سمع القوم إقبال أهل الشام، فاموا فألهبوا النار بباب عثمان*...»

فالثوار أصبحوا تحت ضغط زمني شديد لكي ينتهوا من الأمر الذي هم بشأنه. فلم يعُد أمامهم متسع مفتوح من الوقت لكي يتصرفوا. فجنود معاوية قادمون في الطريق، وعليهم اتخاذ قرار: يجب على عثمان أن يستسلم، وبأي طريقة كانت، ويقبل بعزل نفسه عن منصبه ويسرعة، وإلاّ كان عليهم مواجهة الجنود القادمين من الشام. ولو وصل جنود معاوية لهم حتماً قادرون على حماية عثمان وحينها يكون قد أسقط بيد الثوار وخاب كل جهدهم. فمعنى ذلك انه ليس فقط سيستمر عثمان في منصبه وسياسته رغماً عن أنف الجميع، ولكن أيضاً سوف تتعزز مكانة معاوية وترتفع إلى عنان السماء في دولة عثمان! كيف لا وهو حينها سيكون الحامي للخليفة والضامن لاستمرار حكمه! وبذلك سيكون مصير الثوار قد ارتد محكوماً عليهم، وهذا ما لا يستطيعون تحمله!

ولقد ذكر العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب[1] *أن معاوية قد وجّه حبيب بن مسلمة بجيش إلى نصر عثمان بن عفان، فلما بلغ وادي القرى بلغه مقتل عثمان، فرجع*!

ولم يشر إلى تخاذل ولا تأخير من قبل معاوية. وبرغم اللبس الذي يتعلق بشخص القائد العسكري الذي أرسله معاوية مدداً لعثمان – يزيد بن أسد القسري في الامامة والسياسة أو حبيب بن مسلمة الفهري لدى ابن عبد البر – إلاّ أن ذلك ليس سبباً وجيهاً للشك في خبر استجابة معاوية وقيامه بإرسال قوات، ولكنها لم تصل في الوقت المناسب فعادت ادراجها من حدود الشام عندما بلغها نبأ مقتل الخليفة.

---

(1) وأيضاً ذكر ابن الأثير في أسد الغابة نفس هذا الخبر مع تحديد عدد القوات التي أرسلها معاوية مع حبيب بن مسلمة الفهري، وهو أربعة آلاف.

## الفصل الرابع: النهاية المأساوية للخليفة

### عملية القتل[1]

استمر حصار عثمان في داره 40 أو 45 أو 49 يوماً حسب الروايات، وسبقتها الفترة التي لم يكن فيها عثمان محصوراً. وهذه فترة طويلة شنيعة جداً بكل تأكيد: منهكة للثوار أنفسهم، ولعثمان، وللصحابة الموجودين في المدينة ولكل سكانها أيضاً.

وقد صورت المصادر كيف كان عثمان يحاول إقناع المهاجمين بالكف عنه. وكثير منها يرسم صوراً محزنة للخليفة وهي تتحدث عن لجوئه – بلا جدوى – إلى تعداد مناقبه الاسلامية في جهد منه للتأثير عليهم. ومن ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: لما حصر عثمان *أشرف عليهم فوق داره ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن حراء حين انتفض قال رسول الله (ص): اثبت حراء فليس عليك إلاّ نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: نعم!*

*قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله (ص) قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزتُ ذلك الجيش؟ قالوا: نعم!*

---

(1) مصادر هذا البحث: كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص264)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص73–74)، تاريخ خليفة بن خياط (ص130)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1222 + ص1280 + ص1300)، تاريخ الطبري (ج4 ص411–425)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص46)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص1048)، سنن الترمذي (ج5 ص288)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص176)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص158–161)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص178).

ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلاّ بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم!

وأشياء عددها[1]

ولكن كانت الجموع الثائرة قد وصلت إلى نقطة اللاعودة في صراعها مع عثمان. وكان القتل هو النتيجة الطبيعية للموقف كله.

وتوجد روايات كثيرة حول تفاصيل عملية القتل، ومَن الذين باشروا بتنفيذها فعلاً.

روى ابن حبان في كتاب الثقات «... ثم أخذ محمد بن أبي بكر بيد جماعة، وتسوّر الحائط من غير أن يعلم به أحد، من دار رجل من الأنصار، حتى دخلوا على عثمان وهو قاعدٌ والمصحف في حجره ومعه امرأته والناس فوق السطح لا يعلم أحد بدخولهم.

فقال عثمان لمحمد بن أبي بكر: والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني. فرجع محمد.

وتقدم اليه سودان بن رومان المرادي، ومعه مشقص، فوجأه حتى قتله وهو صائم.

ثم خرجوا هاربين من حيث دخلوا

.... وكان تمام حصاره خمسة وأربعين يوماً»

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى :

«أن محمد بن أبي بكر تسوّر على عثمان من دار عمرو بن حزم، ومعه كنانة بن بشر بن عتاب وسودان بن حمران وعمرو بن الحمق، فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف سورة البقرة.

فتقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال: قد أخزاك الله يا نعثل!

---

(1) ولا مانع من قبول مثل هذه الروايات، مع التحفظ على بعض مضامينها، لمحاولة إيحائها المهاجمين بندم على كل ما فعله الخليفة من نفسه.

فقال عثمان: لستُ بنعثل، ولكن عبد الله وأمير المؤمنين.

فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية ولا فلان

فقال عثمان: يا ابن أخي أدع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه!

فقال محمد: ما أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك.

فقال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به.

ثم طعن جبينه بمشقص في يده، ورفع كنانة بن بشر بن عتاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف حتى قتله»

وفي رواية ابن أبي عون «ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد فخر لجنبه، وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله(1).

أما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال: أما ثلاث منهن فإني طعنتهن لله وأما ست فإني طعنت إياهن لما كان في صدري عليه»

وأضف مزيداً من التفاصيل المؤثرة :

«أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني الزبير بن عبد الله عن جدته قالت: لما ضربه بالمشاقص قال عثمان: بسم الله توكلتُ على الله. وإذا الدم يسيل على اللحية يقطر، والمصحفُ بين يديه. فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: سبحان الله العظيم، وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيلُ على المصحف حتى وقف الدم عند قوله تعالى: (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)، وأطبق المصحف وضربوه جميعاً ضربة واحدة. فضربوه والله -بأبي هو- يحيي الليل في ركعة ويصل الرحم ويطعم الملهوف ويحمل الكل فرحمهُ الله»

ورد في الإمامة والسياسة لابن قتيبة :

«... فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه، وقعد على صدره وأخذ

بلحيته، وقال: يا نعثل ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عامر وابن أبي سرح.

فقال له عثمان: لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكى عليّ، ولساءه مكانك مني. فتراخت يده عنه، وقام عنه وخرج.

فدعا عثمان بوضوء فتوضأ، وأخذ مصحفاً، فوضعه في حجره ليتحرم به، ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص في يده فوجأ به منكبه مما يلي الترقوة، فأدماه ونضح الدم على ذلك المصحف.

وجاء آخر فضربه برجله، وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه، فغشي عليه، ومحمد بن أبي بكر لم يدخل مع هؤلاء، فتصايح نساؤه، ورششن الماء على وجهه فأفاق.

فدخل محمد بن أبي بكر وقد أفاق فقال له: أي نعثل، غيرت وبدلت وفعلت.

ثم دخل رجل من أهل مصر، فأخذ بلحيته، فنتف منها خصلة، وسل سيفه، وقال: أفرجوا لي فعلاه بالسيف، فتلقاه عثمان بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها أول يد خطت المفصل، وكتبت القرآن!

ثم دخل رجل أزرق قصير محدر، ومعه جرز من حديد، فمشى إليه فقال: على أي ملة أنت يا نعثل؟

فقال: لست بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين.

قال: كذبت. وضربه بالجرز على صدغه الأيسر فقتله الدم وخر على وجهه، وحالت نائلة بنت الفرافصة زوجته بينه وبينه، وكانت جسيمة، وألقت بنت شيبة نفسها عليه، ودخل عليه رجل من أهل مصر، ومعه سيف مصلت، فقال والله لأقطعن أنفه، فعالج امرأته عنه، فكشف عنها درعها. فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها، فضربت على السيف، فقطع أناملها، فقالت: يا رباح، غلام لعثمان أسود ومعه سيف، أعن عني هذا فضربه الأسود

فقتله. ثم دخل آخر معه سيف فقال: أفرجوا لي، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان، فأمسكت نائلة زوجه السيف، فحز أصابعها، ومضى السيف في بطن عثمان فقتله، فخرجت امرأته وهي تصيح، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا»

وروى خليفة بن خياط في تاريخه عن وثاب قال: جاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً فأخذ بلحيته فعال بها حتى سمعت وقع أضراسه.

وقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك!

فقال: أرسل لي لحيتي يا ابن أخي.

قال: فأنا رأيته استعدى رجلاً من القوم بعينه، يعني أشار إليه، فقام إليه بمشقص فوجأ به رأسه.

قلت: ثم مه؟ قال: ثم تعاوروا عليه والله حتى قتلوه رحمه الله»

وروى عن الحسن أن ابن أبي بكر أخذ بلحيته فقال عثمان: لقد أخذت مني مأخذاً أو قعدت مني مقعداً ما كان أبوك ليقعده! فخرج وتركه.»

وروى عن ابن عمر: ضربه ابن أبي بكر بمشاقص في أوداجه، وبعجه سودان بن حمران بحربة»

وروى عن قتادة: الذي ولي قتل عثمان رومان، رجل من بني أسد بن خزيمة. أخذ ابن أبي بكر بلحيته وذبحه رومان بمشاقص كانت معه»

وروى عن كنانة مولى صفية أن الذي قتل عثمان رجل من أهل مصر يقال له خالد بن الحارث»

ولم تخل روايات خليفة من هجاء القاتلين. فهي تتحدث عنهم وكأنهم وحوش من غير بني البشر! فبعضها تذكر هجاء رويجل كأنه ذئب! وبعضها تقول: فدخل عليه رجل من بني سدوس يقال له الموت الأسود فخنقه قبل أن يضرب بالسيف»

وأيضاً لم يتسنّ خليفة وروايته إضافة التفاصيل المرافية للحادث! فذكر أن أول قطرة من دم عثمان سالت فوقعت على المقطع من المصحف الذي فيه «فسيكفيكهم الله»! وأيضاً أن رجلاً ضرب عثمان بالسيف والمصحف معه فقطعت يده فقال له عثمان ان تلك اليد التي قطعها أول يد خطت المصحف!

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة عن صالح بن كيسان «دخل عليه محمد بن ابي بكر بشرِيان كان معه فضربه في حشائه حتى وقعت في أوداجه فخر.

وضرب كنانة بن بشر جبهته بعمود،

وضربه سودان بن حمران بالسيف.

وقعد عمرو بن الحمق على صدره فطعنه تسع طعنات وقال: علمتُ انه مات في الثالثة فطعنته ستاً لما كان في قلبي عليه!

وروى عن يزيد بن ابي حبيب ان الذي تولى قتل عثمان هو هلال بن رومان بن هلال الاصبحي. كما روى عن نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان شعراً تتهم فيه كنانة بن بشر التجيبي بقتله.

وبالإضافة الى هذه الروايات المختصرة أخرج أيضاً روايات فيها تفاصيل مأساوية عن لحظات عثمان الأخيرة. ومن ذلك رواية تقول ان المتمردين اقتحموا دار عثمان واعتلوا عليه بالضرب حتى أغمي عليه بعد أن سال دمه، فأفاقه نساؤه بعد أن مسحن وجهه بالماء فدخل محمد بن ابي بكر بعد ذلك وهو يرى أنه قد قتل. فلما رآه قاعداً قال: ألا أراكم قياماً حول نعثل!! وأخذ بلحيته فجرّه من البيت الى باب الدار وهو يقول: بدّلت كتاب الله وغيرته يا نعثل.

فقال عثمان رضي الله عنه: لستُ بنعثل ولكني أمير المؤمنين، وما كان أبوك ليأخذ بلحيتي.

فقال محمد: لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول (ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل).

ودخل رجل من كندة تجيبي من أهل مصر مخترطاً بالسيف فقال: اخرجوا اخرجوا. فأخرج الناس فطعن في بطنه.

نجاءته امرأته بنت الفرافصة الكلبية تمسك السيف. فقطع أصابعها».

كما أخرج روايات تقول بعضها ان الذي قتله كان عمرو بن بديل الخزاعي، وأخرى تقول ان القاتل كان رجلاً من أهل مصر اسمه جبلة، وأخيرة تقول ان القاتل كان نيار بن عياض الاسلمي.

كما أخرج الروايات التي تقول ان دم عثمان سال على المصحف، وبالتحديد قطر على آية (فسيكفيكهم الله).

وأغرب الروايات وطأة فيما يتعلق بمحمد بن أبي بكر هي تلك التي وردت عن كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب والتي يجيب فيها من سأله إن كان محمد يؤخذ بدم عثمان فأجاب «معاذ الله. دخل عليه فقال له عثمان رضي الله عنه: لست بصاحبي. وكلمه بكلام فخرج ولم يند بشيء من دمه.

فقلتُ لكنانة: من قتله؟ قال: رجل من أهل مصر يقال له جبلة بن الأيهم!»

وعلق ابن شبة: «فهذان المحدثان يبرئان محمد بن ابي بكر من أن يكون نوى قتل عثمان رضي الله عنه. وسائر الأحاديث جاءت بخلافهما»

ولستُ أدري كيف أدخل جبلة بن الأيهم، وهو الذي له شؤون مع عمر بن الخطاب، في هذا الأمر؟!

وقد أخرج الطبري في تاريخه عدداً كبيراً من الروايات من مصادره حول عملية قتل عثمان، تتفق في اجمالها مع ما ورد أعلاه لدى المصادر الأخرى. وأشير من بينها الى رواية له عن الواقدي يذكر فيها صراحة أن الثوار قد استعجلوا عملية القتل عندما سمعوا أنباء عن قدوم قوات من الشام والعراق ومصر لانقاذ الخليفة. كما أشير الى رواية عن جعفر المحمدي يذكر فيها أن السبب الذي استفز الثوار ودفعهم للهجوم كان قيام المتحصنين مع عثمان بقتل رجل محترم منهم، وصف بأنه صحابي ويدعى نيار بن عياض الاسلمي، عندما رموه بسهم بينما كان يقف مخاطباً عثمان. ورفض عثمان تسليم القاتل (وهو ربما أبو حفصة اليماني مولى مروان أو كثير بن الصلت الكندي).

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب:

عن الزبير «وكان أول من دخل الدار عليه محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحيته فقال له: دعها يا ابن أخي! والله لقد كان أبوك يكرمها. فاستحيا وخرج.

ثم دخل رومان بن سرحان - رجل أزرق قصير محدود، عداده في مراد، وهو من ذي أصبح - معه خنجر، فاستقبله به وقال: على أي دين أنت يا نعثل؟

فقال: لستُ بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة ابراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين.

قال: كذبتَ! وضربه على صُدغه الأيسر، فقتله. فخرّ رضي الله عنه، وأدخلته امرأته نائلة بينها وبين ثيابها، وكانت امرأة جسيمة. ودخل رجل من أهل مصر معه السيف مصلتاً فقال: والله لأقطعنّ أنفه فعالج المرأة، فكشفت عن ذراعيها، وقبضت على السيف، فقطع ابهامها فقالت لغلام لعثمان - يقال له رباح - ومعه سيف عثمان: أعني على هذا وأخرجه عني. فضربه الغلام بالسيف فقتله»

وأضاف ابن عبد البر «واختلف فيمن باشر قتله بنفسه:

فقيل: محمد بن أبي بكر ضربه بمشقص.

وقيل: بل حبسه محمد بن أبي بكر وأسعده غيره، وكان الذي قتله سودان بن حمران.

وقيل: بل ولي قتله رومان اليمامي.

وقيل: بل رومان رجل من بني أسد بن خزيمة.

وقيل: بل ان محمد بن أبي بكر أخذ بلحيته فهزها وقال: ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن أبي سرح، وما أغنى عنك ابن عامر. فقال له: يا ابن أخي أرسل لحيتي، فوالله انك لتجبذ لحية كانت تعز على أبيك، وما كان أبوك يرضى مجلسك هذا مني! فيقال: انه حينئذ تركه وخرج عنه. ويقال: انه حينئذ أشار الى من كان معه، فطعنه أحدهم وقتلوه. والله أعلم»

كما ذكر رواية كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب التي برّأ فيها محمد بن أبي بكر من دمه ويقول «قتله رجل من أهل مصر يقال له: جبلة بن الأيهم ثم طاف بالمدينة ثلاثاً يقول: أنا قاتل نعثل»

ولم يغفل ابن عبد البر الحديث عن الدم السائل فوق المصحف، فقال: «وأكثرهم يروي أن كل قطرة، أو قطرات من دمه سقطت على المصحف، على قوله جل وعلا (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)»

وقد انفرد اليعقوبي في تاريخه بذكر محمد بن أبي حذيفة من ضمن القتلة. فروى باختصاره المعهود :

«وكان الذين تولوا قتله: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وابن حزم،

وقيل: كنانة بن بشر التجيبي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران»

وروى السيوطي في تاريخ الخلفاء أن محمد بن أبي بكر هو الذي بادر بتسور دار عثمان ومعه «رجلان» أرسلهما بقتله، ويروي إمساك محمد بلحية عثمان ثم انسحابه بعد أن ذكره عثمان بأبيه، فقام «الرجلان» بقتله. كما أخرج رواية لابن عساكر عن كنانة مولى صفية فيها جعله للقاتل الفعلي لعثمان رجل من أهل مصر، أزرق أشقر، يقال له: حمار»

ومن إجمالي الروايات أعلاه يمكن تلخيص ما يجري على النحو التالي:

- هناك شبه إجماع على مسؤولية الثوار القادمين من مصر عن تنفيذ عملية القتل.
- وصلت المدينة أخبار بأن الغوث قادم لعثمان من ولاته في الأمصار. فشعر الثوار بالحاجة إلى التصرف بسرعة قبل وصول المدد. فزادوا من شدة حصارهم لعثمان وضغطهم عليه ليعتزل الخلافة أو يواجه القتل. وفي تلك الأثناء قتل أحد رجالات الثائرين بسهم أطلقه أحد المتحصنين مع عثمان، ولما رفض الخليفة تسليم المسؤول عن ذلك استغل الثوار ذلك للمباشرة بقتل عثمان.

* تلقى المهاجمون مساعدة لوجستية من شخصيات أنصارية من أهل المدينة، وبالتحديد من عمرو بن حزم الذي كان جاراً لعثمان ففتح أبواب داره، وأدخل الثوار ليهاجموا عثمان منها. كما انضم رفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري[1] إلى جموع الثوار في هجومهم على عثمان ومن معه، وشارك في إشعال النيران بباب دار عثمان.

* هناك تضارب حول أسماء الأشخاص الذين اقتحموا دار عثمان وقتلوه. ولكن تُجمِعُ الروايات على دخول محمد بن أبي بكر عليه وإمساكه بلحيته وقوله له إنه لم يُغنِ عنه معاوية ولا ابن أبي السرح ولا مروان ولا ابن عامر، وأن عثمان ذكّره بأبيه وقال له إنه لو رآه في هذا الموقف لساءه ذلك جداً، فاستحى محمد وخرج ليترك المجال لغيره ليتمّ المهمة. وبالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، تذكر الروايات أسماء: كنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وابن حتّان الأصبحي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، والغافقي بن حرب وغيرهم، كمسؤولين مباشرين عن قتل الخليفة.

وفي ظل تلك الفوضى العارمة، وحتى القتل المستمر، يصعب تحديد الذين قاموا بتسديد الطعنات إلى جسد عثمان العجوز، ولكن الأرجح أن يكونوا من بين هؤلاء الأشخاص المعروفين بحماسهم وتشددهم تجاه عثمان.

وليس مهماً في الحقيقة أن تتم الإشارة إلى اسم معين كمسؤول عن قتل عثمان، لأن ظروف تلك الحادثة تجعل المسؤولية جماعية إلى أقصى حد. فما تمّ ليس حادث اغتيال فردي وإنما نتيجة هياج عام وغليان تراكم حتى انفجر. ومن المستبعد أن يكون هناك مَن بين الثوار من لم يفقد صبره بعد ذلك الحصار الطويل والمفاوضات المضنية، بلا طائل.

وتذكر الروايات بعض التفاصيل الدرامية في ذلك الموقف العصيب، وبعضها يشير إلى دفاع زوجة الخليفة، نائلة بنت الفرافصة عنه دون جدوى،

---

(1) سبق الحديث عنه من ضمن الشخصيات الأنصارية التي انضمت إلى معسكر الثوار.

مما أدى إلى قطع أصابع يدها. وبعضها الآخر يشير إلى أن الخليفة كان يقرأ القرآن حين قتل «سال الدم على المصحف»! وأخرى تقول ان قطرة دم سقطت على المصحف تماماً فوق آية «فسيكفيكهم الله»!

وكان قتل عثمان في 18 من ذي الحجة سنة 35.

## هل دافع مروان عن الخليفة؟[1]

من المدهش جداً أن مروان بن الحكم قد نجا من القتل رغم وجوده الى جانب عثمان في تلك الظروف العصيبة.

وعلى الرغم من أن بعض الروايات تشير إلى أن مروان كان يدافع عن الخليفة وأنه القتال تعرض للضرب والاعتداء حتى أغشي عليه، إلاّ أن ذلك مستبعد تماماً. فليس هناك أي تفسير مقنع يمنع الثوار من قتل مروان. فرأس مروان كان من المطالب الرئيسية للثوار، والذي بسببه ربما فقد عثمان حياته. فكيف يمتنع الثوار عن قتل مروان إذن؟ لقد قاموا بقتل رأس الدولة، وشيخ بني أمية، ولم يبالوا بكونه خليفة للمسلمين، فما الذي يمكن أن يخالهم من جراء إضافة مروان إلى جانب عثمان كضحية لهذه الثورة؟

ولقد روى الطبري في تاريخه لخبراً عدة بشأن مروان. فمن طريق الواقدي روى أن شاهد العيان أبا حفصة اليماني، وهو مولى لمروان، قال ان عثمان (... فقال لمروان: اجلس فلا تخرج.

*فعصاه مروان فقال: والله لا تقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت! ثم خرج إلى الناس.*

*فقلت ما لمولاي متروك فخرجت معه أذب عنه ونحن قليل. فأسمع مروان يتمثل*

*قد علمت ذات القرون الميل * والكف والأنامل الطفول*

(1) مصادر البحث: تاريخ الطبري (ج 3 – ص 412 – 414)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج57 ص241، ص259)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص [illegible])، وكتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص [illegible]).

ثم صاح من يبارز؟ وقد رفع أسفل درعه فجعله في منطقته

قال فوثب إليه ابن النباع فضربه ضربة على رقبته من خلفه فأثبته حتى سقط فما ينبض منه عرق. فأدخلته بيت فاطمة ابنة أوس جدة إبراهيم بن العدي

قال فكان عبد الملك وبنو أمية يعرفون ذلك لآل العدي»

وروى عن طريق جعفر المحمدي عن حسين بن عيسى عن أبيه «... وحمل رفاعة بن رافع الأنصاري ثم الزرقي على مروان ابن الحكم فضربه فصرعه فنزل عنه وهو يرى أنه قد قتله»

وروى الطبري أيضا عن طريق ابن إسحق عن أبي بكر بن الحارث بن هشام:

«.. فخرج مروان بن الحكم فقال من يبارز؟

فقال عبد الرحمن بن عديس لفلان بن عروة: قم إلى هذا الرجل. فقام إليه غلام شاب طوال فأخذ رفيف الدرع فغرزه في منطقته فأعور له عن ساقه فأهوى له مروان وضربه ابن عروة على عنقه فكأني أنظر إليه حين استدار.

وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقي ليدفف عليه. قال فوثبت عليه فاطمة ابنة أوس جدة إبراهيم بن عدي قال وكانت أرضعت مروان وأرضعت له فقالت: إن كنت إنما تريد قتل الرجل فقد قتل، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح!

قال فكف عنه. فما زالوا يشكرونها لها فاستعملوا ابنها إبراهيم بعد»

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد أن ابن النباع الليثي كان «يبارز مروان بن الحكم.

فكأني أنظر إلى قبائه قد أدخل طرفيه في منطقته وتحت القباء الدرع.

فضرب مروانَ على قفاه ضربة قطع علابي رقبته، ووقع لوجهه فأرادوا أن يدففوا عليه، فقيل: أتبضعون اللحم؟! فتركه» وروى أيضاً عن ابراهيم بن عبيد بن رفاعة قال «قال أبي بعد الدار، وهو يذكر مروان بن الحكم: عباد الله! والله لقد ضربتُ رقبته فما أحسبه إلاّ قد مات. ولكن المرأة أحفظتني قالت: ما تصنعُ بلحمه تبضعه؟ فأحفظني الحفاظ فتركته»

وهكذا فالروايات مضطربة، فبعضها يذكر ان الذي هاجم مروان كان ابن النباع (او ابن البياع)، وبعضها تذكر رفاعة بن رافع (أو عبيد بن رفاعة). وقد ذكرنا سابقاً أن ابن الأثير وابن عبد البر قد ذكرا أن الحجاج بن عمرو الانصاري هو الذي ضرب مروان يوم الدار فأسقطه وهو لا يعقل.

ولكن معظمها تشير الى أن مروان قد حُمل الى بيت امرأة وهو شبه ميت فقامت بإبعاد المهاجمين عنه.

ولكن هذه الروايات غير مقنعة، وربما يكون فيها اختلاق لمصلحة مروان. فلو كان مروان جاداً في الدفاع عن الخليفة كما تصوره الروايات لما كان ممكناً أن يبقى على قيد الحياة، ولكان مصيره مثل غيره ممن أخلصوا لعثمان ونادوا عنه: فقد روى ابن حبان في كتاب الثقات «وقتل يوم قتل عثمان من قريش عبد الله بن وهب بن زمعة الأسدي وعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام والمغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي، وقتل معهم غلام لعثمان أسود. اربعة أنفس»[1]

ومما يضعف من نظرية قيام مروان بالاستبسال في الدفاع عن الخليفة أن قصة المرأة التي أنقذت مروان بن الحكم من الموت، بعد أن أصيب وكاد يهلك، تكررت في سياق أحداث حرب الجمل، وبشكل يكاد يكون متطابقاً تقريباً ! فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد «وقاتل مروان أيضاً حتى ارتُثّ. فحُمِل الى بيت امرأة من عنزة. فداووه وقاموا عليه.

فما زال آل مروان يشكرون ذلك لهم!

فهل هذا معقول ؟ وهل كان مروان متخصصاً في العثور على نساء يسعفنه بعد إصاباته الخطرة؟!

فالأرجح إذن أن مروان بن الحكم قد فرّ من المعمعة المتوترة بطريقة ما، لما شعر باقتراب أجل عثمان والتمس تصميم الثوار على قتله. وليس تصرفٌ كهذا بغريب على شخص كمروان.

---

(1) وهذه الرواية توضح مدى العزلة التي عانى منها عثمان أثناء محنته، كما توضح مدى الخذلان الذي تعرض له. فمن لا يقتل مع الخليفة سوى أربعة أنفس فذلك يعني الكثير.

وأما غير مروان من بني أمية الموجودين في المدينة، فقد كانوا مختبئين عند زوجة الرسول (ص) الأموية في مخزن للحبوب أثناء تلك الأحداث العاصفة! روى البلاذري في أنساب الأشراف من طريق المدائني قال: لجأ بنو أمية يوم قتل عثمان إلى أم حبيبة، فجعلت آل العاص وآل حرب وآل أبي العاص وآل أسيد في كندوج[1] وجعلت سائرهم في مكان آخر.

ونظر معاوية يوماً إلى عمرو بن سعيد يختال في مشيته فقال: بأبي وأمي أم حبيبة ما كان أعلمها بهذا الحيّ حين جعلتك في كندوج!

دفن عثمان[2]

لم تقتصر مأساة الخليفة العجوز على حصاره وإهانته في أواخر أيامه ولا على الطريقة القاسية التي قتل بها، بل امتدت إلى ما بعد وفاته: تجهيزه ودفنه.

روى الطبري في تاريخه من طريق جعفر المحمدي:

لبث عثمان رضي الله عنه ثلاثة أيام لا يدفن.

ثم إن حكيم بن حزام القرشي ثم أحد بني أسد بن عبد العزى وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كلما علياً في دفنه وطلبا إليه أن يأذن لأهله في ذلك ففعل وأذن لهم علي.

فلما سمع بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يقال له حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم.

فلما خرج على الناس رجموا سريره وهموا بطرحه فبلغ ذلك علياً

(1) الكندوج هو مخزن تجمع فيه الغلال.
(2) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص78)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص43)، تاريخ الطبري (ج5 ص143-144)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص154)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص479)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج1 ص110)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص382-383).

فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا فانطلق حتى دفن رضي الله عنه في حش كوكب.

فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس أمر بهدم ذلك الحائط حتى أفضى به إلى البقيع فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين»[1]

وروى من طريق الواقدي «لبث عثمان بعد ما قتل ليلتين لا يستطيعون دفنه. ثم حمله أربعة حكيم بن حزام وجبير بن مطعم ونيار بن مكرم وأبو جهم بن حذيفة، فلما وضع ليصلى عليه جاء نفر من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه فيهم أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حية المازني في عدة ومنعوهم أن يدفن بالبقيع.

فقال أبو جهم ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته.

فقالوا: لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً!

فدفنوه في حش كوكب.

فلما ملكت بنو أمية أدخلوا ذلك الحش في البقيع فهو اليوم مقبرة بني أمية»

وبالاضافة الى الروايتين أعلاه، سرد الطبري مجموعة اخرى من الروايات المتعلقة بدفن عثمان. فمن الواقدي أن طلحة اقترح ان يدفن عثمان بمقبرة اليهود بدير سلع، ولكن حكيم بن حزام رفض بشدة وثار وأصر أن يدفن ببقيع الغرقد. وفي رواية اخرى للواقدي أن زوجته نائلة طلبت من حويطب بن عبد العزى وجبير بن مطعم وابي جهم بن حذيفة وحكيم بن حزام ونيار الاسلمي أن يتولوا دفنه، فحملوه الى البقيع بين المغرب والعشاء ودفنوه عند نخلات عليها حائط بعد ان صلى عليه جبير بن مطعم، وانهم كانوا خائفين ان ينبش ا

---

(1) لا شك أن معاوية كان يشعر بمدى الاهانة التي تعرض لها شيخه والد بني أمية عثمان والمتمثلة بكونه مقبوراً بين اليهود فسعى الى تصحيح الوضع من طريق دمج المكانين فلا يبقى عثمان بعيداً عن قبور المسلمين.

وفي رواية ثالثة للواقدي أن البعض أراد منع دفن عثمان لولا أن منعتهم زوجته. وأنهم أرادوا أن يصلوا عليه في موضع الجنائز فأبت الأنصار.

وعن سيف بن عمر أن مروان بن الحكم قد صلى عليه ودفن في البقيع أدنى حش كوكب مع مجموعة من عبيده وأنه لم يغسل وكفن في ثيابه.

وعن جعفر المحمدي أنه لم يشهد جنازته سوى مروان وثلاثة من مواليه وابنته.

وروى اليعقوبي في تاريخه «وأقام ثلاثاً لم يدفن. وحضر دفنه حكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، وحويطب بن عبد العزى وعمرو بن عثمان ابنه. ودفن بالمدينة ليلاً في موضع يعرف بحش كوكب. وصلى عليه هؤلاء الأربعة.

وقيل: لم يصلَّ عليه.

وقيل: أحد الأربعة قد صلى عليه، فدفن بغير صلاة.»

وجاء في الإمامة والسياسة:

«... فأتاهم أبي نفر فيهم جبير بن مطعم، وأبو الجهم بن حذيفة، والمسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، فاحتملوه على باب وإن رأسه ليقول: طق طق، فوضعوه في موضع الجنائز.

فقام إليهم رجال من الأنصار، فقالوا لهم: لا والله لا تصلون عليه!

فقال أبو الجهم: ألا تدعونا نصلي عليه، فقد صلى الله تعالى عليه وملائكته ...... فاحتملوه ثم انطلقوا مسرعين كأني أسمع وقع رأسه على اللوح، حتى وضعوه في أدنى البقيع.

فأتاهم جبلة بن عمرو الساعدي من الأنصار، فقال: لا والله لا تدفنوه في بقيع رسول الله، ولا نترككم تصلون عليه!

فقال أبو الجهم: انطلقوا بنا، إن لم نصل عليه فقد صلى الله عليه، فخرجوا ومعهم عائشة بنت عثمان، معها مصباح في حق، حتى إذا أتوا به حش كوكب حفروا له حفرة، ثم قاموا يصلون عليه، وأمهم جبير بن مطعم ثم

دابره في حفرته، فلما رأته ابنته صاحت، فقال ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عيناك، فسكتت، ولم يلحدوه بلبن، وحثوا عليه التراب حثواً»

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب:

عن مالك: لما قتل عثمان رضي الله عنه ألقي على المزبلة ثلاثة أيام. فلما كان من الليل أتاه اثنا عشر رجلاً فيهم حويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وعبد الله بن الزبير، وجدي، فاحتملوه. فلما صاروا به إلى المقبرة ليدفنوه، ناداهم قوم من بني مازن: والله لئن دفنتموه هاهنا لنخبرن الناس غداً، فاحتملوه، وكان على باب، وإن رأسه على الباب ليقول: طق طق، حتى صاروا به إلى حش كوكب، فاحتفروا له، وكانت عائشة بنت عثمان رضي الله عنهما معها مصباح في جرة، فلما أخرجوه ليدفنوه صاحت، فقال لها ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عيناك. قال: فسكتت. فدفن»

وأضاف ابن عبد البر موضحاً بشأن حش كوكب فقال: كوكب: رجل من الأنصار. والحش: البستان. وكان عثمان رضي الله عنه قد اشتراه، وزاده في البقيع، فكان أول من دفن فيه. وحُمل على لوح سراً»

وذكر ابن عبد البر روايات أخرى بشأن دفن عثمان:

«وقد قيل: إنه صلى عليه عمرو بن عثمان ابنه.

وقيل: بل صلى عليه حكيم بن حزام.

وقيل: المسور بن مخرمة.

وقيل: كانوا خمسة، أو ستة وهم: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم وزوجتاه: نائلة وأم البنين بنت عيينة. ونزل في القبر نيار وأبو جهم وجبير. وكان حكيم وزوجتاه أم البنين ونائلة يدلونه. فلما دفنوه غيبوا قبره رضي الله تعالى عنه»

ويروى عن الزبير: بقي عثمان رضي الله عنه يومه ذاك مطروحاً إلى الليل، فحمله رجال على باب ليدفنوه، فعرض لهم ناس ليمنعوهم من دفنه، فوجدوا قبراً قد كان حفر لغيره فدفنوه فيه. وصلى عليه جبير بن مطعم»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة عن الزهري فجاءت أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها فوقفت بباب المسجد فقالت: لتخلُنّ بيني وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفنّ ستر رسول الله (ص). فخلوها.

فلما أمسوا حمله جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله والمنذر ابنا الزبير، وأبو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن حسل رضي الله عنهم فحملوه فانتهوا به إلى البقيع. فمنعهم من دفنه ابن بجرة ويقال ابن نجرة الساعدي، فانطلقوا به إلى حش كوكب فصلى عليه جبير بن مطعم رضي الله عنه ثم دفنوه وانصرفوا.

كما أخرج روايات أخرى تقول ان الذي منع من دفنه كان جبلة بن عمرو الساعدي مما دفعهم الى دفنه في حش كوكب وان الذي صلى عليه كان المسور بن مخرمة الزهري وأنهم هالوا عليه التراب ولم يضعوا على لحده لبناً وان التي كانت معهم عائشة ابنته. وأخرى تقول ان الذي صلى عليه كان جبير بن مطعم في ثمانية رهط منهم حكيم بن حزام والحسن بن علي وابو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن عمر وامرأتاه نائلة بنت الفرافصة وام البنين بنت عيينة بن بدر. ورواية تذكر اسم نيار بن مكرم الاسلمي ضمن من دفنوه.

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى عدة روايات حول دفن عثمان تفيد أن أربعة رجال قاموا بدفن عثمان والصلاة عليه وهم جبير بن مطعم (وهو الذي صلى عليه)، وحكيم بن حزام وأبو حذيفة بن الجهم العدوي ونيار بن مكرم الأسلمي، وقد دفنوه ليلا في حش كوكب، بعد أن خرجت معهم زوجتا عثمان: نائلة بنت الفرافصة وأم البنين بنت عيينة.

وذكر أيضا رواية ان جبير بن مطعم صلى عليه في ستة عشر رجلا، ولكنه قال ان الروايات السابقة هي الأثبت.

وذكر رواية أن من ضمن الأربعة كان جد مالك بن أبي عامر

ويلاحظ اختلاف في أسماء الأشخاص الأربعة بين روايات ابن سعد وغيره، كما لم يذكر أم حبيبة، ولم يتطرق إلى بقاء جثته ثلاثة أيام بلا دفن.

وجمع ابن الاثير في اسد الغابة مختلف الروايات فقال: فلما قتل دفن ليلاً، وصلى عليه جبير بن مطعم، وقيل حكيم بن حزام، وقيل المسور بن مخرمة، وقيل لم يصلّ عليه احد منعوا من ذلك.

ودفن في حش كوكب بالبقيع. وكان عثمان اشتراه وزاده في البقيع

وحضره عبد الله بن الزبير وامرأتاه ام البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية ونائلة بنت الفرافصة الكلبية، فلما دلوه في القبر صاحت ابنته عائشة فقال لها ابن الزبير: اسكتي وإلاّ قتلتك. فلما دفنوه قال لها: صيحي الآن ما بدا لك أن تصيحي)

وهذه الروايات كما هو ظاهر فيها اضطرابٌ كبير في تحديد تفاصيل دفن الخليفة. وهذا الاضطراب مفهومٌ بل طبيعيٌ في مثل تلك الظروف المأساوية، حيث الفوضى العارمة تسود في المدينة (فمثلاً يرد في الروايات اسم نيار بن عياض الاسلمي ضمن قتلة عثمان بينما يرد اسم نيار بن مكرم الاسلمي ضمن من دفنوه! فهل هناك غلط؟ أم انهما نيّاران أحدهما يقتل عثمان والآخر يدفنه؟)

ويمكن تلخيص الروايات والجمع بينها على النحو التالي:

- بقيت جثة الخليفة ليومين أو ثلاثة بدون دفن، وبلا احترام. ولا يمكن استبعاد الروايات التي تقول بأن بعض الثائرين قد اعتدوا على الجثة أو على الأقل حاولوا ذلك.
- تدخلت زوجتا الخليفة، نائلة بنت الفرافصة وام البنين بنت عيينة بن حصن، أو أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، وضغطن من اجل دفنه، عن طريق استنهاض همم رجال من أشراف قريش واستثارة حميتهم.
- تصدى مجموعة من أبناء بطون قبيلة قريش لمهمة الصلاة على عثمان ودفنه. وكانت مهمة صعبة وخطرة نظراً الى انعدام الأمن في المدينة وسيطرة العناصر الحاقدة على الخليفة ميدانياً. وهؤلاء الذين تولوا أمر عثمان كانوا حكيم بن حزام (من بني أسد بن العزى)، وجبير بن مطعم (من بني نوفل بن عبد مناف) وأبو جهم بن حذيفة (من بني عدي) والمسور بن مخرمة (من بني زهرة)، وربما كان معهم عبد الله بن الزبير بن العوام وحويطب بن عبد العزى. ولا أستبعد الرواية التي تقول بأن مروان بن الحكم قد شارك في الصلاة عليه أو دفنه. فقام هؤلاء بحمله ليلاً من أجل تجنب مواجهة جماهير الثائرين، وصلى

عليه احدهم. وهنا يلاحظ غياب كبار الصحابة: فلم يشارك علي ولا الزبير ولا طلحة ولا سعد بن ابي وقاص ولا عبد الله بن عمر.

- لم يتمكن هؤلاء من دفن عثمان في مقبرة المسلمين المعروفة في البقيع، فقد عارضهم وتصدى لهم شخصيات من أهل المدينة من الانصار، ممن كانوا حاقدين على الخليفة. ويمكن الاشارة الى شخصيات من بني ساعدة بالتحديد مثل جبلة بن عمرو وأبي بحرة مما قد يدفع الى الاعتقاد أن أقرباء سعد بن عبادة هؤلاء كانوا لا يزالون متأثرين بما جرى لزعيمهم على أيدي قيادات قريش قبل حوالي ربع قرن. وطبعاً كانوا مدعومين من أوساط الثائرين.
- اضطر المتولون أمر عثمان الى البحث عن مكان آخر لدفنه، فكان المحل هو حش كوكب الذي هو منطقة غير بعيدة عن البقيع كان اليهود يستعملونها لدفن موتاهم. واحتياطاً قاموا بإخفاء معالم القبر، بعد أن دفنوه بسرعة. وفيما بعد لما سيطر بنو أمية على الخلافة انتبه معاوية الى رمزية المكان (اليهودي) المتعلق به عثمان، فأمر بإزالة الفواصل بينه وبين مقبرة البقيع وبدفن المسلمين حوله، الى أن اتصل بها.

وذكر ابن الاثير في اسد الغابة عن نافع ان عثمان قتل يوم الجمعة 18 أو 17 من ذي الحجة سنة 35. وعن ابي عثمان النهدي: قتل في وسط ايام التشريق. وعن الواقدي: قتل يوم الجمعة 8 ذي الحجة يوم التروية من سنة 35. وقيل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة.

وقال ايضاً «وكان عمره 82 سنة، وقيل: 86 سنة قاله قتادة، وقيل كان عمره 90 سنة»

وقال الطبري في تاريخه «وقتل لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة 35، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وقيل ست وثمانين سنة»

## مصادر الكتاب


• عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي 630 للهجرة:

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهبية 1280.

- الكامل في التاريخ

- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت.

• أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الأربلي، توفي 693 للهجرة، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية 1405 ه – 1985 م.

• أحمد بن أعثم الكوفي، توفي 314 للهجرة، كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، سنة 1411 ه – 1991 م مطبعة دار الأضواء، الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

• محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

• أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، توفي 256 للهجرة:

- الجامع الصحيح، طبعة دار الجيل، بيروت – لبنان

- التاريخ الصغير، تحقيق محمود ابراهيم زايد، الطبعة الأولى 1406، دار المعرفة – بيروت.

• محمد بن حبيب البغدادي، توفي 245 للهجرة، المنمق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، 1964، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية – حيدر آباد – الهند

- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، توفي 279 للهجرة:
- أنساب الأشراف، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي – بيروت ط1، 1394 – 1974.
- أنساب الأشراف، تحقيق / سهيل زكار، ورياض زركلي. دار الفكر، 1417.
- فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي – القاهرة.
- أبو عيسى الترمذي، توفي 279 للهجرة، سنن الترمذي (وهو الجامع الصحيح)، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1983.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، توفي 255 للهجرة، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية – بيروت.
- علام جعيط، معاصر، الفتنة، دار الطليعة – بيروت، الطبعة الرابعة 2000
- أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، توفي 405 للهجرة، المستدرك على الصحيحين، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة – بيروت، 1406
- محمد بن حبان أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة 354 للهجرة
- صحيح ابن حبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1993
- كتاب الثقات، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393 – حيدر آباد / الهند، الناشر مؤسسة الكتب الثقافية
- أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، توفي 852 للهجرة.
- الاصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة الأولى 1995
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة – بيروت.
- عز الدين أبو حامد بن هبة الله ابن أبي الحديد، توفي 656 للهجرة، شرح نهج البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى 1959

* محمد بن الحسن الحر العاملي، توفي 1104 للهجرة، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد رضا الجلالي، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث بقم المشرفة، مطبعة مهر – قم، الطبعة الثانية 1414.
* أحمد بن محمد بن حنبل، توفي عام 241 للهجرة :
- كتاب العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الأولى، دار الخاني للنشر والتوزيع – الرياض.
- مسند أحمد، طبعة دار صادر – بيروت
* أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، توفي 463 للهجرة، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1417 – 1997.
* عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، توفي 808 للهجرة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور ب تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1971.
* خليفة بن خياط العصفري، توفي 240 للهجرة، تاريخ خليفة رواية بقي بن خالد، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان 1993
* علي بن عمر الدارقطني، توفي 385 للهجرة، علل الدارقطني، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، منشورات دار طيبة – الرياض، ط1 1405.
* عبد الله بن بهرام الدارمي، توفي 255 للهجرة، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال – دمشق.
* سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بأبي داود توفي 275 للهجرة، سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى 1990، دار الفكر – بيروت.
* أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، توفي 282 للهجرة. الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط1 1960، دار إحياء الكتب العربية.
* أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، توفي 748 للهجرة :
- تاريخ الاسلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1407 - 1987.

- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1413 – 1993

- السيد سابق، فقه السنة، ط1 2003، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- محمد بن سعد، توفي 230 للهجرة، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، توفي 76 للهجرة بتحقيق الشيخ محمد باقر الانصاري (الناشر غير مذكور).
- جلال الدين السيوطي، توفي 911 للهجرة، تاريخ الخلفاء، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى 2001، دار اليقين – مصر.
- الفضل بن شاذان الازدي النيسابوري، الإيضاح، توفي 260 للهجرة بتحقيق جلال الدين الحسيني الارموي (الناشر غير مذكور).
- أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، توفي 262 للهجرة تاريخ المدينة المنورة، حققه فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية 1410، مطبعة قدس – قم.
- سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، توفي 360 للهجرة، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط2، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، توفي 310 للهجرة تاريخ الأمم والملوك تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.
- أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي 460 للهجرة رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الاولى، رمضان 1415.
- ابو عمر بن عبد البر القرطبي النمري، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد، دار الاعلام – الاردن، الطبعة الاولى 2002.
- احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث – الاسكندرية، الطبعة الاولى 1998.
- محمد عبده، شرح نهج البلاغة، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة العصرية – بيروت، 2002.
- أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، توفي 571 للهجرة، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي 276 للهجرة، الامامة

والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الأستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى – ايران، 1413

• محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، دار المعرفة – بيروت.

• عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، توفي 774 للهجرة:

- تفسير القرآن العظيم، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت – لبنان 1992

- البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، الطبعة الأولى 1408 للهجرة، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

• علي الكوراني العاملي، معاصر، جواهر التاريخ. الناشر: دار الهدى الطبعة الاولى 2004.

• محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر

• علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، توفي 975 للهجرة، كنز العمال، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة – بيروت.

• أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، توفي 345، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية – لبنان، 2007.

• أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة المكتبة العصرية – صيدا \ لبنان – 2003

• محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد، كتاب الجمل، مكتبة الداوري، قم – ايران.

• تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، توفي 845 للهجرة، النزاع والتخاصم بين بني امية وبني هاشم، تحقيق السيد علي عاشور.

• د. عدنان محمد ملحم، معاصر، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، دار الطليعة – بيروت. الطبعة الاولى 1998.

• أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الاسدي الكوفي، أسماء مصنفي الشيعة المشتهر برجال النجاشي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة 1416.

• أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، توفي 303 للهجرة، سنن النسائي،

بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، طبعة 1348/ 1930، دار الفكر – بيروت.

- نصر بن مزاحم المنقري، المتوفي سنة 212 للهجرة، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، 1382، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة. طبعة المكتبة العصرية. صيدا – لبنان، 2003
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، توفي 468 للهجرة، أسباب النزول، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة 1968. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع – القاهرة.
- محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي، توفي 207 للهجرة، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الثالثة 1989
- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي توفي 292 للهجرة، تاريخ اليعقوبي، دار صادر – بيروت.

## نبذة عن المؤلف

ولد حسام عبدالكريم، واسمه الكامل حسام محمود حسن شحادة عبد الكريم، في مدينة إربد في الأردن عام 1968، لأسرة فلسطينية نازحة.

وفي عام 1986 حصل على شهادة الثانوية العامة من الزرقاء – الأردن، وكان من ضمن الطلاب العشرة المتفوقين على مستوى المملكة الأردنية الهاشمية.

وفي عام 1991 حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية، من الجامعة الأردنية – عمان. وكان صاحب الترتيب الأول.

وفي عام 1992 حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكيميائية المتقدمة، من جامعة لندن، بمرتبة الشرف ومنذ ذلك الوقت عمل كمهندس في القطاع الخاص في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

وقد صدر له من قبل:

«قريش وعليّ» نشر عام 2006

«اخبار الفتنة الكبرى: عهد عثمان» نشر عام 2012

THE RISE OF MUAWIYAH

حسام عبد الكريم ◆ صعود معاوية خلفيات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

1

# صعود معاوية

## خلفيات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

▼

هذا الكتاب هو الجزء الأول من عمل ضخم يبحث في أحداث فتنة كبيرة في تاريخ صدر الإسلام، ويتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) وسنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). إنه بحث وتنقيب في أمهات الكتب والمصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي، ومقارنة بين الأخبار والروايات في المصادر المختلفة، وتحليلها وملاحظة الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها، وكل ذلك من أجل محاولة الوصول إلى الحقيقة التاريخية؛ ولهذا الغرض لا يتردد المؤلف في دحض مقولات وآراء ذاعت وشاعت عن طريق إخباريين ورواة غلبت عليهم عاطفتهم أو نزعاتهم المذهبية؛ كما لا يتردد في الدخول إلى مناطق حساسة من تاريخ صدر الإسلام تتعلق بالعلاقات بين كبار الصحابة ومواقفهم في مراحل مختلفة من مجريات الفتنة التي أدت إلى مقتل خليفة المسلمين على أيدي أفراد من رعيته من المسلمين.

الناشر

يلي هذا الجزء، جزء ثانٍ يتناول موضوع حرب الجمل بين علي وعائشة، وجزء ثالث يتناول معركة صفين التي أدت إلى نهاية عهد علي.

ISBN 978-6589-09-004-8